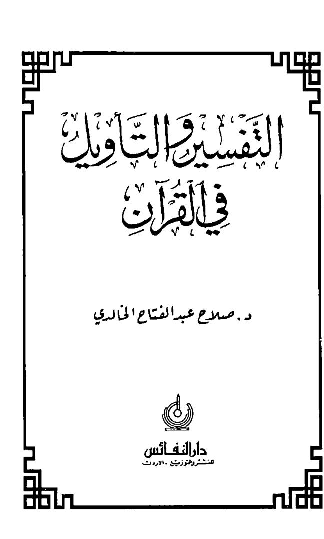
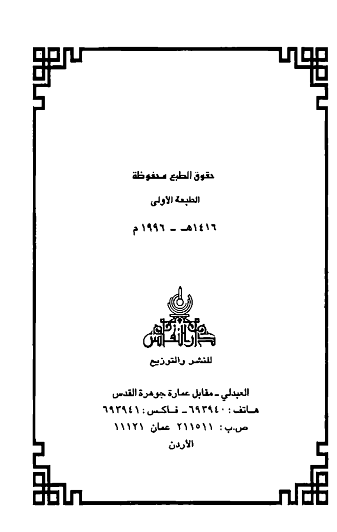

١
التفسير الموضوعي لمصطلحات القرآن
التفسير والتأويل
في القرآن
د. صلاح عبد الفتاح الخالدي
دار النفائس



التفسير والتأويل في القرآن

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الاردن

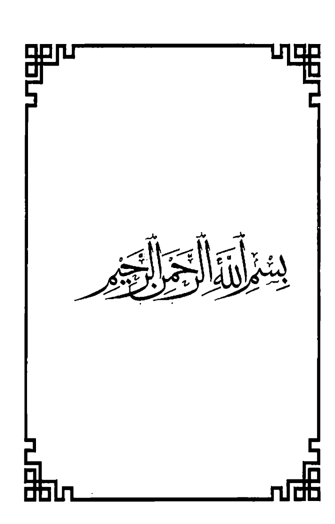


الطبعة الأولى

١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

للنشر والتوزيع

العبدلي ـ مقابل عمارة جوهرة القدس
هاتف: ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس: ٦٩٣٩٤١
ص.ب: ٢١١٥١١ عمان ١١١٢١
الأردن


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ، ونتوبُ إليه ونستغفرُه ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ، وسيئاتِ أعمالنا ، مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ، ومَن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهدُ ان لا إله إلا الله ، وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ ان محمداً عبدُه ورسوله ، صلواتُ الله وسلامُه عليه ، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد أوجبَ اللهُ على المسلمين تدبرَ آياتِ القرآن ، فقال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾[2]

وتدبُّرُ القرآن عن طريقِ إمعانِ النظر في سورِه وآياته ، وجمله وكلماته ، وتراكيبه ومفرداته ، والوقوفِ أمامها طويلاً ، ونفاذِ النظر إلى مضامينها ومراميها وأغراضها ، وملاحظةِ حقائقها ودقائقها ، والأنس والسعادةِ والاستمتاع بالحياة معها ، والاسترواح في ظلالها ، وقضاءِ أسعدِ الأوقات معها .

والمؤمنُ يفعل ذلك ليتعرفَ على معالم الحياة التي يريدُ القرآنُ إيجادَها، ومناهج الإصلاح التي يقررُها، يفعلُ ذلك ليعرفَ ماذا يريدُ الله منهُ أنْ

---

(١) سورة النساء: ٨٢ .

(٢) سورة محمد: ٢٤.

يكون، ليكون، ليعرفَ الأحكامَ التي يقررُها القرآن، والواجباتِ التي أوجبها اللهُ عليه في القرآنِ ليلتزمَها، والمنهياتِ التي نهاه الله عنها في القرآنِ ليتجنبَها.

المؤمنُ يفعلُ ذلك ليتعرفَ على أسس الدعوة في القرآن ، لينطلقَ من خلال القرآن داعياً إلى الله، ناصحاً للمسلمين ، ناشراً لهدى القرآن ، بشيراً ونذيراً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، متحدِّيًا للباطل ، مواجهًا للكفار ، مجاهداً للأعداء ، جندياً من جنودِ القرآن .

وإذا كان هذا المؤمنُ صاحبَ علم وفقه، وطالبَ فائدةٍ وبحث ، فإنه في تدبُّرِه للقرآن ، ونظره في سوره وآياته ، يحققُ ما سبقَ ذكرُه ، ويؤدّيه ويلتزمُه، ويجعلُ حياته وقفاً على تحقيقه ، ثم يضيفُ إليه أهدافاً أخرى سامية ، وأغراضاً رفيعةً عالية .

إنه يتدبرُ القرآن ، ويُمعنُ النظر فيه ، ليتعرفَ على أسلوبه وبيانه ، ويتذوقَ بلاغتَه وفصاحتَه ، ويقفَ على أسرارِ ومظاهرِ إعجازه ، وأساليبِ بيانه ، وروعةِ كلماته وتعبيراته .

إنه يعيشُ مع بيانِ القرآن ، وأسلوبِ القرآن ، وحديثِ القرآن ، ومفردات القرآن ، ومصطلحات القرآن ، وموضوعات القرآن ، ومعاني القرآن ، وحقائق القرآن .

إنه مع القرآنِ في أوقاتِه وساعاته ، في ليله ونهاره ، في مشاعره وتطلعاته، في نظراته وعباراته .

والقرآنُ الكريمُ كتابُ الله العظيم ، وكلامُه المعجز ، أنفسُ ما تنفقُ فيه الأوقات ، وتوجَّهُ له النظرات ، وتُقضى فيه الأعمار ، وتدورُ معه الأفكار .

رحمَ اللهُ الاستاذ سيد قطب حيث يقول في أولِ جملةٍ من «الظلال»: «الحياةُ في ظلال القرآن نعمة ، نعمةٌ لا يعرفُها إلا مَنْ ذاقها ، نعمةٌ ترفعُ

العمرَ وتباركَه وتزكيه ، ولقد مَنّ الله عليَّ بالحياةِ في ظلال القرآن ، فذقتُ منها ما لم أذقْ قط في حياتي ».

وأحمدُ اللهَ وأشكرُه على ما أنعَم عليَّ من نعمةِ التوجُّهِ إلى القرآن ، والإقبالِ عليه ، والتخصُّص فيه ، لقد يسَّرني لهذا الميدانِ المبارك ، ميدانِ القرآن وتأويله وتدبره ، و « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له ».

يا لها من نعمةٍ ربانية مباركة ، أنْ أعيشَ مع القرآن قارئاً وتالياً ، ومتدبِّراً متفكراً ، ومفسِّراً مؤوِّلاً ، ومحاضِراً متكلماً ، ومدرِّساً موجِّهاً ، وكاتباً مؤلفاً ، وكم أشعرُ بالسعادةِ والانشراح لهذا الخير الجزيل الجميل ، الذي ساقه الله إليَّ ، وجعلني مع كتابه الكريم .

ومهما أشكرُ اللهَ على هذه النعمة ـ وعلى غيرها من النعم الغامرة ـ فلنْ أوفيه سبحانه حقَّه من الشكر ، وسأبقى عاجزاً مقصِّراً ، وإنَّ مِن كرم اللهِ العظيم الكريم أنكَ كلما شكرته أنعمَ عليك ، وكلما ازددت له شكراً ـ وشكرُك قليلٌ عاجزٌ ناقص ـ تقبَّله منك ، وزادَ عليك إنعاماً وعطاءً وفضلاً ـ وإنعامه جزيلٌ وفير ـ هذه هي إرادتُه الحكيمة ، وسنتُه النافذة المطردة: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[1] .

عليَّ أنْ أشكرَ اللهَ ـ بوسائلي العاجزة المقصرة ـ بالإكثارِ من الإقبالِ على كتابه ، والزيادةِ من النظر فيه وتدبره ، والتمعن في تفسيره وتأويله ، والالتفاتِ إلى لطائفه ، ودلالاته ، وحقائقه ، وموضوعاتِه ، ونشر علومه ومناهجه، وإعدادِ الأبحاثِ والدراسات حوله ، وعرْضِ بعض ما أجدُه منه في الدروسِ والمحاضرات ، والأبحاثِ والمقالات ، والكتب والمؤلفات ، قياماً بالحقِّ المطلوبِ منّي ، وأداء لبعض الواجب الذي أوجبه الله عليَّ ، وأداءً لبعض الشكر الذي تعيَّنَ عليَّ .

---

(١) سورة إبراهيم: ٧.

وهذا كتابٌ جديدٌ من المؤلفات والكتب المتعلقة بالقرآن ، شاءَ اللهُ أنْ أبحثَ في موضوعاته ومباحثه ، وأعانني على السير فيه وعرْضِ أفكاره ، ووفقني لكتابته وصياغتِه ، فله الحمد والشكر .

أقدمُ هذا الكتاب « التفسير والتأويل في القرآن » ليكونَ أساسَ سلسلةٍ جديدةٍ أنوي إصدارَها ، وتتعلقُ بالتفسير الموضوعي للقرآن ، وتتوجَّهُ نحو لونٍ خاص من ألوان التفسير الموضوعي ، وهو « مصطلحات قرآنية » ، أخصصُ كلَّ مصطلح أو مصطلحين في كتاب ، وأعرضُ فيه كلامَ القرآن عنه ، وأقدمُه للقراء الكرام ، راجياً منهم الدعاءَ لي بظهر الغيب ، والنظرةَ الفاحصة في الكتاب ، وإرشادي إلى ما يرونه من ملاحظاتٍ أو استدراكات أو مؤاخذات ، لأنتفعَ بها ، شاكراً لهم كريمَ نصحِهم .

فصول البحث الأربعة

جاء هذا البحثُ في أربعةِ فصول:

الأول: التفسيرُ والتأويل في اللغة والاصطلاح: سِرْنا فيه مع معنى «التفسير في اللغة والاصطلاح » ، ثم معنى « التأويل في اللغة والاصطلاح». واستشهدْنا على معناه بكلام علماء اللغة والتفسير .

الثاني: التفسيرُ والتأويل في الأسلوب القرآني: وقفْنا فيه مع التفسير في سورة الفرقان . ثم انتقلْنا إلى بحثِ مصطلح « التأويل » في السياق القرآني.

وجدْنا أن « التأويل » لم يَرِدْ في القرآن إلا على هذه الصيغةِ المصدرية فقط « تأويل » . وأنه ورد في سبع سور .

وقفْنا مع كل سورة ، ننظرُ في سياق ورود التأويل فيها:

مع التأويل في سورة يوسف ، ثم في سورة الكهف ، ثم في سورة الأعراف ، ثم في سورة يونس ، ثم في سورة الإسراء ، ثم في سورة

النساء، وأخيراً في سورة آل عمران .

وأطلنا الوقفة مع آية التأويل في سورة آل عمران ، لحديثها عن المحكم والمتشابه والتأويل ، وإشارتها إلى المذموم من التأويل .

الثالث: التأويلُ في كلام الرسول ﷺ وأصحابه: عرضْنا فيه أمثلةً من الأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة يظهرُ منها استعمالهم للتأويل ، والمعنى الذي استعملوه فيه . ولاحظْنا أنهم استعملوه بمعنى فعْل نفس الشيء أو ردِّه إلى غايته العملية، وبمعنى الفهم والتفسير والبيان .

الرابع: الفرقُ بين التفسير والتأويل: سجّلنا فيه أهمَّ ما قاله السابقون من فروقٍ بين التفسير والتأويل ، وبالذاتِ ما قاله كلٌّ من الراغب الأصفهاني، وأبي البقاء الكفوي، والدكتور أحمد حسن فرحات .

ثم عرَضْنا الراجحَ في الفرق بين التفسير والتأويل عندنا ، حيثُ لاحظنا أنهما مرحلتان في فهم القرآن وتدبره ، مرحلة التفسير أولاً ، ثم مرحلة التأويل التي تليها وتُبنى عليها . وأورَدْنا الأدلة على هذا الفهم والترجيح ، من حديثِ الرسول ﷺ وكلام أصحابه ، وبيّنا أنَّ الأصل أنْ يكون كلُّ مؤوِّل مفسراً ، ولا يشترطُ أن يكونَ كلُّ مفسِّر مؤوِّلاً .

ثم لاحَظنا ورودَ معنى ثالثٍ للتأويل ، استعمله المتأخرون ، وهو الصرفُ والتحويل ، وبيّنا أنَّ منه ما هو مقبول ، ومنه ما هو مردود ، ورأيْنا رفضَ المردود ، وآثَرْنا عدمَ استعمالِه بهذا المعنى أصلاً ، لأنَّ المقبولَ منه يدخلُ ضمنَ المعنى الثاني .

الأول: بيانُ العاقبة والمآل ، وتحديدُ ما يؤولُ إليه النص ، وملاحظةُ صورته المادية النهائية ، وفعلُ المأمورِ به عملياً أو الانتهاءُ عن المنهيِّ عنه فعلياً .

وهذا هو معناه في القرآن ، ومعظم الأحاديث ، وكلام الصحابة .

الثاني: الفهمُ والتفسير ، والاستنباط والاستدلال ، وبهذا وردَ في بعض الحديثِ وكلام الصحابة .

ولا مانعَ أنْ نستخدمَه بالمعنى الثاني ، أنْ بمعنى الفهم والتفسير والبيان ، طالما وردَ في السُّنَّةِ وكلام الصحابة ، واستعمله بهذا أئمةُ التفسير وروادُ التأويل، وفي طليعتهم الامامُ محمد بن جرير الطبري .

وأخيراً هاهو البحث بين أيدي القارئين والباحثين ، فما فيه من صوابٍ فهو من اللهِ، والحمْدُ لله ، وما فيه من خطإٍ وقصور فهُو من النفسِ ومن الشيطان، ونعوذُ بالله ونستغفرُه ونتوبُ إليه ، ونرجو منه الأجرَ والثواب والرفعة والجنة .

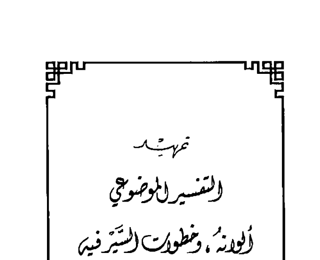
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

صويلح

الخميس ٢٥/ ٥/ ١٤١٥ هـ

١٩٩٤/١١/٣ م



تمهيد

التفسير الموضوعي

ألوانه، وخطوات السير فيه



التفسير الموضوعي

تفاسير القرآن أربعةُ أنواع:

الأول: التفسيرُ الإجمالي: وهو الذي يكتفي المفسِّرُ فيه بعرض المعنى للآيةِ أو الآياتِ عرضاً إجمالياً موجَزاً ، دون توسُّع أو تفصيل ، ويكونُ التفسيرُ ثلاثة أضعاف القرآن تقريباً .

من التفاسير الإجمالية: تفسير الجلالين ، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف .

الثاني: التفسيرُ التفصيلي: وهو الذي يَسيرُ فيه المفسرُ مع سورِ القرآن سورةً سورة ، ومع آياتِه آيةً آية، ويتوسَّعُ في تفسيرها وتأويلها ، ويفصِّلُ في كلامه، ويستطرد، ويعرض موضوعاتٍ ، ومباحثَ ، ومسائل عديدة. ومعظمُ التفاسير هي من هذا النوع ، مثل: تفسير الطبري ، وتفسير الزمخشري ، وتفسير الرازي ، وتفسير الألوسي .

وهذه التفاسيرُ المفصلة منها ماهو وجيز ، ومنها ما هو وسيط ، ومنها ما هو مطوَّل ، لكنها تبقى تفاسيرَ تفصيلية تحليلية .

الثالث: التفسيرُ المقارن: بحيث يدرسُ الباحثُ تفسيرَ السورة أو الموضوع القرآني في أكثر من تفسير ، ثم يستخلصُ منهجَ وطريقة كلِّ مفسرٍ فيها ، وبعد ذلك يعقدُ مقارناتٍ بين مناهج وطرائق هؤلاء المفسرين ، ليرى مافي

تفاسيرهم من جِدَّة وإضافة، وما فيها من تقليدٍ ومتابعة ، وما فيها من تكرارٍ أو إبداع، ثم يتعرفُ على مالها من إيجابيات ، وما عليها من مآخذ وسلبيات ، ويفعلُ ذلك بعد مقارنته بين هذه التفاسير .

الرابع: التفسير الموضوعي: وهو تفسيرُ هذا العصر ، ولم يشتهرْ هذا النوعُ عند المفسرين السابقين في القرون الماضية ، وإنما اشتهرَ بين الباحثين والمفكرين والمتدبرين في عصرنا ، ونرى أنَّ المستقبلَ إنما هو لهذا النوع مِن التفسير ، وله أهميةٌ خاصة ، ورسالةٌ عظيمة يؤدّيها .

وليس كلامي هنا عن الدراسةِ المنهجيةِ للتفسير الموضوعي، فإنَّ هذه العجالةَ لا تكفي له ، وأعِدُّ بإصدارِ دراسةٍ منهجيةٍ خاصةٍ عن « التفسير الموضوعي: أهميته ، ألوانه ، مناهجه » ، وقد تكونُ هذه الدراسةُ قريبةً إن شاء الله .

ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة :

أريدُ في هذه الوقفةِ السريعة ان أشيرَ إلى « ألوان التفسير الموضوعي » .

إن ألوان التفسير الموضوعي ثلاثة :

اللون الأول: التفسير الموضوعي للمصطلحات القرآنية: بحيثُ يختارُ الباحثُ مصطلحاً من مصطلحات القرآن ، ويُفرد له دراسة خاصة ، يتابعُ فيها هذا المصطلحَ في القرآن ، في اشتقاقاتِه وتصريفاتِه وحالاته العديدة ، ثم يتدبرُ الآياتِ التي وردَ فيها هذا المصطلح ، ويستخلصُ منها اللطائفَ والمعاني ، والدلالات والإشارات .

من أجود الأمثلة على هذا اللون من التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: رسالة « الأمة في دلالتها العربية والقرآنية » لأستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات، و « العهد والميثاق في القرآن » لزميلنا ـ في الدراسة ـ الأستاذ الدكتور ناصر العمر .

ومنها ـ بشيء من التساهل ـ كتاب « الضالون كما يصورهم القرآن » لعبد المتعال الجبري ، و « الصبر في القرآن » للدكتور يوسف القرضاوي .

وقد صحَّ عزمي ـ بعون الله ـ على اصدار سلسلةٍ لهذا اللون من التفسير الموضوعي ، وهي « التفسير الموضوعي للمصطلحات القرآنية » وهذه الرسالة: « التفسير والتأويل في القرآن » هي باكورةُ هذه السلسلةِ إن شاء الله .

اللون الثاني: التفسيرُ الموضوعي للموضوعات القرآنية ، بحيثُ يبقى الباحثُ مع موضوع من موضوعات القرآن ، يجمعُ الآياتِ حوله ، بمختلفِ صيغِها ومفرداتها، وكلماتها ومصطلحاتها .

وهذا الموضوعُ أشملُ من المصطلحات القرآنية ، لأنَّ القرآنَ يتحدثُ عن الموضوع الواحد بمفرداتٍ ومصطلحات مختلفة ، وعلى الباحثِ أنْ يجمعها وأنْ ينظرَ فيها ، وأنْ يستخرجَ دلالاتها وحقائقها .

مثل: الصلاة في القرآن. الجهاد في القرآن. العقيدة في القرآن. الرسول في القرآن . المنافقون في القرآن .

وقد حاولتُ في بعضِ ماكتبتُ أنْ أسلكَ هذا الميدان ، وأنْ تكونَ تلك الدراسة قريبةً من هذا اللون من التفسير الموضوعي بكتاب « مع قصص السابقين في القرآن » بحلقاتِه الثلاث ، الذي خصصتُه للحديثِ عن قصص غير الأنبياء في القرآن .

كما أمثلُ له بكتاب « الشخصية اليهودية من خلال القرآن: تاريخ وسمات ومصير » ، وبالكتابِ الآخر المتفرع منه وهو: « حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية » .

اللون الثالث: التفسيرُ الموضوعيُّ للسور القرآنية: يُفردُ الباحثُ فيه السورةَ القرآنية بدراسةٍ خاصة ، ويمعنُ النظرَ فيها ، ويبينُ الوحدةَ الموضوعية للسورة، ويلحظ أهدافها ومقاصدها ، ويقفُ على وحداتِها ودروسها ، ثم

يحللُـها تحليلاً موضوعياً ، ويقدمُها للقارئين وحدةً موضوعية متكاملة .

من أجودِ الدراسات القرآنية التي تمثلُ هذا اللونَ من التفسير الموضوعي ، كتاب « سـورة الحجرات: دراسة تحليلية موضوعية » للأستاذ الدكتور ناصر العمر.

ومنها كتاب « تدبُّرُ سورة الفرقان » لعبد الرحمن حبنكة الميداني .

ومنها ـ مع التسـاهل ـ دراساتُ الدكتور علي عبد الحليم محمود التربوية لبعض سور القرآن . مثل: تفسير سورة النور . وتفسير سورة المائدة .

ومنها ـ مع التساهل أيضاً ـ سلسلة الأستاذ عبد الحميد طهماز . « من موضوعات سور القرآن » . والتي أصدرَ منها حوالي عشرين رسالة .

وفي النية إصدارُ بعض الدراسـات لهذا اللون من التفسير الموضـوعي ، أفردُ فيه كلَّ سورةٍ برسالةٍ خاصة ، وأرجو من اللهِ التوفيقَ والعون .

ولا يفوتُني التذكيرُ بالبدايةِ الناجحة ، التي بدأها سيد قطب ـ وهي بداية ـ في تعريفهِ بالسـورِ القرآنية ، في الطبعةِ المنقحة من الظلال ، من سورة الفاتحة حتى سـورة الحجر ، وكلامُه في ذلك التعريف والتقـديم يصلحُ أنْ يكون « نواة » لمن بعدَه في هذا اللونِ من التفسير الموضوعي .

خطوات السير في التفسير الموضوعي :

كيفَ نبحثُ في المصطلح القرآني الواحد ؟ وكيفَ نفسـرُ هذا المصطلحَ تفسيراً موضوعياً ، وما هي الخطواتُ التي نتبعُها في ذلك؟

فيما يلي عـجالةٌ سريعةٌ لهـذه الخطوات ، وتُرجىءُ التفاصيل فيهـا إلى دراسةٍ منهجيةٍ قادمة عن التفسير الموضوعي إن شاء الله .

نريدُ أنْ نفسِّر « الجهاد في القرآن » تفسيراً موضوعياً ـ على سبيل المثال ـ فماهي الخطواتُ التي نسلكها في ذلك ؟

١ ـ نُعيدُ الكلمة إلى جَذْرها الثلاثي. فالجذرُ الثلاثي لمصطلح الجهاد هو «جهد».

٢ ـ نبحثُ عن المعنى اللغويِّ الاشتقاقيِّ لهذا الجذر الثلاثي في أمهاتِ كتب اللغة ، ومن أهمِّ المعاجم في ذلك « معجم مقاييس اللغة » لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . ونراجع في هذا كتبَ المعاجم الموسعة، ومن أفضلِها «لسان العرب» لابن منظور الأفريقي .

٣ ـ ننظرُ في معنى الكلمة ـ جهد ـ في الكتب التي تبيِّن معاني ألفاظِ وكلماتِ القرآن . وفي مقدمتِها كتابُ « مفردات ألفاظ القرآن » للإمام الراغب الأصفهاني . ومنها كتابُ « التصاريف » ليحيى بن سلام البصري، وكتاب « عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ » للسمين الحلبي . ويجبُ أنْ لا يفوتنا الاطلاعُ على الكلمة في معجم «الكليات» لأبي البقاء أيوب الحسيني الكفوي .

٤ ـ ننظرُ في اشتقاقاتِ وتصريفاتِ الكلمة ـ جهد ـ في القرآنِ الكريم، ونطلعُ على هذه التصريفات والحالات في الكتاب القيم النافع: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن » لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله . وتُعدُّ قائمةً بهذه الاشتقاقات والصيغ .

٥ ـ تتابعُ كلَّ صيغةٍ أو تصريف منها في آياتِ القرآن ، ونسجلُ هذه الآيات، ونرتبُها ، وننظرُ في بعض دلالاتها وإيحاءاتها .

٦ ـ نربطُ بين الأصل الاشتقاقي اللغوي للكلمة ، الذي أخذناه من مقاييس اللغة ولسان العرب والمفردات والكليات ، وبين الاستعمالِ القرآني، ونرى توفُّرَ المعنى اللغوي ، والأصل الاشتقاقي في الآيات القرآنية ، ونُنزلُ ذلك الأصلَ اللغويَّ على التصريفات القرآنية .

٧ ـ نطلعُ على تفسير الآيات التي استخدمتْ ذلك المصطلحَ القرآني في أمهاتِ كتب التفسير ، لنعرفَ ماذا قال المفسرون في تفسيرها ، وحتى لا نخطىء في نظراتنا وتحليلاتنا .

ونرى أنَّ من أمهاتِ كتب التفسير القديمة والحديثة: جامعَ البيان للطبري، والكشافَ للزمخشري ، والتفسيرَ الكبير للرازي ، والجامعَ لأحكام القرآن للقرطبي ، والمحررَ الوجيز لابن عطية ، وتفسيرَ القرآن العظيم لابن كثير، ونظمَ الدرر للبقاعي ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، والتحريرَ والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور .

٨ ـ نسجلُ ما نلحظهُ في الآيات من دلالاتٍ ولطائف ، وإشاراتٍ وحقائق، وننقلُ ما نراه مناسباً من أمهاتِ التفاسير ، ونركزُ على الدلالات التي فيها جدةٌ وإضافة ، أو فيها ارتباط واتصالٌ مع واقع وحياةٍ وحاضر الناس ، ونحرصُ على أنْ تكونَ هذه اللطائف منوعةً مختلفة .

٩ ـ نذهبُ إلى أحاديثِ رسولِ الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين ، لنطلعَ على ما في هذه المصادر من كلام يتعلق بالمصطلح الذي نبحثه ، فإن الأحاديث الصحيحة التي استخدمَتْه ، تُضفي عليه مزيداً من الإشاراتِ والفوائد والحقائق .

١٠ ـ نستخلصُ بعضَ ما وجدْناه في رحلتنا مع هذا المصطلح القرآني ، ونختمُ البحثَ بخاتمة نسجلُ فيها خلاصة نافعة في ذلك .

هذه عشرُ خطواتٍ مرحليةٍ متدرجة نراها ضروريةً لمتابعة أيِّ مصطلح قرآني، ليكونَ البحثُ علمياً موضوعياً ، وليكونَ النظرُ سليماً صائباً ، وليكون الاستنتاجُ صحيحاً مقبولاً .

البدء بالتفسير والتأويل في القرآن :

وعلى هدي هذا المنهج بحثنا في « التفسير والتأويل في القرآن » في هذا البحث .

لقد أردنا أن يكون أول مصطلح نتابعه في القرآن ، ونفسره تفسيراً موضوعياً هو « التأويل » . لأنَّ عملنا وجهدنا ما هو إلا نوعٌ من أنواع تفسير القرآن ، ولونٌ من ألوانِ تأويله .

لقد اختلفَ العلماءُ قديماً وحديثاً في معنى « التأويل » وفي بيانِ أنواعه، ونشأتْ عن ذلك مدارسٌ ، ومذاهبٌ، وتيارات فكرية مختلفة . وأدخل بعضُهم موضوعَ التأويل في العقيدة، وفي مباحثِها الغيبية ، وبالذاتِ في صفات الله.

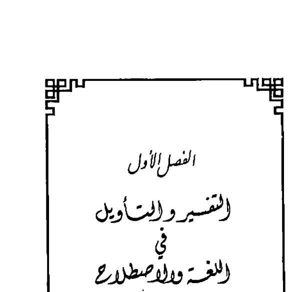
كما اختلفَ العلماءُ كثيراً في نظرهم في آيةِ المحكم والمتشابه والتأويل في سورة آل عمران ، هل يمكنُ تأويل المتشابه أو لا يمكن ؟ وماهو المتشابهُ الذي يمكنُ تأويله ، والذي لا يُمكن ؟ وما هو المرادُ بالتأويل إنْ كان ممكناً ؟ وما هي ضوابط هذا التأويل الممكن ليكون صواباً ؟ وما هو المرادُ بالتأويل غير الممكن الذي اختصَّ اللهُ به ؟

كما اختلفوا كثيرا في بيانِ الفُروق بين التفسير والتأويل ، وأوردوا في هذا أقوالاً عديدة .

هذا كله دفعَنا إلى أن نبحثَ في مصطلح « التأويل » في القرآن ، لنحاولَ معرفة إجاباتٍ عن هذه التساؤلات ، ولنقدمَ للقارىء خلاصةً وصورةً عن هذا الموضوع ، ولنعالجَه معالجةً قرآنيةً حديثية .

وبما أنَّ « التفسير » ملازمٌ للتأويل ، ومقترنٌ به ، فقد بحثْنا فيه أيضاً ، لاسيما أنّ « التفسير » لم يردْ في القرآنِ إلاّ مرةً واحدة ، في سورة الفرقان .





الفصل الأول

التفسير والتأويل
في
اللغة والاصطلاح



المبحث الأول

التفسير في اللغة والاصطلاح

التفسير في اللغة:

التفسيرُ مصدر ، على وزن « تَفْعيل » .

وفعْله الثلاثي « فسَرَ » . يقال: فَسَرَ الشيءَ فسْراً .

والفعلُ الماضي من التفسير، هو الرباعي « فسَّرَ »، يقال: فَسَّر الشيءَ تفسيراً.

والجذْر الثلاثي للكلمة هو الفسْر .

قال الإمامُ أحمد بن فارس عن الفسر: الفسْر كلمةٌ تدلُّ على بيانِ الشيء وإيضاحه .

تقول: فسَرْتُ الشيء ، وفسَّرْتُه[1] .

وقال الإمامُ الراغبُ الأصفهاني في المفردات: الفسْر: إظهارُ المعنى المعقول . ومنه قيل لما يُنبيءُ عنه البول: تفسرَةٌ . [أي أنَّ البولَ ينبيءُ ويكشفُ ويُظهرُ المرضَ الموجودَ في الجسم، فالبولُ تفسِرةٌ وإظهارٌ للمرض].

والتفسيرُ في المبالغة كالفِسْر [2].

أيْ أنَّ الراغبَ يرى اتفاقَ التفسير والفسْر في أصْل المعنى ، فهما يدلان

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥٠٤/٤

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٦ .

على إظهار المعنى . لكنْ في التفسير مبالغةٌ أكثرُ من الفسْر .

ويلتقي كلامُ ابن فارس مع كلام الراغب على أنَّ معنى التفسير يقومُ على: بيانِ الشيء وإظهاره وإيضاحه .

وقال ابنُ منظور في « لسان العرب » عن الفسْر:

الفسْر: البيان . يقال فسَرَ الشيءَ وفسَّره ، أي: أبانه .

والفسْر: كشفُ المغطى . والتَّفسرة: البولُ الذي يُستَدَلُّ به على المرض، حيث يَنظرُ فيه الأطباء ، فيستدلون به على علةِ المريض .

وكلُّ شيء يُعرفُ به تفسيرُ الشيء ، ومعناه ، فهو تفسرتُه .

والتفسير: البيان . وهو: كشفُ المرادِ عن اللفظِ المشكل[1] .

إنَّ كلَّ اشتقاقاتِ وتصريفات مادة « فسْر » تدلُّ على معناها الأصلي ، الذي لا يخرج عن: البيانِ والكشْفِ والتوضيحِ والإظهار .

فتفسيرُ الكلام هو: بيانُ معناه . وإظهارُه وتوضيحُه ، وإزالةُ إشكاله، والكشفُ عن المراد منه .

قال الإمامُ أبو البقاء الكفوي في « الكليات » عن هذا المعنى الجامع للتفسير:

« التفسير: الاستبانةُ والكشفُ، والعبارةُ عن الشيء بلفظٍ أيسرَ وأسهلَ من لفظِ الأصل .

قال أهلُ البيان: التفسيرُ هو أنْ يكونَ في الكلام لَبْسٌ وخفاء ، فيُؤتى بما يزيله ويفسِّره »[2] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥/٥٥ .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٢٦٠ .

بين القَسْر والسَّفْر:

لاحظنا أن التفسيرَ مشتقٌ من القسْر .

والاشتقاقُ الأصغرُ من هذه المادة « القسْر » يدلُّ على معناها الأصلي ، وهو البيانُ والتوضيح ، والكشفُ والإظهار .

والاشتقاقُ الأصغر هو: كلُّ التصريفاتِ من هذا الجذر الثلاثي « فسر » مثل فسَرَ، يَفْسُر، فسْراً ، وفسَّر ، يُفسِّر ، تفسيراً .

كذلك الاشتقاقُ الأكبرُ لهذه المادة يدلُّ على هذا المعنى .

والاشتقاقُ الأكبر هنا مشاركةُ مادةٍ أخرى لمادةِ « فسَرَ » في الحروف الثلاثية لها ، لكن مع تقديم وتأخير .

من الاشتقاقِ الأكبر لهذه المادة كلمة « سَفَر »، فكلمتا « سَفَر » و«فسْر» متقاربتان في اللفظ والمعنى ، ومشتقّتان من الحروف الثلاثة: الفاء والسين والراء، اشتقاقاً أكبر .

إنَّ أساسَ معنى « سفر » قريبٌ من معنى « فسْر » .

قال أحمد بن فارس عن « سَفَر »: هو يدلُّ على الانكشافِ والجلاء .

وكلُّ المشتقاتِ اشتقاقاً أصغرَ من هذه المادة ، تدلُّ على هذه المعنى .

فالسَّفَرُ سُمي بذلك ، لأنَّ الناسَ عندما يسافرون ينكشفون عن أماكنهم، ويَظهرون للآخرين .

ويقال: سَفَرت المرأةُ عن وجهها: إذا كشفَتْه وأظهرتْه .

ويقال: أسفرَ الصبح: إذا انكشفَ الظلامُ وظهرَ الضياء .

ويقال: وجهٌ مُسفِر: إذا كان مشرقاً مسروراً .

وسُميت الكتابةُ « سَفْراً » ، وسمي الكُتّاب « سفَرَة »: لأن الكتابة

تُسفر عن ما يحتاجُ إليه صاحبها ، وتكشفُ مرادَه ، وتُظهره[1] .

وقال الراغب في المفردات: السَّفر كشفُ الغطاء .

ويختصُّ ذلك بالأعيان . يُقال: سفرَ العمامة عن الرأس . وسفر الخمارَ عن الوجه . أي: كشَفَه .

والإسفارُ يختصُّ باللون . يُقال: أسفرَ الصبح: إذا أشرقَ لونهُ .

وسافرَ الرجل: لأنه يتكشفُ عن المكان . والفُ المفاعلة في « سافرَ » لأنّه هو قد سَفَرَ عن المكان ، والمكان أيضاً سَفَرَ عنه[2] .

فبينَ الفَسْر والسَّفْر تقاربٌ في اللفظ ، لأنهما مشتقّان اشتقاقاً أكبر .

وبينهما تقاربٌ في المعنى - ولاأقول: ترادف -: لأنَّ أساسَ معنى الفَسْر هو: البيانُ والتوضيح . وأساس معنى السَّفْر هو: الانكشافُ والظهور .

تعريف « تفسير القرآن »

بعدَ أن عرفْنا معنى « التفسير » في اللغة ، واشتقاقه من « الفَسْر » ، والصلة بين الفسْر والسَّفْر ، ننتقلُ الآن إلى تعريفِ هذا المصطلح «التفسير»، بعد أنْ صارَ عَلَماً يُطلق على بيانِ معاني القرآن .

للعلماءِ المفسِّرين عدةُ أقوال في تعريف « تفسير القرآن » ، أوردها الإمام السيوطي في « الاتقان » ، نختارُ منها ما يلي:

١ - قال بعضُهم: التفسيرُ في الاصطلاح: هو علمُ نزول الآيات ، وشؤونها وأقاصيصها ، والأسبابِ النازلة فيها ، ومكيِّها ومدنيِّها ، ومحكمِها ومتشابِهها، وناسخِها ومنسوخِها ، وخاصِّها وعامِّها ، ومطلقِها ومقيَّدها ، ومجملِها ومفسَّرها ، وحلالِها وحرامِها ، ووعدِها ووعيدِها ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٣/٨٢ .

(٢) المفردات: ٤١٢ .

وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالِها .

٢ ـ وقال أبو حيان: التفسيرُ علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطق بالفاظِ القرآن، ومدلولاتِها ، وأحكامِها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تُحملُ عليها حالة التركيب ، وتتماتُ ذلك .

٣ ـ وقال الزركشي: التفسير: علمٌ يُفهمُ به كتابُ الله ، المنزّلُ على نبيه محمد ﷺ ، وبيانُ معانيه ، واستخراجُ أحكامه وحِكمِه . واستمدادُ ذلك من علم اللغةِ والنحو والتصريف ، وعلم البيان ، وأصولِ الفقه والقراءات، ويحتاجُ لمعرفةِ أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ[1] .

ونلاحظُ أنّ هذه التعاريفَ تتحدثُ عن تفصيلاتِ ومباحث علم التفسير، وعن موارده ومصادره، أكثرَ مما تتحدثُ عن تعريفه تعريفاً موجزاً، يدلُّ على طبيعته .

وقد مالَ أبو البقاء الكفوي في الكليّات إلى تعريفِ أبي حيان للتفسير ، فقال في تعريفه: هو علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بالفاظ القرآن ، ومدلولاتِها ، وأحكامها الإفرادية ، ومعانيها التركيبية[2] .

أما الدكتورُ محمد حسين الذهبي ، فقد أوردَ في « التفسير والمفسرون » التعاريفَ الثلاثة للتفسير ، التي نقلناها من كتاب « الاتقان » .

ثم أضافَ لها تعريفاً رابعاً ، هو تعريفُ الشيخ محمد أبو سلامة في كتابه «منهج الفرقان» ، فقال:

٤ ـ « وعرّفه بعضهم: بأنه علمٌ يُبحثُ فيه عن أحوالِ القرآن المجيد ، من حيثُ دلالتُه على مُراد الله ، بقدرِ الطاقة البشرية »

وعلقَ الشيخُ الذهبيُّ على هذه التعاريف بقوله: « وهذه التعاريفُ الأربعة

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي: بتحقيق الدكتور مصطفى البغا: ١١٩١/٢ .
(٢) الكليات: ٢٦٠ .

تتفقُ كلها على أنّ علمَ التفسير: علم يَبحثُ عن مُرادِ الله تعالى، بقدرِ الطاقة البشرية. فهو شاملٌ لكلِّ ما يتوقفُ عليه فهمُ المعنى، وبيانُ المراد»[1].

والذي أميلُ إليه من التعاريفِ السابقة هو القسمُ الأولُ من التعريف الذي ذكرَه الإمامُ الزركشي.

فأقول: التفسيرُ هو: علمٌ يُفهمُ به كتابُ الله، المنزلُ على محمد ﷺ، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامه وحِكَمِه.

وكم يعجبُني التعريفُ المختصرُ المفيدُ للتفسير، الذي اختاره الامام محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره: «التحرير والتنوير»:

٥ ـ قال: «التفسير: اسمٌ للعلم الباحثِ عن بيانِ معاني ألفاظِ القرآن، وما يُستفادُ منها، باختصارٍ أو توسُّع»[2].

ثم قال ابن عاشور: وموضوعُ التفسير: ألفاظ القرآن، من حيثُ البحثُ عن معانيه، وما يُستنبطُ منه[3].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/١٥

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/١١.

(٣) المرجع السابق: ١٢/٤.

المبحث الثاني

التأويل في اللغة والاصطلاح

التأويل في اللغة:

التـأويل مـصـدرٌ على وزن « تفعيـل » وفعله الماضي رُباعي ، وهو «أوّل»، تقول: «أوّل يُؤَوِّل ، تأويل» .

وجذْرُ الكلمة الثلاثي هو: أوَل .

قال الإمامُ ابنُ فارس عن « أوَل »:

« أوَل » أصلان ، هما: إبتداءُ الأمر ، وانتهاؤه .

من استعماله في الابتداء قولك: الأوّل ، وهو مبتدأ الشيء . ومؤنثهُ: أولى. وجمعه: أوائل .

ومن استعماله في انتهاءِ الأمر: الأيِّل . وهو الذكَرُ من الوعول . وسُمي أيِّلا لأنه يَؤُول إلى الجبل ، وينتهي إليه ، ليتحصّن به .

وقولهم: آلَ بمعنى: رجع . ولهذا قالوا: أوَّل الحكمَ إلى أهله . أي أرجعه، وردَّه إلى أهله .

و: الإيالةُ هي السياسة . لأنَّ الرعية تُرجِعُ الأمورَ وتُعيدُها وتردُّها إلى راعيها . وقولهم: آلَ الحاكمُ رعيتَه: إذا أحسَن سياستَها .

و: آلُ الرجل: أهلُ بيتِه . وسُمُّوا بذلك لأنَّ مرجعَهم ومآلهم في الانتهاءِ إليه ، كما أن مرجعَه ومآله إليهم لأنهم ابتداؤه !!

ومن هذا الباب - الأوّل بمعنى الانتهاء والمرجع - قولهم: تأويلُ الكلام. وهو عاقبتُه، وما يَؤُول وينتهي إليه[1].

إنّ ابنَ فارس يرى أن «الأوّل» أصلٌ في الابتداءِ والانتهاء.

وفي الحقيقة نرى أنّ هذين الأصليْن متقاربان جداً، وكأنهما أصلٌ واحد. لأنّ كلّاً منهما طرفٌ في الأمر، فالأول بدايتُه، والأخيرُ نهايتُه، وهو موصولٌ بين نقطتي البدايةِ والنهاية!

إنّ الأوّلَ ينتهي إلى الأخير. وإنّ الأخيرَ متصلٌ بالأوّل. فالابتداءُ والانتهاءُ يلتقيان على هذا الأساس، ويدلان على المرجع والانتهاء.

وقال الامامُ الراغبُ الأصفهاني في المفردات عن «الأوْل»:

الأوْل: الرجوعُ إلى الأصْل.

ومنه «المؤْئل»: وهو الموضعُ الذي يُرجَعُ إليه.

والتأويلُ هو: رَدُّ الشيءِ إلى الغايةِ المرادةِ منه، عِلماً كان أو فعلاً.

ومن ردِّ الشيءِ إلى غايتِه في العلم قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم ﴾[2].

ومن ردِّ الشيء إلى غايتِه في الفعل قوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل، قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[4].

---

(١) مقاييس اللغة: ١/١٥٨ - ١٦٢. باختصار.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) سورة الأعراف: ٥٣.

(٤) سورة النساء: ٥٩.

قيل إنَّ معناه: أحسنُ معنى وترجمة .

وقيل: أحسنُ ثواباً في الآخرة .

و الأوْل: السياسةُ التي تُراعي مآلها . وتلاحظُ نهايتَها[1] .

عبارةُ الراغب في معنى « الأوْل » أكثرُ دقة وضبطاً . وهو: الرجوعُ إلى الأصل .

وعبارتُه في معنى التأويل أيضاً جامعةٌ ودالةٌ على المطلوب ، فهو: ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً .

أما كلامُ ابن منظور في لسان العرب عن التأويل والأوْل ، فإننا نتقي منه هذه العباراتِ الموجزة:

الأوْل: الرُّجوع . و: آلَ الشيءُ يَؤُول مآلاً: إذا رجَعَ وعاد . وأوَّل الكلام وتأوَّله: إذا دبَّره وقدَّرَه وفسَّره .

ويقال: ألتُ الشيءَ: إذا جمعتُه وأصلحتُه ، فكأنَّ التاويلَ هو: جمع معاني ألفاظ أشكلت ، بلفظٍ واضح لا إشكالَ فيه .

والتأويل: المرجعُ والمصير. مأخوذٌ من: آلَ إلى كذا: أي: صارَ إليه[2].

بين الأوْل والوآل:

عرفنا أنَّ التاويل في اللغة يدلُّ على معنى: الرجوع والانتهاءِ والعاقبة .

وكلُّ تصريفاتِ واشتقاقاتِ الكلمة ، يَظهرُ فيها هذا المعنى .

وهذا هو الاشتقاقُ الأصغرُ لمادة « أوْل » ، التي تدلُّ على معنى الرجوع والانتهاء .

---

(١) المفردات: ٩٩ بتصرف يسير .

(٢) لسان العرب لابن منظور: ٣٢/١١ ـ ٤٠ .

أما الاشتقاقُ الأكبرُ لهـذه الحروف الثلاثة: الهمـزة والواو واللام ، فهو يقومُ على هذا المعنى .

وكما سبقَ أنْ لاحظنا الصلة الاشتقاقية والمعنوية بين القسْر وبين السَّفْر ، نلحظُ هنا الصلة الاشتقاقية والمعنوية بين الأوْل والوَأْل .

الأوْل: الرجوع والانتهاء .

والوَأْل: المرجعُ والمنجى والملجأ .

قال ابنُ فارس عن الوَأْل: هي كلمةٌ تدلُّ على تجمُّعٍ والتجاء[1] .

قال تعالى: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾[2] .

أي: عندما يحينُ موعدُ عذاب الله للكفار ، فسيقعُ بهم لا محالة ، ولن يجدوا موئلاً يئِلون إليه ، ولاملجأ يلجئون إليه ، ولا مرجعاً يرجعون إليه !

قـال السَّمينُ الحلبي في « عمـدة الحـفـاظ » عن الموئل: « قـيـل هو: المرجع. وقال الفرّاء: الموئل: المنجي . يقال: وأَلَ زيدٌ من العدوّ . إذا نجا منه .

وقيل: هو الملجأ . يقال: وأَلَ فلانٌ إلى فلان . إذا لجأ إليه »[3] .

وبين الأصليْن: أوَلَ و: وَأَلَ تقارُبٌ في المعنى .

فالأوْل هو: الرجوع إلى الأصل والانتهاءُ إليه .

والوَأْلُ هو: الرجوعُ إلى الملجأ والنجاةُ إليه والاحتماءُ به !!

---

(١) مقاييس اللغة: ٦/ ٧٩ .

(٢) الكهف: ٥٨ .

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي: ٤/ ٣١٨ .

التأويل في الاصطلاح:

من أدقِّ التعاريف للتأويل في الاصطلاح وأكثرها ضبطاً، ما ذكره الامامُ الراغبُ الأصفهاني في المفردات .

قال: التأويل هو « رَدُّ الشيء إلى الغايةِ المرادةِ منه ، علماً كان أو فعلاً»[1] .

فتأويلُ الكلام هو ردُّه إلى الغايةِ المرادة منه ، وإرجاعه إلى أصلِه ، وإعادتُه إلى حقيقته التي هي عينُ المقصودِ منه .

أو بعبارة أخرى: تأويلُ الكلام هو: ردُّ معانيه وإرجاعُها إلى أصْلها الذي تُحملُ عليه ، وتنتهي هي إليه .

الأصلُ أنْ يكونَ للكلام الصادقِ حقيقة ، مرادةٌ منه ، وغايةٌ يتنهي إليها، ومرجعٌ ومآل يرجعُ إليه ، وإلا كان كذباً لا رصيدَ له من الحقيقة .

وهذه الحقيقةُ التي لا بد ٌ أنْ يؤولَ ويرجَع إليها الكلامُ الصادق ، هي عينُ المقصود به ، والغايةُ المرادة منه ـ كما قال الإمام الراغب .

والكلام إمّا أن يكونَ طلباً ، وإمّا أن يكونَ خبراً .

فإنْ كان طلباً ، فقد يتضمَّنُ فعْلَ شيء ، وقد يتضمَّنُ تركَه .

فتأويلُ الطلب هو تحقيقُ المقصود منه بالفعل أو الترك ، وبهذا يكونُ قد أعادَ الكلامَ وأرجعَه إلي غايتِه المرادة منه ، فنفَّذ المطلوب منه .

وإنْ كانَ الكلامُ خبراً ، كانت حقيقتُه وغايته المرادةُ منه هي وقوعَه وحدوثه فعْلاً وفق ما ورد في الكلام . ويكون تأويل هذا الخبر : تحقق وقوعه في عالم الواقع ، وصدقُ انطباق هذا الوقوع على مضمون ذلك الكلام .

فعندما نُؤوِّل الكلامَ الطلبي ، فإننا ننفذُه عملياً ، وبهذا نردُّه إلى الغايةِ

(١) المفردات: ٩٩

المرادة منه ، ونحققُ حقيقتَه الفعلية ، فنفعلُ أو نترك .

وعندما نُؤوِّل الكلامَ الخبري ، فإننا ننتظرُ وقوعَه فعلاً ، وبهذا نردُّه إلى الغاية المرادة منه ، وهي حدوثُه في عالم الواقع .

وهذا معنى كلام الراغب: « التأويل: هو ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادة منه، علماً كان أو فعلاً » .

معنيان للتأويل عند السلف:

للإمام ابن تيميَّة كلامٌ جيدٌ عن معنى التأويل عند السلف ، أورده في رسالته « الإكليل في المتشابه والتأويل » ومما قال فيه:

« وأما التأويلُ في لفظ السلف ، فله معنيان:

أحدهما: تفسيرُ الكلام وبيانُ معناه ، سواء وافق ظاهرَه أو خالفه .

فيكون التفسيرُ والتأويلُ عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً »[1].

وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عَناه مجاهد من أنَّ العلماءَ يعلمون تأويلَ القرآن .

ولهذا كان محمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره: القولُ في تأويل قوله كذا وكذا . واختلفَ أهلُ التأويل في هذه الآية . ونحو ذلك .

فإنَّ الطبريَّ كان مرادُه من التأويل التفسير .

والثاني من معاني التأويل عند السلف هو: نفسُ المرادِ بالكلام .

فإنْ كان الكلامُ طلباً كان تأويله: نفس الفعل المطلوب .

وإنْ كان الكلامُ خبراً ، كان تأويله: نفسَ الشيء المخبَر به .

---

(١) انظر رسالة « الإكليل في المتشابه والتأويل » لابن تيمية: ٢٦ ـ ٣٢ . وانظر عرض أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات لكلام ابن تيمية في « التعريف بالقرآن الكريم »: ١٠٤ ـ ١٠٧

الفرق بين هذين المعنيين :

وهناكَ فرقٌ بين هذيْن المعنييْن:

فعلى المعنى الأول يكونُ التأويلُ من باب العلم ، فتأويلُ الكلام هو العلمُ بمعناه ، وهو كالتفسير والشرح والإيضاح .

ووجودُ التأويل يكون في القلب ، ودورُ اللسان في التأويل هو في التلفُّظِ والنطق .

وعلى المعنى الثاني يكونُ التأويلُ هو نفس الأمور الموجودة في الوجود والواقع. سواء كانت ماضيةً أو مستقبلية .

فعندما تقول: طلعت الشمس ، يكون تأويل قولك هو نفسَ طلوعِها .

وعلى هذا المعنى يكون تأويلُ الكلام هو وجودَ معناه وجوداً مادياً عينياً واقعياً[1] .

وعلى هذيْن المعنييْن للتأويل عند السلف ـ كما عرضهما الامام ابن تيمية ـ نرى أنَّ التأويل عند السلف يقومُ على معنى الردِّ والرجوع والإعادة والانتهاء . وهذا هو معناه في اللغة والاصطلاح ، كما سبق أنْ أوردناه .

تأويلُ الكلام: ردُّه إلى حقيقته المادية وغايته الواقعية ، وهذا الردُّ نوعان:

الأول: ردُّ الكلام إلى حقيقته العلمية ، وذلك بإعادته إلى أصْلِه ودلالته، وحسن فهمه ، وهذا ردٌّ علميٌّ .

الثاني: ردُّ الكلام إلى حقيقته العملية ، وذلك بأدائه وفعله ، وهذا انتهاءٌ به إلى غايته الفعلية . وهذا ردٌّ عملي .

وهذان النوعان داخلان في قول الراغب عن التأويل: « هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً » .

---

(١) الإكليل في المتشابه والتأويل: ٢٥ ـ ٢٦ بتصرف في الصياغة للتوضيح .

وقد استخلصَ أستاذُنا الدكتور أحمد حسن فرحات خلاصةً نافعةً موجزةً للتأويل ، فقال: « مِن كلِّ ما سبق يتبين لنا:

أنَّ الكلامَ إذا وُقف به عند المعنى الظاهر ، كانت الغايةُ منه هذا المعنى الظاهر ، ويكون المرادُ بالتأويل هو التفسير .

وإذا كان المرادُ به تحقُّقه في عالم الواقع إنْ كان خبراً ؛ أو تحقيقه إنْ كان طلباً ، كانت هذه هي الغاية المرادة منه . وهذا غيرُ التفسير .

وإذا تجاوزْنا المعنى الظاهرَ إلى المعنى غير الظاهر ، كانت الغايةُ المرادةُ من الكلام ، المعنى غير الظاهر ، لدلالة القرينة على ذلك . وكان هذا تأويلاً وليس تفسيراً - باصطلاح المتأخرين - .

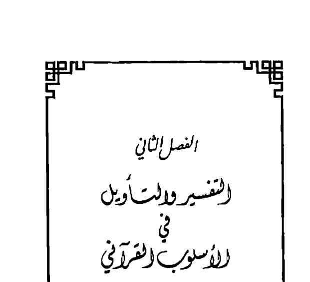
ويمكنُ أنْ يَدخلَ في التفسير حسب اصطلاح السلف .

وكما يجري التأويلُ في العلم والقول ، كذلك يجري في العمل ، كما وردَ في قصةِ موسى عليه السلام مع الرجل الصالح .

حيث رَدَّ الرجلُ الصالح الأعمالَ الثلاثة التي قام بها - خرقُ السفينة وقتل الغلام، وإقامةُ الجدار - إلى الغايةِ المرادة منها ، وقال لموسى: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً »[1] .

---

(١) التعريف بالقرآن الكريم لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١٠٨ .



الفصل الثاني

التفسير والتأويل في الأسلوب القرآني



المبحث الأول
التفسير والتأويل في الأسلوب القرآني

لم يرد في القرآن من اشتقاقات وتصريفات مادة « فسّر » إلا كلمةٌ واحدة ، هي « تفسير » .

و « تفسير » مصدرُ الفعل الماضي الرباعي « فسَّر » .

و « تفسير » لم تردْ في القرآن إلا مرةً واحدة ، في سورة الفرقان .

قال تعالى: ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيرا . وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً ﴾[1] .

ومع أنَّ الشاهدَ في الآية الثالثة ، إلا أننا أوردْنا الآياتِ الثلاثة لنعرف السياقَ الذي وردتْ فيه كلمةُ « تفسير » هنا .

تبيِّنُ الآياتُ عداوة الكفار للحق ، ومحاربتَهم للقرآن ، وتكذيبَهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإثارتهم للشبهات ضده .

الرسولُ عليه الصلاة والسلام يشكو إلى ربِّه كفرَ قومه وهجرَهم للقرآن ، فيواسيه الله عز وجل ، ويخبرُه أن هذه هي طريقُ الرسالات ، فكما أنه له

(١) سورة الفرقان: ٣٠ ـ ٣٣.

أعداء من المجرمين ، كذلك كان للرسل السابقين أعداءٌ من المجرمين .

ثم تخبرُ الآياتُ عن بعض أساليبِ الكفار في محاربةِ الرسول والقرآن ، وذلك بإثارتهم للشبهات ضدَّه . فلم يعجبهم نزولُ القرآن منجماً حسب الحوادث، وطلبوا إنزاله جملةً ودفعة واحدة ، كما أنزلَ الله الكتبَ السابقة على رسلِه .

وتردُّ الآية على هذه الشبهة بالإشارةِ إلى حكمتيْن من تفريق إنزالِ القرآن: تثبيتِ قلب النبي عليه الصلاة والسلام ، والتدرج في إنزاله للتشريع والتربية .

ثم تعقبُ الآياتُ على ذلك بإيرادِ القاعدة العامة في مواجهة الحق للباطل: ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ .

لقد تكفل الله بنصرةِ الحق ، ودحضِ الباطل ، ونقض شبهات الكفار ضدَّ الرسالة والرسول . ولهذا أخبرَ الله رسوله ﷺ بأنه معه ، فكلما يأتيه الكفار بمثل أو شبهة أو إشكال ، فإن الله َ يتولىَّ نقضَ ذلك ، حيث ينزلُ عليه آياتٍ من القرآن ، فيها الردُّ على اعتراضهم ، وحلُّ إشكالِهم .

والمراد بالمثل في قوله ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾: الاعتراضُ أو الشبهة . فعندما طلبوا إنزالَ القرآن جملةً واحدة ، ضربوا التوراة والإنجيل مثلاً ، فقالوا: لماذا لم يكن القرآنُ كالتوراة ، فلو كان القرآنُ كلامَ الله لأنزله الله دفعةً واحدة ، كما أنزلَ التوراة .

﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾: ينزلُ الله آياتٍ من القرآن ، فيها دحضُ اعتراضهم ، ونقضُ مثلهم . وقد وصفَ الله هذه الآياتِ النازلة من القرآن بصفتيْن: فهي الحقُّ ، وهي أحسنُ تفسيراً .

والحقُّ هنا في مقابلة الباطل . فالكفارُ يأتونك « بمثل » . ونحنُ نأتيك «بالحق» لنقْضه ، وهذا يدلُّ على أنَّ المثلَ الذي يأتون به باطلٌ وداحض.

وهذه الآياتُ النازلة في نقض مثل الكفار « أحسن تفسيراً » . أي: هي أحسنُ بياناً وتوضيحاً وكشفاً وعرضاً وحجاجاً وجدالاً .

وأفعلُ التفضيل هنا «أحسن» ليس على ظاهره. فهو لا يدلُّ على أنَّ آياتِ القرآن النازلة أحسنُ تفسيراً وبياناً من المثل الذي يأتي به الكفار. لأنه لا تجوزُ المقارنةُ أصلاً بين شبهة الكفار ، وبين نقض القرآن لها ، ولا نمدحُ القرآن عندما نقول إنه أحسنُ بياناً من كلام الكفار. وقديماً قال الشاعر:

ألـمْ ترَ أنَّ السَّيفَ يَنْقُصُ قدْرُهُ   إذا قيل: هذا السَّيفُ أمْضى مِنَ العَصا

إنَّ أفعلَ التفضيل هنا « وأحسن تفسيراً » للمبالغةِ في الثناءِ على آيات القرآن، وبيانِ فضلِها في ذاتها ، وحسنِها في تفسيرها وبيانها .

إن كلمة التفسير في الجملة: « وأحسن تفسيراً » بمعنى: البيان والتوضيح والكشْف والإظهار .

وهي تقررُ حقيقةً قرآنية قاطعة: إنَّ الأدلة والبراهين والحججَ والحقائق القرآنية هي أحسنُ تفسيراً وبياناً وعرضاً وتوضيحاً ، وهي الكفيلة بدحض ونقض أباطيل وشبهات الكفار ، وعلى المسلمين فهمُها واستيعابُها . واستخدامُها في مواجهة أعدائهم ، ليتمكنوا من إفحامهم.

المبحث الثاني

التأويل في الأسلوب القرآني

وردَ في القرآن عدةُ اشتقاقاتٍ لمادة « أول » ـ التي سبق أنْ تحدثْنا عن معناها.

وردَ فيه من اشتقاقاتها: تأويل . آل . أوَّل . أولى . أولون . أولات. أولوا .

وكل هذه الاشتقاقات يتوفّر فيها أساسُ معنى الأوْل الذي ذكرناه . وهو ابتداءُ الشيء وانتهاؤُه ، وإرجاعُه إلى أصله ، وردُّه إلى غايته .

ونريدُ في وقفتنا هنا أن نتابع ورودَ كلمة « تأويل » في الأسلوب القرآني ، وأن نستخرجَ منها بعض اللطائفِ والدلالات .

وردتْ كلمةُ تأويل في القرآن سبعَ عشرة مرة .

وكانت لها أربع حالات:

١ ـ تأويلاً: مصدر منصوبٌ على التمييز: مرتان .

٢ ـ تأويله: مضافٌ إلى الضمير الهاء: ثماني مرات .

٣ ـ تأويلُ الأحاديث والأحلام والرؤيا: مضاف للاسم الظاهر: خمس مرات

٤ ـ تأويل: مجرد عن الإضافة: مرفوع أو مجرور: مرتان

أما السورُ التي وردت فيها فكانت سبعَ سور ، وهي:

١ ـ سورة يوسف: وردت فيها ثماني مرات .

٢ ـ سورة آل عمران: وردت فيها مرتين .

٣ ـ سورة الأعراف: وردت فيها مرتين .

٤ ـ سورة الكهف: مرتين .

٥ ـ سورة النساء: وردت فيها مرة واحدة .

٦ ـ سورة يونس: وردت فيها مرة واحدة .

٧ ـ سورة الإسراء: وردت فيها مرة واحدة .

المطلب الأول
مع التأويل في سورة يوسف

قلنا إنَّ التأويل وردَ في سورة يوسف ثمانيَ مرات من عدد مرات وروده السبع عشرة مرة في القرآن . أي: نصفُ مرات ورودِ التأويل في القرآن تقريباً كان في سورة يوسف .

ولعلَّ الحكمة اللطيفة في هذا أنَّ ، سورة يوسف ذكرتْ قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من بدايتها إلى نهايتها . حيث بدأتْ بالحديث عن رؤيا رآها يوسفُ عليه الصلاة والسلام في المنام وهو صغير ، ثم تتابعتْ أحداثُ قصته عشراتِ السنين ، مرَّ فيها يوسفُ عليه السلام بكثير من العقباتِ والمفاجآت والتطورات ، وخُتمتْ قصتُه في آخر آياتِ السورة ، بتحقيق الرؤيا التي رآها وهو صغير ، ووجودِها في عالم الواقع !

ثم إنَّ الله خصَّ يوسف عليه الصلاة والسلام بعلم « تأويل الأحاديث»، وتعبير الرؤيا، وعرضت السورةُ أمثلةً لرؤى وأحاديث أوَّلها يوسفُ عليه السلام.

واللطيفُ في الأمر إن آياتِ سورةِ يوسف ذكرتْ لنا ثلاث رؤى منامية، وذكرتْ لنا تأويلها:

الرؤيا الأولى: رؤيا يوسف وهو صغيرٌ سجود الكواكب له .

الرؤيا الثانية: رؤيا كلٌّ من الشخصيْن السجيْنَين ، اللذين كانا مع يوسف عليه السلام ، وتأويله لرؤيا كلٌّ منهما .

الرؤيا الثالثة: رؤيا الملك للبقرات السمان والعجاف، وتأويلُ يوسف لها.

فالسورةُ كلها تقومُ على تأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤى والمنامات ، وتُظهرُ علم يوسف الخاصَّ بهذا التأويل .

نص الآيات:

١ ـ لما رأى يوسفُ رؤياه وهو صغير، وأخبر أباه بها ، طلبَ أبوه منه عدمَ إخبار أحدٍ بها .

قال تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ﴾[١] .

٢ ـ دخلَ يوسفُ عليه الصلاة والسلام مرحلةً جديدةً من أحداثِ قصته، حيث اشتراه عزيزُ مصر ، وطلب من امرأته إكرامَ يوسف ، وهذا تمهيدٌ لإظهارِ علمه بتأويل الأحاديث .

قال تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢]

٣ ـ عندما أدخل يوسف عليه السلام السجنَ ظلماً ، دخل معه السجنَ سجينان ، ولما كانا في السجن ، رأى كلٌ منهما رؤيا ، فطلبا من يوسف تأويلها:

قال تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً ، تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾[٣] .

٤ ـ أظهرَ يوسفُ عليه السلام للسجينين علمه بتأويل الاحاديث ، واستشرافِ المستقبل ، وأخبرهما أن الله علمه ذلك .

قال تعالى: ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾[٤] .

---

(١) سورة يوسف: ٦.

(٢) سورة يوسف: ٢١.

(٣) سورة يوسف: ٣٦.

(٤) سورة يوسف: ٣٧.

٥ ـ بينما كان يوسفُ سجيناً ، رأى ملكُ مصرَ رؤيا مزعجة ، فطلبَ من خبرائه ومستشاريه تعبيرَها وتأويلها ، فأخبروه أنها اضغاثُ أحلام ، ولاعلم لهم بتأويلها .

قال تعالى: ﴿ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحكام بعالمين ﴾[1] .

٦ ـ لما رأى الشخصُ الخارج من السجن ـ وهو أحدُ حاشية الملك ـ عجزَ الملأ عن تعبير رؤيا الملك ، تذكَّر علمَ يوسف بتأويل الرؤيا ، وطلبَ إرساله إلى يوسف ، فأخبره بها ، وأوّلها يوسف له .

قال تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما ، وادَّكرَ بعد أمة ، أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . يوسف أيها الصديق: أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ﴾[2]

٧ ـ في المشاهد الأخيرة من قصة يوسف عليه السلام ، تحققتْ رؤياه التي رآها وهو صغير ، وتأوّلت عمليا . فهو الآن عزيزُ مصر ، وقد دخل عليه أبواه وإخوتُه الأحد عشر ، وسجدوا كلهم له .

قال تعالى: ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل . قد جعلها ربي حقا ﴾[3] .

٨ ـ ختم يوسفُ عليه الصلاة والسلام قصتَه التي تقومُ على علمه بتأويل الأحاديث، بشكره لله الذي علمه ذلك ، وطلبِه منه أن يميته على الإسلام.

---

(١) سورة يوسف: ٤٣ - ٤٤.
(٢) سورة يوسف: ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) سورة يوسف: ٩٩ ـ ١٠٠.

قال تعالى: ﴿ رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض ، أنت ولبي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً ، وألحقني بالصالحين ﴾[1] .

خلاصة ذكر التأويل في سورة يوسف ، أنَّ المراتِ الثمانية التي ذكرت فيها مقسمة على الرؤى الثلاثة:

رؤيا يوسف عليه السلام وعلمه بتأويل الأحاديث: أربع مرات .

رؤيا السجينين ، وتأويلُ يوسف لها: مرتان .

رؤيا الملك ، وتأويلُ يوسف لها: مرتان .

وننظرُ في هذه الرؤى الثلاثة ، وتأويل يوسف لها ، كلٌّ واحدة على حدة، لنعرف المرادَ بالتأويل في هذه الرؤى .

تأويل رؤيا يوسف:

أراد الله إكرامَ يوسف عليه السلام وهو صغير ، فأراه رؤيا ذاتِ دلالة ، رأى في منامه سجودَ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ، ولم يفهم يوسفُ عليه السلام عن مغزى رؤياه شيئاً لصغر سنّه ، ولكنَّ والده يعقوب عليه السلام علم مغزى الرؤيا ، وإشارتها إلى مستقبل إيماني زاهر ليوسف ، فلفتَ نظره إلى هذا المستقبل ، ودعاهُ إلى استشرافه .

قال تعالى: ﴿ إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آلِ يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهم وإسحاق . إن ربك عليم حكيم ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف: ١٠١.

(٢) سورة يوسف: ٤ ـ ٦.

لقد استشفَّ يعقوبُ النبيُّ عليه السلام، من الرؤيا التي أراها الله لابنه الصغير، أنها دالَّةٌ على تخصيص اللهِ ليوسف بعلم تعبير الرؤى، وتأويل الأحاديث.

والمرادُ بالأحاديث في قوله: ﴿ ويعلمك من تاويل الأحاديث ﴾ الرؤى التي يراها الراءون في منامهم ، ولا أقولُ الأحلام التي يحلمُ بها النائمون، لأنَّ الأحلامَ قد لا تكون صادقة ، فقد تكون أضغاثَ أحلام ، قائمةً على الكوابيس والهلوسات . أما الرؤى فهي إشاراتٌ من الله ، لها إيحاءات ودلالات ، ولها أبعادٌ واقعيةٌ حقيقية .

وسُميتْ هذه الرؤى « أحاديث » لأنَّ فيها معنى الحدوث .

قال الإمام الراغب في المفردات: « الحدوثُ: كون الشيء بعد أنْ لم يكن ، عَرَضاً كان ذلك أو جوهراً . . . ويقالُ لكلِّ ما قربَ عهدُه مُحْدَث، فعْلاً كان أو مقالاً . . والحديث: كلُّ كلام يبلغُ الإنسان ويصلُ إليه ، من جهةِ السمع أو الوحي ، في يقظتِهِ أو منامه . . . . ومعنى قوله: ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾: ما يُحدِّثُ به الإنسانُ في نومه . . » [1] .

وهذه الأحاديثُ المناميةُ التي تحدثُ للنائم أثناء نومه ، ويُحدَّثُ هو بها تحتاجُ إلى تعبير وتأويل .

وتعبيرُ الرويا هو تأويلها، أي: بيانُ بُعْدِها الواقعي ، وصورتِها المادية الحسية في عالم الواقع .

وسُمي تفسيرُ الرؤيا تعبيراً . قال تعالى: ﴿ يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾[2].

قال الراغبُ في معنى التعبير هنا: « أصل العَبْر: تجاوزٌ من حالٍ إلى

(١) المفردات: ٢٢٢ ـ ٢٢٣ . باختصار .

(٢) سورة يوسف: ٤٣ .

حال. فأما العبورُ فيختصُّ بتجاوزِ الماء .

والتعبيرُ مختصٌّ بتعبير الرؤيا ، وهو العابرُ من ظاهرها إلى باطنها: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ .

والتعبيرُ أخصُّ من التأويل . لأنَّ التعبيرَ لا يُطلقُ إلا على تعبير الرؤيا. أما التأويلُ فيستعملُ في تعبيرالرؤيا وتأويلها ، ويُستعملُ في غيرها »[1] .

إنَّ الذي يُؤَوِّل الرؤيا ويُعبِّرُها ، كأنه يَعْبُرُ من ظاهرها الذي يراه النائم أثناءَ نومه ، إلى باطنها ، وهو صورتُها الفعلية الواقعية، التي ستتحقّقُ لها في ما بعد في الواقع .

وهذا عبورٌ وتجاوزٌ منه ، من ظاهرها المنامي ، إلى باطنها الحقيقي الواقعي.

تعبيرُ الرؤيا: عُبورٌ بها من الظاهر المنامي إلى الباطن الواقعي .

وتأويل الرؤيا: ردُّ صورتها الظاهرية المنامية ، إلى حقيقتِها المادية الواقعية، ورجوعٌ بها الى حقيقتها ، وانتهاءٌ بها إلى نهايتِها الحسية ، وبيانُ انطباقِها على الواقع ، وذكْرُ مآلها ومصيرها .

النائمُ في منامه يرى رؤيا ، وهذه الرؤيا وعْدٌ أو وعيدٌ من الله ، أو إشارةٌ وتنبيهٌ وإرشادٌ منه .

وهذا الوعدُ أو الوعيدُ نظري ، ولا بد أن يكون له غايةٌ مُرادةٌ منه ، وواقعٌ يتحقَّقُ فيه ، ونهايةٌ فعليةٌ ينتهي إليها .

فالمأوِّل عندما يُؤَوِّلُ الرؤيا يَفهمُ إشارتَها، ويَعلمُ المراد منها ، وعند ذلك يَردُّها إلى هذه الغاية الفعلية، ويذكرُ لصاحبها ما سيحدُثُ له في المستقبل .

وتأويُله النظري لها ، وذكْرُه لما ستكون عليه في المستقبل ، وعْدٌ أو وعيدٌ بما سيقعُ لصاحبها من أحداث .

---

(١) المفردات: ٥٤٣

وبعد ذلك: تقعُ الأحداثُ حسب ما رأى الرائي في منامه ، وحسبَ ما عبَّرها له المعبِّر، وأوّلها له المأوّل . ويكون وقوعُ الأحداث فعلاً هو تأويلٌ لها، أو هو رَدٌّ عمليٌّ للرؤيا من صورتها النظريةِ المنامية إلى غايتها الماديةِ العملية.

كيف أُوِّلتْ رؤيا يوسف ؟

فهِمَ يعقوبُ عليه السلام إيحاءَ وإشارة رؤيا ابنه ، وعبَّرها له بأنَّ الله سيجتبيه، ويعلمه تأويل الأحاديث وتعبيرَ الرؤى ، وردَّ هذه الرؤى المنامية إلى غايتِها الماديةِ الواقعيةِ الحقيقية .

لكن كيفَ سيكونُ ذلك ؟ ومتى سيكونُ ذلك ؟ وأين سيتمُّ تأويلُ رؤيا يوسف ؟ وما حقيقةُ سجودِ الأحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمر له ؟

لم يقل يعقوبُ عليه السلام لابنه عن ذلك شيئاً ، ولعله لم يكن هو يعلمُ من تفاصيل ذلك شيئاً ، كما يبدو من تتابع مشاهدِ ولقطاتِ قصةِ يوسف!!

اللهُ وحدَه هو الذي يعلمُ ذلك، وهو الذي يُقدِّر الأشياء، ويُرتب الأحداث، ويَسوق الحوادث، لتصُبَّ في هذا الميدان، ويتحقَّقَ بذلك مرادُه سبحانه .

سيسجدُ ليوسف عليه السلام أبواه وإخوتُه الأحد عشر !

لذلك قدَّرَ اللهُ أن يتآمر عليه إخوتُه ، وأنْ يُلقوه في البئر ، وأنْ تأتي القافلةُ إليه ، وأنْ تحمله معها إلى مصر ، وأنْ يشتريَه عزيزُ مصر ، وأن يحترَه فتى ورقيقاً عنده ، وأنْ يوصي به امرأته . وأن تراودَه تلك المرأةُ عن نفسه ، وأنْ يستعصمَ يوسفُ عليه السلام . وأنْ يتآمر عليه رجال الدولة . وأنْ يسجنوهُ مظلوماً بضع سنين .

قدَّرَ اللهُ أنْ يكون معه سجينان في السجن،وأراهما اللهُ رؤيا ، وعلم

يوسفَ تاويلها . وقدَّرَ اللهُ أنْ ينجوَ أحدُهما، وأنْ يعودَ إلى حاشيةِ الملك. وقدَّرَ اللهُ أنْ يعجزَ رجالُ الملك عن تعبير وتأويل رؤياه ، وعلمَ يوسفَ تعبيرَها، وقذفَ اللهُ في قلبِ الملك الإعجاب بيوسف ، ومكَّن له عند الملك، وسلمه الملك خزائن الأرض بقدر الله ، وحكم يوسفُ مصرَ السنوات الخصبة والسنوات العجاف !

وقدَّرَ اللهُ أنْ يأتيَ إخوتُه إليه ـ وهم لا يعلمون أنه يوسف ـ طالبين منه الطعام، وكادَ اللهُ ليوسف، ورتب مع إخوته بترتيباتٍ خاصة، أدَّتْ بهم إلى معرفتِه في النهاية ، وأنَّ عزيزَ مصر الذي يقفون أمامه الآن بذلةٍ ومسكنة، هو أخوهم الصغير الذي وضعوه في البئر قبْل عشرات السنين!!.

رتَّبَ اللهُ هذه الأحداث ، وساقَ هذه الحوادث، بحكمته وتقدّيره سبحانه، وأدَّت في النهاية إلى تأويل رؤيا يوسف، التي رآها قبلَ عشرات السنين . وجاءَ اللهُ بإخوته وأبويه من بدوِ فلسطين إلى مقرِّه في عاصمةِ مصر، ودخلوا عليه .

سجدَ ليوسف إخوتُه الأحد عشر ، وسجدَ له أبوه وأمه .

وبذلك تمَّ تأويلُ رؤيا يوسف: فالأحد عشر كوكباً الذين سجدوا له في المنام هم إخوتُه الأحد عشر ، والشمسُ والقمرُ اللذان سجدا له في المنام هما أبوه وأمُّه .

لقد كان سجودُ أبويْه وإخوتِه له ، بعد عشرات السنين من رؤياه تأويلاً لتلك الرؤيا .

أي: كان تحقيقاً عملياً للوعدِ الذي ساقهُ اللهُ عن طريق تلك الرؤيا ، وكان السجودُ الفعليُّ الواقعيُّ بياناً لنهايةِ ومرجع ومآلِ تلك الرؤيا ، وإظهاراً لصورتها الفعليةِ العمليةِ الواقعية التي انتهتْ إليها، واستقرتْ عليها.

أليس هذا هو معنى التأويل الذي ذكرناه ؟ ألم ينطبقْ على هذا قولُ الراغبِ الأصفهاني في تعريفه للتأويل: « هو ردُّ الشيءِ إلى غايتِه المرادةِ

منه، علماً كان أو فعلاً ؟ » .

لذلك أعلنَ يوسفُ لأبيه عليهما السلام ، عندما سجدوا له فعلاً ، أنَّ هذا هو تأويلُ رؤياه: ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم.. ﴾[1] .

﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾: هذا وقتُ بيانِ العاقبة والمآل والنهايةِ لرؤياي التي رأيْتُها قبل عشرات السنين. الآن تمَّ تأويلها، عندما تحققت صورتُها العملية المادية !

﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾: قد حققَ لي ربي ما وعدني به في تلكَ الرؤيا، فقد وعدني فيها بإسجادِ أبويَّ وإخوتي لي، ووعْدُ الله نافذ، وخبَرُ الله واقعٌ محقق، فالآن حققهُ اللهُ لي، ورأيتُ الصورة الفعلية النهائيةَ لذلك الخبر النظري!!

يوسف يؤول رؤيا السجينين:

لما سُجن يوسفُ عليه السلام ظلماً ، دخلَ معه السجن رجلان من حاشيةِ الملك ، غضبَ عليهما الملك فسجنَهما ، وهناك في السجن أنسا بيوسف وأعجبا به ، ورأى كلٌّ منهما رؤيا ، وطلبا من يوسف تأويلهما، فقدَّم لهما عقيدته ، وعرَّفهما على دينه وإيمانه ، ثم قامَ بتأويل لكل واحد منهما رؤياه ، وتحققت رؤياهما في عالم الواقع ، كما أولهما لهما .

قال تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً . وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه

---

(١) سورة يوسف: ١٠٠ .

إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ يا صاحبي: أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين . ﴾[2] .

كانت رؤيا أحدِ السجينَيْن: أنه رأى نفسه وهو يعصرُ خمراً .

وكانت رؤيا الآخر: أنه رأى نفسه يحملُ خبزاً فوقَ رأسه ، وأن الطيرَ تأتي تأكلُ منه ، وهو على رأسه .

وكان تأويلُ رؤيا السجين الأول: أنَّ الملكَ سيفرج عنه ، وسيخرجُه من السجن ، وسيعيدُه إلى خدمته ، وسيعصرُ خمراً فعلاً . ثم يسقيه الملك: ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ .

وكان تأويلُ رؤيا السجين الآخر: أن الملكَ سيغضبُ عليه ، ولن يعفوَ عنه، بل سيأمرُ بقتلِه وإعدامه ، وسيُقتلُ فعلاً ، ويُصلب ، وتأتي الطيرُ فتأكلُ من لحم رأسه: ﴿ وأما الآخر: فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ﴾.

وقد وردتْ كلمة « تأويل » مرتين في هذه الآيات:

فبعدَ أن أخبرَه السجينان برؤياهما قالا له: ﴿ نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

وردَّ عليهما بالإشارةِ إلى علمه بالتأويل ، فقال: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾ .

وفي قولهما له: ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ وردَ التعبيرُ بالضمير المذكرِ « الهاء »

---

(1) سورة يوسف: ٣٦ـ ٣٧ .

(2) سورة يوسف: ٤١ ـ ٤٢ .

فقالا: « بتأويله » وليس: بتأويلها . مع أنَّ الكلامَ عن الرؤيا ، ويكون الضميرُ العائدُ على الرؤيا مؤنثاً .

والمرادُ: نبئنا بتأويل المنام ، أو: نبئنا بتأويل الكلام الذي ذكرناه لك .

وتأويلُ الرؤيا هنا: هو ردُّ الرؤيا المنامية إلى حقيقتِها الواقعية ، وبيانُ مصيرها ومآلها المادي ، وذكْرُ ما تنتهي إليه هذه الرؤيا ، وتستقرُّ عليه ، في مستقبل حياة السجينين ، وتحديدُ مدلولها العملي .

والمردُّ عليهما يوسف عليه السلام أخبرهما بعلمه بتأويل الرؤيا ، وطمأنهما إلى قيامه بذلك في أسرع وقت ، ولكنه أرادَ أن يُقدِّمَ لهما دعوته ، وأن يعرِّفهما على دينه ، وأن يَذكرَ لهما كفرَ قومهما ، وأنْ يجعلَ هذا كله تمهيداً لتأويل الرؤيا .

فقال لهما: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾ .

ليس الكلامُ عن تأويل أصنافِ الطعام ـ كما فهم كثيرٌ من المفسرين ـ فإنْ يتوقعَ أصنافاً معينةً للطعام ، ثم تأتي الأصنافُ كما توقعه وحدَّده ، ليس تأويلاً للطعام ، لأنَّ المؤَوَّل هو الذي يأتي بالطعام فعلاً ، وليس الذي توقعه ، إنَّ الذي يقدِّمُه ويأتي به هو الذي يحققُ صورته المادية الحقيقية .

إنما أرادَ يوسفُ عليه السلام أنْ يطمئنهما على تأويلِ لرؤياهما، وأنْ يؤكد لهما ذلك ، فأخبرَهما أنه سيقومُ به بأقربِ وقت ، لكنه يريدُ أنْ يحدِّثهما قبل تأويل الرؤيا عن الإيمانِ والتوحيدِ والشرك .

قال لهما: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه ، ولا تصلكما وجبة الطعام القادمة المحددة ، إلا أكونُ قد نبأتكما بتأويل المنام والكلام والخبر ، قبلَ وصولِ ذلك الطعام إليكما .

والضميرُ في « بتأويله » يعودُ على ما عادَ عليه الضمير نفسُه في قولهما له: « نبئنا بتأويله » . أي: نبأتكما بتأويل المنام والخبر والكلام ، قبلَ أن يأتيكما ذلك الطعام .

هذا هو المعنى ، والله أعلم .

يوسف يؤول رؤيا الملك:

الرؤيا الثالثة في سورةِ يوسف ، التي قام يوسف بتأويلها هي رؤيا الملك. فقد رأى الملكُ رؤيا ، ثم طلبَ من الذين حوله تعبيرَها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، فتذكّر أحدُ رجالِ حاشية الملك ، الذي كان سجيناً مع يوسف ، عِلمَ يوسف بتأويل الرؤيا ، لأنه أوّلَ له رؤياه ، فتحققتْ كما أوّلها ، فطلبَ منهم إرساله إلى يوسف لتأويلها ، ولما أخبره بها ، قامَ يوسف بتأويلها .

قال تعالى: ﴿ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا: أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلامَ بعالمين . وقال الذي نجا منهما، وادكر بعد أمة، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيها الصديق: أفتنا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. قال: تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله، إلا قليلاً مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون ﴾[1].

أرادَ الملكُ تأويلَ رؤياه . فقد رأى في منامه رؤيا ، وهذه الرؤيا تُشيرُ

---

(١) سورة يوسف: ٤٣- ٤٩ .

إلى أحداثٍ عمليةٍ فعلية ستحدثُ له ولقومه في المستقبل ، فما هي هذه الأحداث ؟ ، ومن سيقدر على بيان انطباق المناظر المنامية التي رآها الملك على الواقع ؟ ومَنْ سيقدرُ على ردِّ هذه المناظر إلى صورتها المادية الفعلية النهائية ؟.

وهذا هو معنى التأويل ، الذي يتحققُ في ردِّ الأمورِ النظرية إلى نهاياتِها الواقعية ، وتحديدِ مآلها ومصيرها الفعلي .

عجزَ رجالُ الملك وكهنته وسحرته عن تأويل رؤياه . وقالوا له: أضغاث أحلام . وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

والأضغاثُ: جمع « ضِغْث » . وهي الأمورُ المختلطة المتشابكة المتداخلة.

ومعنى قولهم للملك: أضغاثُ أحلام: أنَّ ما رأيتَه من تلك المناظر المنامية ، إنما هي صورٌ مختلطة ، ولقطاتٌ متداخلة، وهي متشابكة في خيوطها وخطوطِها وألوانِها ، بحيث يستحيلُ تحليلها وفصلها و « فرزُها » وتفريغُها ، وتحديدُ كلِّ صورةٍ منها وتمييزُها عن أخواتِها .

ونظراً لما بينَ هذه الأحلام من تشابكٍ واختلاط ، فنحن لا نقدرُ على فصْلِها، ولا علمَ لنا بتأويلها .

ومعنى قولهم: ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾: أننا عاجزون عن بيانِ حقيقةِ هذه الأحلام ، وعن تحديدِ مدلولها العملي ، وعن ردِّ مدلولها النظري إلى نهايتِه العملية ، ومآلِه الواقعي .

إننا عالمون بتعبير الأحلام ، ونقدرُ على تحديدِ بُعدها الفعلي ، عندما تكون أحلاماً بسيطةً ، صُوَرُها ومناظرُها منفصلة . أما عندما تكونُ أضغاثَ أحلام متداخلةً مختلطةً متشابكة ، فعِلمُنا عاجزٌ عن تفريقِها وفرزها وتفكيكِها !!

ولما أقرَّ الكهنةُ بعجزهم عن تأويل رؤيا الملك ، تذكَّرَ ذلك الرجلُ يوسف ، وتذكَّرَ علمَه بتأويل الرؤيا ، ذلك العلمُ الذي علمه إياه ربُّه ﴿ذلكما مما علمني ربي﴾ ، وهذا معناه أنه لنْ يعجزَ عن تأويل رؤيا الملك، وأنَّ علمَه الربانيَّ سيقْدِرُ على إزالةِ تداخُلِها ، والقضاءِ على اختلاطها ، وفرزِها وتفكيكِها ، وإدراكِ حقيقتِها الفعلية ، وردِّها إلى نهايتها العملية ، وتحديدِ بُعدها المادي الحسي !

لهذا خاطب قومَه قائلاً: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ .

وذهبَ إلى يوسفَ في سجنه ، وقصَّ عليه رؤيا الملك ، وقدرَ يوسفُ على إدراك حقيقة الرؤيا ، وأزالَ ما فيها من ضِغْثٍ وتداخُل وتشابُكٍ واختلاط. وتمكَّن من فرْزها وتفكيكها .

عند ذلك تمكَّنَ يوسفُ من ردِّ هذه المناظر إلى حقيقتِها المادية ، وتحديدِ نهايتها الفعلية: إنها سبعُ سنواتِ غيثٍ ورخاءٍ وزرع وإنتاج ، تعقبها سبعُ سنواتٍ من القحط والمحل وانحباس الأمطار وهلاك الزروع . وبعد ذلك تأتي سنة خصْبٍ وغيث ، وهي السنة الخامسة عشر من هذا الزمن ! .

يوسف عالم بتأويل الأحاديث:

بعد ما عرَفْنا تأويلَ يوسفَ للرؤى الثلاثة: رؤياه ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك ، نقفُ على الحكمة من تكرار ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ ثلاثَ مرات في سورة يوسف .

قال له أبوه يعقوب عن رؤياه: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ﴾[1] .

وبعد ما استقر يوسف في بيت العزيز في مصر ، قال الله: ﴿ وكذلك

---

(١) سورة يوسف: ٦ .

«كنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

ولما تحققتْ رؤيا يوسف بعدَ عشرات السنين، وصارَ عزيزَ مصر ، واجتمع شمله مع اخوته ، جاءت خاتمة قصته بتوجهه إلى ربه بالشكر: ﴿رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[2] .

لماذا كُررتْ ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ ثلاثَ مرات في السورة؟

لقد عاشَ يوسفُ في منطقتيْن: في البلدِ من أرض فلسطين. ثم في مصر.

وسيكون انتقاله القسريُّ إلى مصر تمهيداً لتدرُّجه في مكانتِه في مصر ، وسيبقى يرتقي بالتدريج ، حتى يصلَ إلى أعلى مركز ، وهو « العزيز » . وبهذا تُختمُ حياتُه عليه الصلاة والسلام .

قول يعقوب له: ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ وعْدٌ نظريٌّ من الله ـ عن طريق أبيه عليه السلام ـ وعْدٌ بتحقيق شيء في المستقبل ، كأنه قال له: وسوفَ يعلمك ربُّك من تأويل الأحاديث .

وكانت الخطوةُ الأولى من تحقيق هذا الوعدِ الرباني ، أنَّ الله قدَّرَ أنْ يَجريَ له ما جرى ، حتى يصيرَ عبداً مملوكاً في بيت عزيز مصر ، وهناك يوصي به العزيزُ امرأته، ويقول لها ﴿ أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً ﴾.

إن الله هو الذي ألهمَ عزيزَ مصر الاهتمامَ الخاصَّ ، بهذا العبدِ الفتى

---

(١) سورة يوسف: ٢١ .

(٢) سورة يوسف: ١٠١ .

لماذا ألهمَ اللهُ العزيزَ بذلك ؟ ولماذا مكَّنَ اللهُ ليوسف في بيت العزيز؟ لتتحققَ المرحلة الأولى ، في الطريق التي سيقطعُها يوسف ، من خلالِ تأويل الأحاديث، وليتحققَ وعْدُ الله له بذلك في النهاية: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ .

واللامُ في « لنعلمه » للتعليل ، أي: لبيانِ حكمةِ الله في تقدير ما جرى ليوسف ، حتى استقرَّ في بيت العزيز!

وكلمة « لنعلمه » وعْدٌ من الله بتعليم يوسف تأويلَ الأحاديث ، هذا التأويلُ الذي سيصلُ به يوسف إلى أعلى مركز ، وهو « عزيزُ مصر » .

وفعلاً علمَ اللهُ يوسفَ الرؤيا ، وقام بتأويل رؤيا السجينَيْن ، الذي أوصلَه إلى تأويل رؤيا الملك ، الذي قادَه إلى مركز العزيز ، حيث أدّى ذلك - بعد أحداثٍ متتاليةٍ ومفاجآت مثيرة - إلى قدوم أهله إليه ، وسجودِهم بين يديه ، وبذلك تحققَ وعدُ الله ، وتمَّ تأويلُ رؤياه:

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ﴾ .

وفي آخر الأمر ، أعلنَ يوسفُ عليه السلام فضْلَ الله عليه ، واعترف بتعليم الله له ، وصرَّح بعلمه بتأويل الأحاديث: ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾. ولهذا كانت معجزةُ يوسف عليه الصلاة والسلام تقومُ على علمِه بتأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤى .

﴿ يعلمك من تأويل الأحاديث ﴾: وعْدٌ سيتحققُ في المستقبل .

﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾:خطوةٌ أولى على طريقِ تحقيق الوعد.

﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾: اعترافٌ صريح بتحقيقِ ذلك الوعد.

وحققَ اللهُ ليوسفَ ما وعد به ، لأن اللهَ لا يخلفُ الميعاد: ﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

المطلب الثاني
مع التأويل في سورة الكهف

وردَ التأويلُ مرتين في سورة الكهف ، في قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام .

فلما قابلَ موسى الخضرَ عليهما السلام ، طلبَ منه أن يصحبَه ليتعلمَ منه، فأخبرَه الخضر أنه لن يصبرَ على الرحلةِ معه ، ولن يسكتَ على ما سيشاهدُ من أعمال يعملها الخضر ، لأن ظاهرَها يدعو إلى رفضها وإنكارها ، وموسى لا يعلم حقيقتها ولا خبرَها ، فوعَدَ موسى أنْ يصبرَ ويطيعَ الخضر ، فاشترط الخضرُ عليه أنْ لا يسأله عن شيء ، وأنْ لا يعترض على ما سيرى ، وأن ينتظرَ ما سيبيِّنه الخضرُ له .

فاتفقا على ذلك ، وانطلقا في الرحلة !

سارا على شاطىء البحر، وأرادا ركوبَه ، فمرتْ بهما سفينة ، فعرفَ أصحابُ السفينة الخضر ، فاكرموهما ، وأركبوهما دون أجرة . فلما ركبا السفينة ، أخذ الخضرُ لوحاً خشبياً منها فقلعه ، وخرقَ السفينة . فاعترضَ عليه موسى ، وقال له: إنهم أكرمونا وأركبونا بغير أجرة ، أهكذا تكافِؤُهم وتُجازيهم ؟! إنك بخرقها ستغرقُ أهلها ، وإنَّ ما فعلته شيءٌ كبير فظيع !

أمامَ اعتراض موسى على فعل الخضر ، ذكَّره بشرطه عليه ، وإخباره أنه لن يستطيعَ الصبرَ معه ، ولا السكوتَ على أعماله، فاعتذر موسى عن اعتراضه ، واعتبره من باب النسيان !

وسارا في الطريق ، ولقيا غلماناً يلعبون ، فتوجَّه الخضرُ إلى أحدهم ، فاقتلع رأسه بيده وقتَله ! فاستغرب موسى ، وتساءل: ما ذنبُ هذا الغلام الصغير؟ واعترضَ على الخضر قائلاً: أقتلتَ نفساً زكيةً بغير نفس ؟ لقد

فعلتَ أمراً يدعو إلى الإنكار . فذكّرَه الخضرُ بعهده معه ، عند ذلك أخبره موسى أنه إن اعترضَ على فعْلِه بعدها فلا يصاحبه .

وسارا معاً ، حتى أتيا قرية ، أهلها بخلاء ، فطلبا منهم الطعام ، فأبوا أنْ يطعموهما أو يضيِّفوهما . ورأى الخضرُ في القريةِ جداراً على وشك السقوط ، فأصلحه وأقامه وثبَّته .

فاعترضَ عليه موسى بأنَّ القوم لا يستحقون التكريمَ والخدمة لبخلهم ، والأوْلى أنْ يأخُذ منهم أجرةً مقابل إصلاحه الجدار .

وبعد هذه الاعتراضاتِ من موسى على أعماله الثلاثة ، أنهى الخضرُ الرحلة، وقال له: هذا فراقُ بيني وبينك .

ولم يشأ الخضرُ أنْ يُبقي موسى في حيرته ودهشته من الأعمال الثلاثة ، التي لم يصبرْ موسى عليها ، فاعترضَ على الخضر في فعلها .

فأوَّلَ الخضرُ لموسى أعماله الثلاثة ، وأراه حقيقتَها والحكمة منها ، وردَّ له صورتها الظاهرية التي اعترض عليها موسى إلى باطِنِها الحقيقيِّ الخفي ، الذي لايدعو إلى الاعتراض والإنكار .

فخرْقُ السفينة في ظاهره مرفوض يدعو للإنكار ، لكنَّ حقيقتَه تدعوني إلى فعْله ، فأنا ما خرقتها لأغرقَ أهلها ، إنما خرقتها لأحميها من المصادرة والغصْب ، إنَّ أصحابها مساكين محتاجون لا يملكون غيرها ، وكان أمامَهم ملكٌ ظالمٌ مغتصب ، يُصادر ويُستولي على كل سفينةٍ سالمة ، فأردتُ بهذا الخرقِ نجاة السفينة من المصادرة ، لأنه سيراها معيبةً مخروقة ! هذه حقيقة فعلي، وهذا هو تأويله !! .

وقتْلُ الغلام في ظاهره مرفوض يدعو للإنكار ، لكن حقيقتَه تدعوني إلى فعْلِه ، إنه صغيرٌ نعم ، ولكنه عندما يكبرُ سيكون كافراً ، وسيُتعبُ ويُرهقُ أبويه المؤمنين ، فقتلْته لأريحَ أبويه ، وإنَّ اللهَ سوف يعوضهما عنه ، ويرزقهما بغلام أفضلَ وأبرَّ منه ! هذه حقيقة فعلي!وهذا هو تأويله !! .

وبناءُ الجدار مجاناً للقوم البخلاء ، في ظاهره مرفوض ، يدعو للإنكار، لكنْ حقيقته تدعوني إلى فعْله . إن الجدارَ لغلاميْن يتيميْن في المدينة ، وكان أبوهما صالحاً ، وقد أخفى لهما كنزاً تحت الجدار قبل موته، فلو تركتُ الجدار يسقط وينهار ، لظهر كنزُ الغلاميْن ، ولاستولى عليه أهل المدينة ، فبنيتُه إلى أنْ يكبرَ الغلامان ، ويبلغا أشدَّهما ، ويستخرجا كنزهما. هذه حقيقة فعلي ! هذا هو تأويله !!

إنَّ اللهَ هو الذي أعلمني بحقيقةِ الأعمال الثلاثة ، تلك الحقيقة التي خفيتْ عليك ، فبقيتَ أنتَ عند ظاهر هذه الأعمال ، أما أنا فلاحظتُ حقيقتها ، وحملتها عليها .

وبهذا التأويل من الخضر لأعماله الثلاثة ، وكشْفِه عن حقيقتها، عرفَ موسى ـ وعرفْنا معه ـ أنَّ الخضر كان على صوابٍ فيما فعل ، وأنَّ أفعاله الثلاثة لا تدعو إلى الاعتراض أو الإنكار !!

نصُّ الآيات :

نتدبَّرُ الآياتِ التي عرضَتْ قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، لنعرفَ موقعَ التأويل فيها:

قال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين، أو أمضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً . قال: ذلك ماكنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا .

فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً.

قال له موسى: هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟

قال: إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لك أمراً .

قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ، حتى أحدث لك منه ذكراً .

فانطلقا . حتى إذا ركبا في السفينة خرقها !

قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً !

قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟

قال: لاتؤاخذني بما نسيتُ ، ولا ترهقني من أمري عسراً .

فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله !!

قال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً .

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً .

قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني . قد بلغت من لدني عذراً .

فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه .

قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

قال: هذا فراق بيني وبينك ! سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة: فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا !

وأما الغلام: فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ! وأما الجدار: فكان

لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً . فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمةً من ربك ا وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾[1] .

معنى تأويل أعمال الخضر:

لما عرضَ موسى على الخضر عليهما السلام أنْ يصحبَه ليتعلمَّ منه ، قال له: ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ .

وعلل الخضرُ كلامَه بقوله ﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً ؟ ﴾ أي: سترى أمامك أعمالاً أقوم بها ، ظاهرُها يدعو للإنكار ، وسوفَ تنكرها أنتَ عليَّ ، لأنك لا تعرفُ حقيقتها ، ولا الحكمة منها ، ولم تُحِطْ بها خُبْراً .

وفعلاً لم يصبْر موسى عليه السلام على أعمال الخضر ، فأنكرها عليه.

وقبلَ أنْ يفارقه الخضرُ أرادَ أنْ يكشفَ له عن حقيقة الأعمال الثلاثة ، وقال له: ﴿ سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ﴾ .

وبعد أنْ كشفَ له تلكَ الحقيقة ، وأوقفه على الحكمة منها ، قال له: ﴿ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً ﴾ .

إنَّ أعمالَ الخضر الثلاثة: خرق السفينة ، وقتلَ الغلام ، وبناءَ الجدار، لها صورتان: صورةٌ ظاهريةٌ تبدو من الخارج ، فتكونُ فيها غير مقبولة ، فيقومُ المشاهد بإنكارها ، كما فعل موسى عليه الصلاة والسلام !

وصورةٌ باطنيةٌ حقيقية ، تبدو فيها على حقيقتها ، والذي يقفُ على هذه الصورة الباطنية يعرفُ الحكمة الخفية منها ، ويعلم أنه على حقٍّ في فعل ما يخالفُ الظاهر، لأنه يتفقُ مع هذا الباطن، وهذا ما أدركهُ الخضر ، وفعلَه.

---

(١) سورة الكهف: ٦٠ ـ ٨٢ .

والربط بين ظاهر هذه الأعمال وباطِنها مطلوب ، وحملُ الظاهر على الباطن مطلوب ، وهذا ما قامَ به الخضر ، وقدَّمه لموسى .

واعتَبَر الخضرُ هذا العمل تأويلاً ﴿سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً﴾.

والتأويل هنا: هو ردُّ الشيء إلى غايته العمليةِ المرادةِ منه ـ كما قال الراغب في تعريف التأويل ـ فقد ردَّ الخضرُ أعماله الثلاثة إلى غايتِها المقصودة ، وكشَفَ حقيقة هذه الأعمال ، والحكمة الخفية فيها ، وأرجعَ صورتها الظاهرية إلى حقيقتها الباطنية الخفية ، وأرى موسى مآلَ ومصير أعماله ، وانتهى بها إلى تلك المحطةِ الأخيرة ، التي عرف منها موسى صوابَ الخضر فيما فعل .

لقد أوَّلَ الخضرُ أعماله تأويلاً عملياً ، وأرى موسى الحقيقة العملية منها، وبهذا عرفَ موسى وجْهَ الحق والصواب فيها:

تأويلُ خرقِ الخضر للسفينة: أنه أرى موسى الملكَ ، يُصادرُ السفنَ الصالحة ، فالهدفُ من خرقه لها نجاتُها من الملك .

فنجاةُ السفينة هي تأويلُ خرقها ، الذي يُحملُ عليها ، ويُرَدُّ إليها .

وتأويلُ قتْل الغلام ، أنَّ الخضرَ أرى موسى مستقبل الغلام الكفريَّ عندما يكبر ، وإزعاجَه لأبويه ، فالهدف من قتله إراحة أبويه من كفره ، والله يعوِّضُهما عنه ، إنَّ إراحة أبويه منه هي تأويلُ قتله ، الذي يُحملُ ، ويُرَدُّ إليها.

وتأويلُ بناء الجدار ، أنَّ الخضر أرى موسى كنزَ اليتيمين تحته ، فالهدفُ من بنائه هو المحافظة على الكنز إلى أنْ يكبرَ الغلامان اليتيمان . إنَّ المحافظة على الكنز هي تأويلُ بناء الجدار، الذي يجبُ أنْ يُحمل عليها ، ويُرَدُّ إليها .

ونلاحظ أنَّ الخضر عليه السلام لاينسبُ معرفة حقيقة أعماله الثلاثة إلى نفسه، فما كان الخضرُ بنفسه ليرى الملكَ يصادرُ السفن ، وما كان الخضرُ بنفسه ليرى مستقبلَ الغلام ، وما سيكون عليه بَعد عشرين سنة. وما كان الخضرُ بنفسه ليرى كنزاً وُضع تحت الجدار قبلَ سنين !

إنما أراهُ اللهُ ذلك ، وعرَّفه الله تلك الحقائق ، وكشفَ له عن تلك البواطن الخفيةِ ، وأمره اللهُ أن يفعلَ ما فعل ، ليحقق تلك الحكمَ الخفية، أمره اللهُ بخرْقِ السفينةِ لتنجو من الملك ، وأمره اللهُ بقتل الغلام ليستريح أبواه من كفره ، وأمره اللهُ ببناء الجدار ليأخذ الغلامان الكنزَ عندما يكبران.

ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ . أي: لم افعلْ هذه الأفعالَ الثلاثة باجتهادٍ مني ، إنما فعلتها بأمر من الله .

شمول أعماله للماضي والحاضر والمستقبل :

وإذا نظرنا في أفعالِ الخضر الثلاثة ، وتأويلِه لها ، فإننا نراها قد استوعبتْ أطرافَ الزمان كلها !

الزمانُ إمّا ماضٍ ، وإما واقعٌ حاضر ، وإمّا مستقبل .

ولقد أرى اللهُ الخضرَ الحقيقة في أطرافِ الزمان الثلاثة ، فقام بتأويل الظاهر إليها ، وحمّله عليها !!

وُقوفُ الملك في موقع متقدم لمصادرة السفن الصالحة ، يمثّلُ فترة الزمان الحاضر ، فهو موجودٌ واقف في نقطته وموقعه ، وإنْ لم يشاهده أصحابُ السفينة ، لأنهم في طريقهم إليه، إنهم لم يروه بعد ، ولكنَّ اللهَ أرى الخضرَ إياه مع عصابته !

وكونُ الغلام سيكون كافراً عندما يكبر ، يمثّلُ المستقبل ، أو فترة الزمانِ القادمة، وهذا غيبٌ لا يعلمه بشر، وعلمُه خاصٌّ بالله، ولا يعرف الناسُ كيف سيكون مستقبلُ هذا الغلام، وقد أطلعَ اللهُ الخضرَ على هذا المستقبل!

ووضْعُ الكنز تحت الجدار يمثِّلُ فترة الزمان الماضية ، فالرجلُ الصالح أخفى الكنز لابنيْه الصغيريْن تحت الجدار ، قبل أن يموت ، ولا يعلمُ أحدٌ بوجود الكنز تحت الجدار ، فاعلمَ اللهُ الخضرَ بهذا الكنز الموضوع من قبل!!

واختيارُ أمثلةٍ ثلاثةٍ لأفعالٍ عجيبةٍ مدهشة ، تمثِّل فيها فتراتُ الزمان الثلاثة: الماضية والحاضرة والقادمة ـ مقصود ، لادراكِ معنى التأويل للأحداث ، التي مرَّت ، أو تمرُّ الآن ، أو ستمرُّ فيما بعد .

وإنه ليس شرطاً أن تكونَ هذه الأحداث على صورتها الظاهرية الخارجية التي وقعتْ من خلالها ، فقد تكون لها صورةٌ باطنية خفية ، هي المرادةُ منها ، وهي التي ستنتهي وتُؤَوَّلُ إليها !!

لكن مَنْ يُؤَوِّلُ هذه الأحداث ؟ ومَنْ يَرُدُّ ظاهرَها إلى باطنها ؟ ومَنْ يحملُ وجودَها الواقعي على حقيقتها الخفية ، وغايتها المرادة ؟

المطلب الثالث

مع التأويل في سورة الأعراف

وردَ التأويل مرتيْن في سورة الأعراف ، والمرتان في آيةٍ واحدة ، تتحدثُ عن يوم القيامة ، الذي أخبرَ القرآنُ عن وقوعه وقدومه ، ولكن الكفارَ أنكروا ذلك ، ولم يصدِّقوا بالآيات التي تخبرُ عنه .

قال تعالى: ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تاويله ؟ يوم ياتي تاويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء ، فيشفعوا لنا، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ماكانوا يفترون ﴾[1].

المعنى الإجمالي للآيتين:

تتحدث الآيتان عن القرآن ، وعن تفصيله ، وعن معانيه وأخباره ووعوده .

لقد بعثَ اللهُ محمداً ﷺ رسولاً ، وأنزلَ عليه القرآن كتاباً ، ودعا الناس إلى الإيمان بهذا القرآن ، وتصديق أخباره .

وأخبرت الآية الأولى أنَّ اللهَ جاءَ الناس بهذا القرآن ، وجعله كتاباً مفصّلاً، تفصيلاً لفظياً ، وتفصيلاً موضوعياً .

. تفصيله اللفظيُّ تمثلَ في تقسيمه إلى سور ، وتقسيم السورة منه إلى آيات، وتقسيم الآية إلى جُمل وكلمات .

---

(١) سورة الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣ .

أما تفصيله الموضوعي فقد تمثّل في الموضوعاتِ التي عرضها والمعاني التي قدّمها ، والأخبارِ التي أخبر عنها ، والحقائق التي قرّرها .

تفصيله الموضوعي في حديثِه عن الدنيا والآخرة ، عن الحياة والموت والبعث، وفي تقريره لحقائق العقيدة والشريعة والأخلاق ومناهج الحياة ، وفي عرضِه لمسيرة التاريخ من خلال قصصه ، وفي ربْطِه لكل ما يجري في الكون والحياة والانسانِ بقدَرِ اللهِ وأمْره ومشيئته سبحانه .

لقد فصّل اللهُ القرآن بعلمه ﴿ فصلناه على علم ﴾ ، وجعَله هدى يهتدي به المؤمنون ، ورحمةً يرحم به المؤمنين ، عندما يؤمنون به ، ويتدبّرونه ، ويلتزمون بتوجيهاته ، وينفّذون أحكامه: ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

هذا أثرُ القرآن في المؤمنين الذين صدَّقوا بأخباره ، وآمنوا بوعوده ، فسعدوا في الدنيا ، وفازوا وربحوا يومَ القيامة .

أما الكفارُ فإنهم لم يؤمنوا به ، ولم يصدّقوا بأخبارِه ، التي تُخبرُ عن البعث بعد الموت ، وعن قدوم الساعة ، ومجيء يوم القيامة ، ولما سمعوا الآياتِ التي تتحدثُ عن ذلك كذّبوا بها .

لقد أخبرتْ آياتُ القرآن عن مشاهد القيامة ، وتحدثتْ عن نفخةِ البعث، وخروج الناس أحياءً من قبورهم ، وسوْقِهم الى إرض الموقف للحساب والجزاء، وعن الميزان والصحف والصراط ، وعن النارِ وألوان عذابها ، وأحوالِ الكفار فيها ، وعن الجنة وأصناف نعيمها وسعادةِ المؤمنين فيها .

وهذه المشاهدُ لم تقع الآن ، لأننا ما زلنا في الدنيا ، لكنها ستقع حتماً، لأن اللهَ أخبرَ عن وقوعها ، ولذلك آمَنَ المؤمنون بذلك .

أما الكفارُ فقد استبعدوا وقوعَها واستهجنوه واستغربوه ، ولذلك كفروا بها وأنكروها .

وهنا تهدِّدهم الآية الثانية ، وتبينُ لهم حالهم يوم القيامة ، عندما يتمُّ تأويلُ أخبار القرآن ووعودِه التي تتحدثُ عن يوم القيامة .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾:

« هل »: حرفٌ للاستفهام . والاستفهامُ هنا إنكاري ، إذ ينكر القرآنُ على الكفار عدمَ إيمانهم بالقرآن ، وعدمَ تصديقهم بوعوده.

و « ينظرون »: بمعنى: ينتظرون . فهو من الانتظار وليس النظر .

والهاء في «تأويله» تعودُ على القرآن - وهوالكتابُ المذكور في الآية السابقة.

فمعنى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾: لماذا لم يؤمن الكفارُ بالقرآن ؟ ولماذا لم يصدِّقوا بالآياتِ التي تتحدثُ عن يوم القيامة ؟ ماذا ينتظرون ؟ إنهم ينتظرون تأويل آيات القرآن ، وينتظرون وقوعَ الأحداث يوم القيامة ، التي تتحدث عنها الآيات ، وينتظرون رؤية هذه الأحداثِ بعيونهم عندما يُبعثون من قبورهم .

هذا هو تأويلُ الآيات المخبرةِ عن يوم القيامة ، وهو وقوعُها فعلاً وحقيقة ، ومشاهدتُهم لها .

والدليلُ على أن هذا هو معنى التأويل المذكور في الجملة ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ مجيءُ التفصيل بعد ذلك في الآية ، مبيناً لهذا الإجمال .

﴿ يوم يأتي تأويله: يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء، فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾.

والمعنى: يومَ القيامة يأتي تأويلُ آياتِ القرآن ، التي تخبرُ عن مشاهد القيامة، وتأويلها هو وقوعُ هذه الأحداث والمشاهد فعلاً ، كما أخبرتْ آياتُ القرآن من قبل .

عند ذلك ، وبعدما يشاهدَ الكفارُ تأويلَ الآيات عملياً، ويرونَ الأحداثَ يوم القيامة عياناً ، يقولون: ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق !! ﴾.

أي: كان الرسلُ صادقين معنا في الدنيا ، عندما أخبرونا عن أحداث الساعة، وكانت آياتُ القرآن صادقةً عندما تحدثت عنها ، لقد جاءت الرسلُ بالحق، وتحدثت الآياتُ بالحق ، بدليل أننا نرى الآن حقيقة ما قالوه لنا ، نراه عملياً أمامنا ، فها هي الآياتُ قد تمَّ تأويلها الآن . ونحن كنا مخطئين. عندما كذَّبنا بها في الدنيا .

فهل لنا من شفعاء ، فيشفعوا لنا عند الله ؟ ويدفعوا عنا عذابَ الله؟ وينقذونا من النار ؟ أو هل يمكن أنْ يردَّنا اللهُ إلى الدنيا ، ويعيدَنا إليها ، ويُعطينا فرصةً أخرى ، لنؤمنَ بهذا الحق ، ونعملَ غيرَ الذي كنا نعمل؟ .

إنهم يتمنَّون هذه الأماني التي لن تتحقق ، فلا شفاعة لهم ، ولا رجوعَ إلى الدنيا . إنهم خاسرون هالكون معذبون: ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ﴾ .

التأويل مجيءُ يوم القيامة فعلاً :

نستحضرُ تعريفَ الإمام الراغب للتأويل: «هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه، علماً كان أو فعلاً » لنرى انطباق هذا التعريف على التأويل المذكور في الآية .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

تتكلمُ الآيةُ عن تأويل القرآن ـ لأن الهاء َ في « تأويله » تعودُ على الكتاب المذكور في الآية السابقة ـ وتدعو الكفارَ إلى انتظار تأويله ، وتهددهُم بما سيكون لهم يوم تأويله ، وتريهم صورةً عن العذاب الواقع بهم يومَ تأويله ..

فما المرادُ بتأويله ؟ هل المرادُ بيان معاني آيات القرآن ، وشرحُها وتفسيرُها؟ لا ، لأنه لا دخلَ لبيان معاني الآيات بالعذاب الواقع بالكفار.

أي أنَّ التأويلَ في الآية ليس بمعنى العلم ، بل بمعنى الوقوع والحدوث، وبيانِ العاقبةِ والمآل .

أو: هو ردُّ معاني الآيات إلى غايتها النهائية ، وحقيقتِها الفعلية المادية .

تأويلُ القرآن المذكورُ في الآية ، هو تحققُ وقوع آياته التي تخبرُ وتتحدثُ عن مشاهد القيامة ، وأحداث اليوم الآخر .

إن السياقَ الذي وردتْ فيه الآية يتحدثُ عن يوم القيامة . يبدأ الحديثُ عن يوم القيامة من الآية رقم (٣٤) من السورة ، وينتهي بالآية رقم(٥٣).

تتحدثُ الآياتُ عن مشهد الحسرةِ والندامة ، والتلاوم والتلاعن ، بين الفريقين الأتباع والمتبوعين في جهنم ، وعن العذابِ الواقع بالفريقين ، وعن خلودهم معذبين في النار . ثم تعرض مشهداً مقابلاً للمؤمنين ، وهم منعمون متحابّون في نعيم الجنة .

وتعرضُ الآياتُ لقطاتٍ حية متحركةً مصورة، عن نداءاتٍ وحواراتٍ بين أهل الجنة وأهل النار ، وأصحاب الأعراف .

ويُنادي أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة مهنئين لهم دخولهم الجنة ، وعندما تُصرفُ أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، يتعوذون بالله منهم ومن تعذيبهم ، ويسألون أشخاصاً بأعيانهم من أهل النار سؤال تبكيت وتقريع .

يُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار ، ويسألونهم سؤال استهزاء وتقريع وتبكيت ، فيجيبُهم أهل النار بذلة ومهانة.

ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، مستغيثين بهم ، طالبين منهم شيئاً من الماء أو الطعام ، فيردُّ عليهم أصحابُ الجنة بأن اللهَ حرمَ الجنة ونعيمَها

على الكافرين ، ويَبقى الكافرون في العذاب مع حسرتهم وخزيهم .

فالآياتُ كلُّها في السياق تتحدث عن يوم القيامة ، ومشاهدِ نعيم المؤمنين في الجنة ، وعذاب الكفار في النار .

ما موقفُ المؤمنين والكافرين في الدنيا من هذه الآيات ، وما تقدمه من أخبار ووعود عن يوم القيامة ومافيه ؟

أما المؤمنون فقد آمنوا بها ، وصدَّقوا بمضمونها ، واعتقدوا وأيقنوا بوقوعها يوم القيامة . أي: أنهم آمنوا بحدوثِ مشاهدِ القيامة كما أخبرتْ هذه الآيات .

وأما الكافرون فقد كذَّبوا بهذه الآيات ، واستغربوا مضمونها ، وأنكروا وقوعَ شيء مما تحدثُ عنه الآياتُ من مشاهد القيامة ، ونفوا أنْ يكونَ بعثٌ وحشرٌ وحسابٌ ونارٌ ونعيمٌ وعذاب ! أي أنَّ الكفارَ نفوا وقوعَ الصورةِ العمليةِ لمضمون الآياتِ النظري ، وتحقق المدلولِ الواقعي للوعد والوعيد النظري .

فتأتي الآيةُ الأخيرةُ في هذا السياق لتهددَ الكفارَ المنكرين ليوم القيامة . وتقول لهم: أنتم الآن في الدنيا تنكرون وقوعَ مشاهد القيامة عملياً ، التي تتحدثُ الآياتُ التي تسمعونها عنها ، وتجزمُ بوقوعها .

انتظروا تأويلها: ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ . أي: انتظروا الحين قيام الساعة ، وبدء مشاهدِ يوم القيامة ، عند ذلك سيتم تأويلُ هذه الآيات التي تسمعونها الآن في الدنيا ، وسيتحققُ وقوعُ ما أخبرت عنه الآياتُ في صورة عملية . وستشاهدون صورةً ماديةً واقعيةً لمضمون هذه الآيات النظري .

عندها ، عندما يتحقق تأويلُ هذه الآياتِ عملياً ، ووقوعُ حقيقتها وغاياتها المادية ، ماذا سيكون وضعُكم هناك ؟ ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء ،

فيشفعوا لنا ، أونرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ ﴾..

إذن التأويلُ المذكورُ مرتين في هذه الآية من سورة الأعراف ، هو ردُّ معاني الآيات النظرية المخبرة عن مشاهد القيامة ، إلى غايتها المادية، وحقيقتها الواقعية، وبيانُ بُعْدِها الواقعي ، وذلكَ عند بدءِ عرض مشاهد القيامة فعلاً ، ومعايشةِ الناس لها واقعاً .

. فتأويلُ هذه الآيات هو بيانُ مصيرها ومآلها ونهايتها ، وتحويلُ وعدها النظري إلى صورته العملية ، ورؤيةُ حقيقتها المادية الواقعية ، وذلك عندما يعيشون فعلاً مشاهدَ القيامة هناك!! .

المطلب الرابع

مع التأويل في سورة يونس

وردَ التأويلُ مرةً واحدة في سورة يونس ، وذلك في آية ضمن مجموعةٍ من آيات ، تتحدثُ عن القرآن ، وتثبتُ أنه كلامُ الله ، وتتحدى الكفارَ بمعارضته، وتخبرُ عن تكذيبهم بمضمونه ، وتهددُهم بالدمار يوم يأتي تأويله، وتقررُ سنةً ربانية مطردةً في ذلك .

قال تعالى: ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً. إن الله عليم بما يفعلون. وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ، وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل، وأنا بريء مما تعملون ﴾[1] .

المعنى الإجمالي للآيات:

تبدأ الآياتُ بتقرير حقيقةِ ما عليه الكفار ، فهم ليسوا على علم ولا يقين، في موضوعاتِ الدين والاعتقاد . لقد كفروا بالرسولِ عليه الصلاة والسلام ، وأنكروا أن يكونَ القرآنُ كلامَ الله ، وكانوا مع الباطل والشركِ بالله ، إنهم في كلِّ ذلك كانوا متبعين للظن والتخمين ، ومحمدٌ ﷺ كان

---

(١) سورة يونس: ٣٦ ـ ٤١ .

على الحقِّ واليقين ، وماذا يساوي الظنُّ بالنسبةِ إلى الحق؟ إنه لايغني عن الحق ، ولايسدُّ مسدَّه .

وهذا القرآنُ الذي يسمعونه من رسول الله ﷺ هو الحق ، وهو كلامُ الله ، وما كان لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام أن يفتريه من دون الله، ثم ينسبُه إلى الله!

إن القرآنَ مصدقٌ للكتبِ الربانية السابقة ، كالتوراة والإنجيل ، ومؤكدٌ لما فيها من حقائق حول الدين والإيمان ـ هذا قبلَ أنْ يحرفها أصحابُها من اليهود والنصارى ـ وهذا القرآن مفصَّلٌ في معانيه وموضوعاته ، وهوكلامُ الله رب العالمين ، لاريب ولا شكَّ في ذلك: « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه من رب العالمين » .

ولكنْ ما موقفُ الكفار من هذه الحقائق؟ إنهم ينكرونها ، لأنهم يتَّبعون الظن. القرآنُ غير مفترى، وهو كلامُ الله ، ولكنهم يقولون: القرآن مفترى، وليس كلامَ الله !

وطالما لم يُسلِّموا أنه كلامُ الله ، وقالوا هو كلامُ البشر ، فلا بد من التحدي، إنه إنْ كان كلامَ بشر ، كان بمقدور البشر الإتيانُ بمثله ، إذن فعلى هؤلاء الكفار تأليفُ وتقديمُ سورة ، مثلُ سور القرآن ، بيانها وبلاغتُها وفصاحتُها مُثلُ سور القرآن ، ويمكنُ أن يستعينوا بمن شاءوا من الأعوان ، وأنْ يستشهدوا بمن أرادوا من الشهداء . . . فإنْ عجزوا عن المطلوب ، ولم يقْدروا على الإتيانِ بسورة مثل القرآن ، ثبتَ أنَّ القرآنَ ليس كلامَ بشر ، ولا في مقدور أحدٍ من المخلوقين ، فهو كلامُ الله سبحانه: ﴿ أم يقولون افتراه . قل: فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين﴾.

لكن هل آمنَ الكفار واتَّبعوا الحق ، واعتبروا أنَّ القرآنَ كلامُ الله ؟

كلا. إنهم مازالوا مصرِّين على التكذيب والكفر ، رغم وجودِ عدةِ آياتٍ وأدلةٍ وبراهين، تثبتُ أن القرآنَ كلامُ الله ، وهي عند أصحاب التفكير السويِّ السليم تنتجُ الايمانَ واليقين والتسليم .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾: كذَّبَ الكفارُ بالقرآن ، قبلَ أنْ يحيطوا علماً بآياتِه وبراهينه وأدلته ، وقبلَ أن يختبروا صدقَ ما فيه ، وقبلَ أن يتأكدوا منه ، ويتمكّنوا من البحثِ ، والتحري ، والدراسة ، والاستقصاء ، لأنَّ التكذيبَ منهم قرارٌ مسبق ، لن يتراجعوا عنه ، مهما اتضحَ لهم من الحقائق الهادية ، إنهم رفضوا الحقَّ عناداً ، وكذّبوا به عناداً. ولو فكروا في الموضوع بمنهجية وعلميةٍ وإنصافٍ ، لآمنوا وصدَّقوا بالحق .

﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾: كذَّبَ الكفار بالقرآن ، قبلَ أنْ يُحيطوا به علماً، وقبلَ أنْ يأتيهم تأويلُ آياته ، لقد كانوا متسرِّعين متعجلين في التكذيب ، وماذا عليهم لو تأنوا وتريَّثوا ؟ ماذا عليهم لو انتظروا قليلاً إلى أنْ يأتيهم تأويلُ القرآنِ؟ إنهم لو تريثوا لعرفوا أنه الحق ، ولو انتظروا لحين تأويل آياته ، وتحقُّقِها امامَهم في عالم الواقع ، في صورةٍ مادية فعلية ، لعرفوا أنَّ القرآنَ حق، وأنَّ وعوده تتحقَّقُ وتتأوَّلُ فعلاً .

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾: كفارُ قريش مثلُ الكفار الذين من قبلهم في اتباع الظن ، وفي التكذيبِ بالحق ، وفي التسرُّع والتعجُّل بالتكذيب، وفي عدم التريثِ والتأني ، وانتظارِ تأويل وعود وتهديدات الله، في الكتب التي انزلها إليهم .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ كان تكذيبُ الكفار السابقين ، على تلك الصورةِ المتعجِّلة المتسرعة ، سبباً في وقوع العذابِ بهم ، فلما أتاهم تأويلُ التهديدات ، وشاهَدوا تحقُّقَها في عالم الواقع ، في صورة عذاب ودمار ، أهلكهم اللهُ وقضى عليهم ، فزالوا عن الوجود . انظرْ كيف كانت عاقبتُهم وكيف كانت نهايتُهم ؟

وهؤلاء الكفارُ المكذِّبون لك يا محمد ، كذَّبوا كما كذَّب الكفارُ من قبلهم ، وتعجلوا كما تعجلَ الذين من قبلهم ، ولهذا سيقعُ بهم كما وقعَ بالذين من قبلهم ، وسيدمرهم اللهُ كما دمرَ الذين من قبلهم ، وانتظر هذه العاقبة المؤلمة لهم، إن لم يتراجعوا عن كفرهم .

إنَّ هذه الآية تهديدٌ ووعيد للكفار المكذبين ، وإمهالٌ لهم لحين تأويل آياتِ القرآن ، التي تقررُ هزيمَتهم وهلاكهم ، وانتصارَ الحق، وتحقُّق هذه الآيات في صورتها المادية الواقعية .

فما موقفُ الكفار من هذا التهديد ؟

سينقسمون إلى قسمين: قسم يتأثرُ به ، ويفكِّرُ في موقفه ، ويغيِّرُ مسارَه، ويؤمن بالقرآن ، ويتبعُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام .

وقسم لن يتأثَّرَ به ، ولن يستفيدَ منه ، وسيبقى مُصِرّاً على عناده وكفره وتكذيبه ، إلى أن يتحققَ التأويل ، ويقعَ العذاب .

وقد أشارَ إلى القسمين قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ .

أما الذين آمَنوا بالقرآن ، واستفادوا من التهديد ، قبل وقوع وتحقُّق التأويل، فهم مسلمون صالحون .

وأما الذين أصرُّوا على التكذيبِ والكفر والعناد ، فعلى الرسولِ عليه الصلاة والسلام أنْ يفاصلهم ، وأنْ يتبرأ منهم ، وأنْ يتركهم ينتظرون تحققَ التأويل ، ووقوعَ العذاب: ﴿ وإن كذبوك فقل: لي عملي ، ولكم عملكم. أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

المراد بالتأويل في هذه السورة:

تخبرُ الآياتُ - التي مِن ضمنها آية التأويل - عن كفر الكفار بالقرآن، وتكذيبهم به، وزعمِهم أنه ليس كلامَ الله، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد افتراه، وتتحدّاهم الآياتُ وتطلبُ منهم معارضة القرآن، والإتيانَ بسورةٍ مثله.

وتقررُ أن الكفارَ كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وقبلَ أن يأتيهم تأويله، وكانوا في هذا كأسلافهم السابقين، حيث أوقعَ الله بهم عذابَه وأهلكهم، وهؤلاء يسيرون على طريق السابقين، والعذابُ قادمٌ إليهم، إنْ لم يؤمنوا.

فما المرادُ بالتأويل هنا؟

إنه تأويلُ آياتِ القرآن التي كذّبوا بها، ومعنى تأويلها بيانُ نهايتها ومآلها، أو وقوعُ صورتِها المادية العملية!

والسياقُ الذي وردتْ فيه الآيةُ سياقُ وعيدٍ وتهديد للكفار، وبيانُ أن العذابَ قادمٌ إليهم، وأن تأويلَ الآياتِ التي كذبوا بها سائرٌ إليهم، وعما قريب سيشاهدون هذا التأويل ويعيشونه في عالم الواقع!

لقد واجهتْ آياتُ القرآن الكفار، وكانت تخبرُهم بانتصارِ رسولِ الله ﷺ، وإظهار دينه، وتقررُ عجزَ هؤلاء الكفارِ عن الوقوفِ أمام الاسلام، أو إطفاءِ نوره، وتدعوهم إلى الدخول فيه، فلا فائدة من المواجهة والمحاربة.

وكانت آياتُ القرآن تقدمُ لهم الوعيدَ والتهديد، وتخبرهُم أنَّ العقابَ واقعٌ بهم، وأنهم في ذلك مثلُ الكفارِ السابقين.

ولما كانوا يسمعون التهديدَ والوعيد في هذه الآيات، كانوا يزدادون تكذيباً بها، وسخريةً واستهزاءً بالرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعِه. فهل من الممكن او المعقول ان يهزمهم محمدٌ ﷺ، ومن معه مسلمون

مستضعفون فقراء ؟ أمّا هم فهم أقوياءُ أغنياء أصحابُ السلطة والمنزلة ؟

في هذا الجو تنزلتْ آياتُ سورةِ يونس ، وواجهت الكفارَ في تكذيبهم واستهزائهم .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ﴾ .

كذّبوا بأخبارِ القرآن وحقائقه ، كذّبوا بوعوده للمؤمنين ، وتهديداته للكافرين، وأنكروا أنْ يكون المستقبل هو للإسلام والمسلمين ، ولم يصدّقوا أنهم يمكن أن ينهزموا أمامَ المسلمين .

فتقول لهم الآية: إنكم تكذّبون الآنَ بهذه الآيات ، وأنتم لم تحيطوا علماً بها، تكذّبون بها لأنه لما يأتكم تأويلها ، ولما تشاهدوا صورتها العملية والواقعية، لكنْ تأويلها آتٍ عن قريب ، وستعيشون. هذا التأويلَ عملياً عندما تبدأ المعاركُ الفعلية بينكم وبين محمد ﷺ ، وهذه المعاركُ ستنشب عن قريب!

إنَّ « لما » في قوله: ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ تدلُّ على التوقّع ، وتُستعملُ في قربِ وقوع ما بعدها .

وذلكَ كما في قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا . قل: لم تؤمنوا . ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾[1].

إنَّ « لما » هنا حرْفُ « توقّع وإطماع » . فالأعرابُ أسلموا ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وامتنّوا عليه ، وزعموا تحقُّقَ الايمانِ بعد الإسلام فيهم ، ولكنَّ الآية تصحح لهم ذلك ، وتقول لهم أنتم أسلمتم ، نعم، ولكنكم لم تؤمنوا حتى الآن ، لأن الإيمانَ لم يدخلْ في قلوبكم إلى الآن.

لكن هذا الإيمانَ ليس بعيداً عنكم ، وأنتم لستم بعيدين عنه ، إنكم سائرون في طريقكم إليه ، وسيدخلُ في قلوبكم عن قريب!

---

(١) سورة الحجرات: ١٤ .

وفي الجملةِ التي أمامنا ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ التوقُّع واضح .

لم يقع تـأويلُ الآيات التي كـذَّب بهـا الكفـار حتـى الآن ، ولم تقع الصورةُ العمليةُ للتهديدات النظرية لهم ، التي حوتْها آياتُ القرآن .

إنهم مهزومـون ، لكن متى؟ لما يأتهم تأويلُ ذلك أي: لم تقع هزيمتُهم فعلاً الآن ، لكنها ستحققُ عن قريب ، فتأويلُ الآياتِ التي تقرر ذلك على وشك الوقوع !

وإنَّ الرسولَ منصور ، والاسلامَ ظاهر ، لكن ؟ لما يتم تأويلُ ذلك ، لأنَّ المعركة لم تنشبْ مع الكفار فعلاً حتى الآن ، ولكنها ستنشبُ عن قريب ، وعندها سيتمُّ تأويلُ الآيات التي تقررُ ذلك .

وهذا ماحصلَ فيما بعد ، في حركةِ الدعوة الاسلامية ، وحربها مع الكفار، فلم تمض إلا سنواتٌ قليلة على نزولِ هذه الآية من سورة يونس ـ والتي تقررُ قربَ وقوع وتأويل تهديدات القرآن ـ حتى تحققت تلك الوعودُ والتهديداتُ في عالم الواقع ، وذلك في غزوة بدر، وما تلاها من الغزوات التي هزمَ اللهُ فيها الكفار . وعندها أتى الكفارَ تأويلُ تلك الآيات، أي: تمَّ تنفيذُ وعود وتهديدِ الآيات القرآنية ، وبذلك حُوِّلتْ من وعدٍ نظري إلى صورةٍ عملية واقعية ، وبذلك تمَّ ردُّ وإرجاعُ معنى الآيات النظري إلى غايته الفعلية ، ونهايتِه المادية .

عمر بن الخطاب يروي عن وقوع التأويل:

حمَلْنا معنى التأويل في سورة يونس على وقوع وعودِ القرآن للمؤمنين بالنصر، وتحقق تهديداتِه للكفار بالهزيمة . واعتبرْنا غزواتِ الرسولِ ﷺ ، وهزيمتَه للكفار من اليهود والمشركين والأحزاب ، تأويلاً عملياً للنصوص القرآنية، وهذه الغزواتُ هي المرادة بقوله تعالى: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ﴾ .

ونقدمُ فيما يلي مثالاً واحداً من السيرة النبوية وحركة الصحابة ، تبيّنُ أنّ هذا هو المقصودُ بالتأويل ، وأنّ الصحابة كانوا يفهمونه .

إنّ آياتِ سورة القمر تقررُ هزيمة كفارِ قريش ، كما هزمَ اللهُ الكفار السابقين، وبعد أنْ تقدمَ آياتُ السورة لقطاتٍ سريعة عن مصارع أشهر الكفار السابقين: قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون، تخاطبُ كفارَ قريش قائلة: ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾[1] .

تسألُ هذه الآياتُ كفارَ قريش: أأنتم خيرٌ من الكفارِ السابقين المعذَّبين ؟ أتظنونَ أن العذابَ لن يقعَ بكم في الدنيا قبل الآخرة ؟هل معكم براءةٌ من الله أنزلها عليكم في الزبُر والكتب ؟ أم تعتمدونَ على قوتكم وجنودِكم وأتباعكم ؟ أتظنون أنكم ستنتصرون على المسلمين في حربكم القادمةِ القريبة ؟ وتقولون: نحن جميعٌ منتصرون ، والمسلمون مهزومون ؟

لاتظنّوا هذا ، ولا تتوقّعوه ، إنّ المعاركَ قادمةٌ بينكم وبين المسلمين ، وستنهزمون أمامَهم ، وسيتفرق جمعكم ، وستُولون أدباركم للمسلمين ، وسينزلُ الله نصرَه عليهم: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

إنّ قوله: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وعيدٌ من الله وتهديدٌ للكفار، وتقريرُ أنهم سينهزمون لا محالة !

وهذه الآياتُ نزلتْ في مكة ، بينما كان المسلمون قلةً مستضعفين ، والكافرون أقوياء غالبين ، وقد أيقنَ المسلمونَ بتحقق وعدِها في المستقبل ، لكنَّ الكافرين لم يصدّقوا ذلك .

متىٰ تمّ تأويلُ هذه الآيات؟ أي: متى تحققَ بُعْدُها العمليُّ المادي الواقعي؟ ومتى رُدَّ الكلامُ النظريُّ فيها الى غايته الفعلية المرادة منه ؟

(١) سورة القمر: ٤٣ ـ ٤٦ .

لقد حصلَ ذلك ، وتمَّ تأويلها بعد بضع سنوات من نزولها ، وكان ذلك في غزوةِ بدر الكبرى، في السنةِ الثانية من الهجرة !!

وقد روى لنا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه تحققَ التأويل لهذه الآيات في غزوة بدر .

قال عكرمة: « لما نزلَ قوله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر: أيُّ جمعٍ سَيُهْزَم ؟ وأيُّ جمْعٍ سَيُغْلب ؟

فلما كان يومُ بدر ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَثبُ في الدرع ، وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ ، فعرفتُ تأويلها يومئذ[1] !!

وتأمّل معنا قولَ عمر « فعرفتُ تأويلها يومئذ » لتعرفَ معنى التأويل .

إن نزولَ هذه الآية في مكة وعيدٌ وتهديدٌ نظري ، وخبرٌ عما سيحدثُ لهم في المستقبل على أيدي المسلمين . هذا الوعيدُ النظريُّ يحتاجُ إلى تأويل، أي: ردٍّ إلى غايته العملية المرادة منه ، ورجوعٌ به إلى صورته المادية، وبيانُ عاقبته ومآله .

ولقد تحققَ ذلك الردُّ والرجوعُ والتأويلُ في معركة بدر ، وتحققَ عملياً على أرضها ذلك الخبرُ القرآني ، وعندها فقط عرفَ عمرُ رضي الله عنه تأويلَ الآية!

هذا مثالٌ من السيرة النبوية ، وفهم الصحابة ، يظهرُ فيه التأويلُ العمليُّ لقوله تعالى: ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ .

وبهذا نعرفُ أنَّ التأويلَ في سورةِ الأعراف تهديدٌ ووعيدٌ للكفار بتحققِ العذاب بهم يومَ القيامة - كما سبق أن بينا - . وأما التأويلُ في سورةِ يونس، فهو وعيدٌ وتهديدٌ للكفار بتحققِ الهزيمةِ بهم في الدنيا !!

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٨١/٤ .

المطلب الخامس

مع التأويل في سورة الإسراء

وردَ التأويلُ مرةً واحدةً في سورة الإسـراء ، وذلك تعقيباً على أمْر الله المؤمنين بتوفيةِ المكيال ، وإتمام الميزان ، حيث اعتبر ذلك خيراً وأحسن تأويلاً .

قال تعالى: ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم : ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[1]

الكيل والوزن بين الإتمام والتطفيف:

هذه الآية ضمنَ آياتٍ تقدّمُ للمسلمين مجموعةً من التوجيهات القرآنية حول الأخلاق والفضائل ، حيثُ تأمرهم بالتحلي بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وتنهاهم عن قبائحها ومساوئها .

هذه الآياتُ من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية التاسعة والثلاثين: ٢٣-٣٩ .

تأمر الآية المسلمين بالوفاءِ بالكيل عندما يكيلون ، والوزنِ بالقسطاس عندما يزنون ، وتعتبرُ هذا الأمرَ خيراً ، كما تعتبره أحسنَ تأويلاً .

ونقيض الوفاءِ بالكيل هو إنقاصُه ، ونقيضُ الوزن بالقسطاس ، هو بخسُ الميزان وتخسيرُه ، وهذا هو التطفيف ، الذي ذمَّ اللهُ المطففين من أجله .

لقد كان قومُ مدينَ يُنقِصون المكيالَ والميزان، فبعث الله لهم شعيباً عليه

---

(١) سورة الإسراء: ٣٥ .

الصلاة والسلام ، فنهاهم عن التطفيفِ والإنقاص والبخس ، وأمرهم بالإتمام والتوفية . قال تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان، إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين.بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[1].

وقد أمرَ اللهُ المسلمين بالوزنِ بالقسط ، وعدم إنقاص الميزان ، كما وردَ في قوله تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ﴾[2] .

وذمَّ اللهُ المطففين لتلاعبهم في المكيالِ والميزان ، فقال تعالى: ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[3] . والمطففون هم الذين يُطفِّفون الكيل ، فيُنقصونه ولا يُتمونه .

قال الامام الراغب في معنى « طفَّفَ »: « الطفيف: الشيءُ النزر القليل، والطفافة هي الشيءُ الذي لا يُعتدُّ به لقلته . ويُقال: طفَّفَ الكيل: إذا قللَ نصيبَ المكيل له في إيفائه واستيفائه »[4] .

إنَّ المطففَ في المكيال متلاعبٌ به ، فإذا اكتالَ من الناس وأخذ منهم زادَ في المكيال ، فأخذ أكثرَ من حقِّه ، لكنه بالمقابل إذا كالَ لهم وأعطاهم، فإنه يُنقِصُ المكيال ، ويُعطيهم أقلَّ مما لهم .

---

(١) سور هود: ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) سورة الرحمن: ٧ ـ ٩ .

(٣) سورة المطففين: ١ ـ ٦ .

(٤) المفردات للراغب: ٥٢١ .

وهذا ما فسَّرته الآياتُ في تعريفِ المطففين . إنهم ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

التطفيفُ ظلمٌ وتجاوُز ، والمطفِّفُ ظالمٌ متجاوز، إذا اكتال وإذا كال ، إذا أخذ ، وإذا أعطى .

وقد لاحظ هذه اللفتة الإمامُ أحمدُ بن فارس في مقاييس اللغة ، فقال: «التطفيف: نقْصُ المكيال والميزان . وقال بعضُ أهل العلم: إنما سُمي نقصُ المكيال والميزان تطفيفاً ، لأن الذي يُنقصُه منه يكون طفيفاً أي: قليلاً . ويقال لما فوقَ الإناء: الطُّفاف»[1] .

الزيادةُ في المكيال والميزان تطفيف ، يقال: طفَّ المكيال: إذا زاد . والإنقاص منه تطفيف ، يقال: طفَّفَ المكيال: إذا أنقصَ منه .

وتوحي جملة: ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ بتجبُّر وظلم المطففين ، وأنهم ذوو مكانة وسلطان ورئاسةٍ في قومهم ، والذي يوحي بهذا حرفُ الجر «على»، الذي يدلُّ على الاستعلاء ، فهم يكتالون على الناس ، ويتجبَّرون عليهم ، ويأمرونهم بقبول مكاييلهم وموازينهم ، رغم ما فيها من بخْس لهؤلاء الناس .

إن آية سورةِ الإسراء تأمرُ بالتوفيةِ في الكيل والوزن،وتنهى عن التطفيف فيه.

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾: عليكم عندما تكيلونَ أن تُوفوا الكيل ، وأن لا تنقصوه إذا كان عليكم ، وأنْ لا تزيدوه إذا كان لكم .

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾: عندما تزنون بالميزان ، فعليكم أن تكونوا عادلين في الوزن ، فلا تأخذوا أكثرَ من حقكم ، ولا تُعطوا غيركم عندما تبيعونهم أقلَّ من حقهم .

---

(١) مقاييس اللغة: ٤٠٥/٣ .

القِسط هو العدل، والمقسط هوالعادل، وإنّ اللهَ يحبُّ المقسطين العادلين.

و« القِسْطاس »: هو الميزان ، وسُمي قِسطاساً مبالغةً في وجوب تحقُّق القسط والعدل فيه ، عندما يوزَنُ به .

وقد وُصفَ القسطاسُ في الآيةِ بالاستقامة: ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ والاستقامة ضروريةٌ له ليتحققَ العدلُ فيه ، ويبدو الإنصافُ والإيفاءُ منه.

إنَّ ميزانَ المؤمن الصادق قائمٌ بالقسط، فهو قسطاسٌ مستقيم، بينما ميزانُ المطفِّف أعوج، فهو ميزانٌ خادع، يَزن بالخسران والإنقاص والبخس.

وقد قارنَ شعيبٌ عليه السلام بين الميزانَيْن وصاحبيْهما ، عندما نهى قومَ مدين عن البخس وأمرهم بالقسط ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أوفوا الكيل، ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾[1] . .

معنى التأويل في السورة:

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

بعدما أمرت الآية المسلمين بإيفاءِ الكيل وإتمام الوزن ، عقَّبتْ على هذا، بأنه خيرٌ ، وأحسنُ تأويلاً .

« ذلك » في الجملة اسمُ إشارة ، والمشارُ إليه هو المذكورُ في بداية الآية. والتقدير: إيفاؤكم الكيلَ والوزن هو خير .

و « خير » في الجملة أفعلُ تفضيل ، لكنَّ التفضيلَ هنا ليس على ظاهره ، أي: ليس هنا مفضولٌ وفاضل .

---

(١) سورة الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣ .

إذا كان التفضيلُ على ظاهره ، فكيف يكون المعنى ؟ هل يُعتبرُ إيفاءُ الكيل والوزن أفضلَ من تركه وتطفيفِ الكيال والميزان ؟ كلا .

إنّ الإيفاءَ ليس أفضلَ من الإنقاص والتطفيف! لإنه لا مجال للمقارنةِ أو المفاضلة بينهما. فالإيفاءُ واجبٌ والتطفيفُ حرام ، ولا مفاضلة بين الواجب والحرام . هل نقول: إنَّ الزواجَ أفضلُ من الزنا ؟ وإنّ الصلاة أفضلُ من تركها؟ لو فعلْنا ذلك لظلمنا الزواجَ والصلاة ، عند مقارنتهما بأضدادهما .

ألـــمْ ترَ أنَّ السيفَ يَنقُصُ قــدْرُهُ إذا قيلَ: هذا السَّيفُ أمْضى منَ العـصا

التـفـضــيلُ هنا «ذلك خيـر» ليس على ظاهره،ولا تفـاضُلَ بين الإيفاءِ والتطفيف، وإنما تفضيلُ الإيفاء في ذاته ، لأنَّ المقصودَ الثناءُ على الإيفاء في نفسه ، وبيانُ قيمته ، وحثُّ المسلمين عليه . أي: الإيفاءُ فاضلٌ وخيِّرٌ وطيِّب ونافعٌ وجيد .

﴿ وأحسن تأويلاً ﴾: هذه الجملة معطوفةٌ على ماقبلها ، سيقتْ للدعوة إلى إيفاءِ المكيالِ والميزان ، والثناء عليه ، والترغيبِ فيه .

إنّ ايفاءَ المكيال والميزان خيرٌ في ذاته ، وهو أحسنُ تأويلاً .

فما معنى التأويل هنا؟ وهل يخرجُ عن معناه في الآياتِ السابقة التي حللناها؟ .

معنى ﴿ أحسن تأويلاً ﴾: إيفاءُ المكيال والميزان أحسنُ رداً ، وأحسنُ عاقبة، وأحسنُ مآلاً ، وأحسن نهايةً ، وأحسن إرجاعاً ، وهذا هو معنى التأويل الذي استعمله القرآن: « هو ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً » .

لماذا إيفاءُ المكيال والميزان أحسنُ مآلاً وعاقبةً ورداً ونهاية ؟

تريدُ الآيةُ ترغيبَ المسلمين في إيفاءِ المكيال والميزان ، وتحسينَه في عيونهم ، مع ترهيبهم من نقيضه ، وتنفيرهم من التطفيف .

التطفيف أسوأ تأويلاً :

إنَّ بعض المسلمين قد ينظرُ للموضوع نظرةً تجارية مادية متعجلة ، وتحرِّكه الرغبةُ في زيادةِ المال وتحقيق المكاسب ، فتعميه هذه الرغبة عن مشاهدة آخر الطريق ، وملاحظة نهايتها .

ولذلك يظنُّ أنَّ تطفيفَ المكيال والميزان خيرٌ له، وأحسنُ من الإيفاء ! ولماذا لا يكون خيراً وأحسنَ عنده ؟ ألا ينتجُ عنه زيادة الكسبِ والمنفعة؟ ومضاعفة الربح ؟ ألا يزداد ماله دراهمَ أو دنانير؟ ألا يزدادُ وزنُ سلعته غرامات أو كيلوات؟ أليس هذا خيراً له وأحسن ؟

أمَّا عندما يوفي المكيالَ والميزانَ فإنه يفقدُ هذه المكاسبَ المادية ، ويخسرُ هذه الأرباحَ الطائلة ! تنقصُ أمواله ، ويقلُّ دخله ، وهل هناك تاجرٌ ذو حسٍّ تجاري ، ورغبةٍ في الربح ، يرضى أن يفقدَ هذه المكاسب ، ويتركَ استغلال هذه الفرص ؟ مع أنَّ التجارة « شطارة » !!

تُرَدُّ الآية على هذه التبريرات النفسية ، فتقول للتاجر: ليسَ الأمرُ كما حدثتْك نفسُك الطامعة في الربح والكسب ، ولو على حساب الآخرين . إنَّ تطفيفك للمكيال والميزان ، وحصولك على كسبٍ أكثر ، وربح أعلى ، ليس خيراً لك في النهاية . هو خير لك الآن ، لكن ما هي عاقبتُه عليك؟ ماهي نهايتُه ؟ أي: ما هو تأويله ؟ وما هي صورتُه الفعلية الواقعية التي ينتهي إليها ، ويستقرُّ عليها ؟

إنَّ اللهَ لن يبارك له تجارته التي تقومُ على تطفيفِ المكيال والميزان. وإن اللهَ لن يوفقه في حياتِه طالما أنه جنى كسباً حراماً ، وأضافَ إلى رصيده مالاً حراماً.

ماذا سيحصلُ له عندما يطفِّفُ المكيالَ والميزان ؟ سيقذفُ الله كراهيتَه في قلوب « الزبائن » لتلاعُبه في الميزان ، وظلمِه لهم ، ونهبِه لأموالهم ، وبهذا سينصرفون عنه ، وستقلُّ صفقاته التجارية ، أي ستقلُّ أرباحُه ،

رستُصابُ أمواله وتجارته بالركود . هذا هو « تأويلُ » تطفيفِ المكيالِ والميزان ، وهذه هي عاقبة ونهاية ذلك !

ثم إنَّ اللهَ قد يبتلي هذا التاجر المطفِّفَ بابتلاءاتٍ شديدة، في نفسه وأسرته وممتلكاته ، فيدفعُ أضعافَ أضعافَ ما حصَّله من مالٍ وربح حرام، عن طريق تطفيفِ المكيال والميزان .

كم زاد رصيدُه من التطفيف والتلاعب ؟ مائة دينار؟ أو ألفَ دينار؟ فليكنْ. لكن لينتظرْ « تأويلَ » هذه الزيادة المحرمة ، قد يصيبُه الله بمرض خطير ، هو أو أحد أفرادِ أسرته ، فيدفعُ لعلاجه آلافَ الدنانير . فهل كان تأويلُ التطفيف خيراً أو شراً ؟

وقد يُصابُ بحادثٍ لسيارته ، فتضررُ بذلك كثيراً ، فيدفعُ لإصلاحها مئاتٍ أو آلاف الدنانير! وهذا هو تأويلُ تطفيفِ ميزانه !

وقد تُصيب تجارته آفةٌ أو جائحة ، كأنْ يحترقَ محلُّه التجاري ، أو يسطوَ عليه اللصوص ، فيدفعُ آلافَ الدنانير للإصلاح والتعويض. وهذا هو تأويلُ التطفيف .

هذه الأخطارُ التي تحدقُ به في الدنيا ، أما يومَ القيامة فماذا ينتظرُه هناك من أخطار ؟ وماذا أعدَّ اللهُ له من عذاب؟ مقابل التطفيفِ والتلاعب ، وأكل أموال الآخرين ؟ وهذا هو تأويلُ التطفيف ، وبيانُ عاقبته السيئة ونهايته الأليمة !

أبعد كلِّ هذه الأخطار ، ما زالَ بعضُ التجار يظنُّ أنَّ التطفيفَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً له ؟ لابدَّ أن يمدَّ عينه بعيداً ، ليرى هذه الأخطارَ التي تحدقُ به في الدنيا والآخرة ، ويقفَ على « تأويل » هذا التطفيف ، ويلاحظ صورتَهُ النهائية، وعاقبته المادية .

بعد هذا الردِّ للتطفيف إلى عاقبته ، سيقولُ ذلك التاجر بما تقرره الآية: إنَّ عدمَ إيفاءِ الكيل تطفيف ، وإنَّ عدمَ الوزن بالقسطاس تطفيف ، وهذا التطفيفُ شرٌ ، وهو أسوأ تأويلاً ، وأسوأ عاقبةً ونهايةً ورداً ومآلا !!

إيفاء الكيل والميزان أحسن تأويلاً :

هذا في الجانبِ السلبيِّ القائم على التطفيف ، أما في الجانبِ الإيجابي المشرق، فإنَّ إيفاءَ الكيلِ، والوزنَ بالقسطاس ، هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً، وأحسنُ عاقبة ومآلاً ورداً ونهاية ، في الدنيا وفي الآخرة! فكيف كانَ ذلك؟ وكيف يُحسنُ التاجرُ تأويلَ التزامه بأخلاقيات التجارة؟ وكيف يلاحظُ عاقبة ومآل ذلك ؟ .

إنَّ اللهَ سيبـاركُ له في تجارته ، ويوفِّقُه في حياته ، ويرزقُه الهناء والسعادة ، والرضى بالقضاء ، والقبولَ عند الناس .

إيفاءُ الكيل والوزن أحسنُ تأويلاً ورداً في الدنيا:

سيحبُّه « الزبائن » ، ويحرصون على التعامل معه ، والشراءِ منه ، وبهذا تزدادُ مبيعاتُه ، وتكثُر صفقاتُه ، وبذلك تزدادُ أرباحه ، وعندها يدركُ أنَّ هذه الخيراتِ كلها تأويلٌ وعاقبةٌ لالتزامه .

وسيباركُ الله في حياته ، وسيعافيه هو وأسرتُه من الأمراض والابتلاءات، وبذلك سيوفِّرُ الكثيرَ من الأموال ، التي كان سينفقُها على مواجهةِ الأمراض وتكاليف العلاج ، وهذا تأويلٌ لالتزامه .

وسيحفظ اللهُ له تجارته ،. ويحميها من الآفاتِ والكوارث ، وهذا تأويلٌ لالتزامه .

هذا في الدنيا ، وفي الآخرةِ فإنَّ اللهَ يعدُّ له حُسْنَ الجزاء والثواب ، ويمتّعه في جناتِ النعيم، ويَمُنُّ عليه بالرضى والرضوان ، وهذا تأويلٌ لالتزامه.

إن هذا التاجرَ الصادقَ لم يكنْ ضيق الأفق ، قصيرَ النظر ، كذلك التاجر المطفف ، وإنما امتدَّ ببصره للمستقبل ، ورأى عاقبة ومآلَ الالتزام بتوجيهات الإسلام ، فاستعلى على وساوسِ النفس لتطفيفِ المكيال

والميـزان، وسـعى لإيفـاءِ الكيل ، وإتمام الوزن ، راغبـاً في حُسن تأويل ذلك، حريصاً على نيل عاقبته السـعيدة ، ومآله المطلوب ، ونهايته المرضية، في الدنيا والآخرة !!

هذا هو معنى التـأويل ، لمن يوفي المكيـالَ والميـزان ، وهذه هي عـاقبـة ونهاية ذلك التصرفِ الجميل .

إنَّ التأويلَ في سـورةِ الإسراء تأويلٌ للمكيـال والميزان ، تأويلٌ ناتجٌ عن حسن التـزام توجيهات القـرآن ، المتعلقة بالكيل والوزن ، تأويلٌ يُلحظُ فيـه عاقبة ونهاية هذا الأمر ، والرغبة في مآله وغايته .

وهذا هو المعنى المتفقُ مع ورودِ التأويل في باقي السـور .

المطلب السادس

مع التأويل في سورة النساء

وردَ التأويلُ مرةً واحدةً في سورة النساء ، وذلك في سياق الأمر بالحكم بشرع الله ، وطاعةِ أولي الأمر من المسلمين ، وذمِّ المنافقين الذين يرفضون الاحتكامَ إلى شرع الله ، ويريدون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت .

قال تعالى: ﴿ إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمّا يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً ، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ﴾[1] .

المعنى الإجمالي للآيات:

يامرُ اللهُ المسلمين أنْ يؤدّوا الأمانات ـ على إطلاقها وعمومها ـ إلى أهلها، وأنْ يحكموا بين الناس ـ كلِّ الناس ـ بالعدل والقسط ، وأن لا يَظلموا ولا يجوروا في أحكامهم ، وهذه الأوامرُ من الله ، فهي أوامرُ ممدوحة طيبة خيِّرة نافعة ، والله سميعٌ لما يقولون وما ينطقون به من أحكام عندما يُصدرونها ، وهو بصيرٌ بهم يراهم وهم يتحركون ويتنقَّلون ، لأداءِ الأمانات أو إصدارِ الأحكام ، فلا بدَّ أن يستحضروا رقابة الله عليهم ،

(١) سورة النساء: ٥٨ ـ ٦٠ .

وسمْعَه لكلامهم ، وبصَرَه بهم ، ليحرصوا على تنفيذِ هذه الأوامر .

وقد يختلفُ المسلمون فيما بينهم في تحديدِ الأمانات التي تؤدّى ، وفي تحديدِ العدل عند إصدارِ الحكم ، فلا بدَّ من أصل يرجعون إليه ، ومن ميزان يَزنون فيه ، ومن حكم يحتكمون إليه ، وذلك ليردّوا إليه المتنازع فيه، طلباً للحق ، وإنهاءً للخلاف ، وابتغاءً للصواب !

فما هو هذا الميزانُ والحكمُ والأصل ؟ تحدّدُه الآية الثانية بأنه « شرع الله» المتمثلُ في كتابه الكريم وسنة رسوله العظيم ﷺ ، ولذلك تأمر الآية المسلمين بطاعةِ الله وطاعة رسوله وأولي الأمر: ﴿ يا أيها الذين آمنوا: أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم ﴾ .

ونرى أنّ الآية كررتْ فعل « أطيعوا » مرةً ثانية عند الأمر بطاعة الرسول، وذلك للتأكيد على أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعة الله ، ولأن هديه وسنّته وسيرته مصدرٌ ثانٍ من مصادر التشريع الاسلامي ، بعد القرآن الكريم .

نرى أن كلَّ فعل يُشير إلى مصدر مستقلٍّ من مصادر التشريع:

﴿ أطيعوا الله ﴾: الإشارة إلى القرآن ، المصدرِ الأول للتشريع .

﴿ وأطيعوا الرسول ﴾: الإشارة إلى السنة ، المصدرِ الثاني من مصادر التشريع الإسلامي .

وطاعة الله مطلقة ، وطاعة الرسول أيضاً عليه الصلاة والسلام مطلقة ، لأنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام لا يأمر بمعصية .

أما طاعة أولي الأمر من المسلمين فهي مقيدةٌ بقيدَيْن:

الأول: أنْ لا يأمروا بمعصية ، فتطيعُهم الرعية عندما يأمرون بالطاعةِ والخير والبر ، لكنها لا تطيعهم عندما يأمرون بالمعصية ، ولهذا أسقط فعلَ

« أطيعوا » من الجملة الثالثة ، وعُطفتْ على « الرسول »: ﴿ أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم ﴾ .

الثاني: أنْ يكونوا من المسلمين ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ ، وليس معنى هذا أن يكونوا من المسلمين بمجردِ الانتساب ، بل أنْ يكونوا من المسلمين قولاً وفعلاً وسلوكاً وتصرفاً ، وبما أنهم اولو الأمر، واصحابُ الحكم ، فيجبُ ان ينفِّذوا شرعَ الله ، ويطبِّقوا حكمَ الله ، ولا يجوز أنْ يقرّوا تشريعاً أو قانوناً أو نظاماً يتعارضُ مع حكم الله ، فإنْ فعلوا ذلك واحتكموا إلى غير شرع الله لم يعودوا من المسلمين الصادقين ، وبذلك فقدوا حقهم على الرعية في الطاعة .

الرد إلى الله ورسوله:

وبعدما تعرِّفُ الآياتُ المسلمين حكاماً ومحكومين على الميزانِ والحكَم والأصل، وهو حكمُ الله ورسوله ، تدلُّهم على طريقةِ حلِّ نزاعاتهم الاجتهادية، وحلِّ خلافاتهم الاجتهادية ، وذلك بأنْ يردُّوا المتنازعَ فيه من الأمور والمسائل والقضايا إلى حكْم الله ورسوله .

وذلك حيث تقول: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وفي هذا دليلٌ على جوازِ التنازع والاختلاف في المسائل الاجتهادية ، وجوازِ تعدُّدِ الآراء ، وتبايُنِ وجهاتِ النظر ، في المسالة الواحدة ، طالما أنه ليس فيها نصٌ شرعي ، وطالما أنَّ هدفَ المختلفين المتنازعين المجتهدين مصلحة الأمة ، وتحرّي الصواب !

يجوزُ التنازعُ « الأخويُّ » الاجتهادي بين الرعية فيما بينها ، ويجبُ على الأفراد المتنازعين ردُّ الأمر المختلف فيه الى الله ورسوله .

ويجوزُ التنازعُ « الأخويُّ » الاجتهادي بين الرعية وحكامها ، ويجوزُ أنْ يقفَ شخصٌ من أفراد الأمة أمام الحاكم ، ليقول له ـ بادب واجتهاد ـ:

٧. ويجبُ ردُّ المختلفِ فيه بين الرعية والحاكم إلى اللهِ ورسوله .

لا يجـوزُ لوليِّ أمـر المسلمين أنْ يمنعَ الآراءَ المخـالـفـة لرأيه ، ولا أنْ يُصادرَها ، ولا أنْ يُؤذيَ أصحـابهـا ، ولا أنْ يحـرصَ على جـعل الناس كلِّهم ظِلاًّ له ، تابعين لرأيه ، بل يجبُ عليه أن يسمح بتـعدُّدِ الاجتهاد ، وتعـدُّدِ الآراء ووجـهات الـنظر ، ووجودِ أفـرادٍ في الأمـة مـخـالفين له في اجتهاده .

في هذه الحـالة يجبُ على المخـتلفين المتنازعين المجـتـهـديـن من الحكام والمحكومين أنْ يبحثوا عن حلٍّ نهائيٍّ للمسـائل الخلافية ، وأنْ يحتكموا إلى « حكم » يُنهي النزاع ، وأنْ يَردّوا إليه الأمر ، وأنْ يلتزموا بحكمه .

هذا الحكم ، هو الأصلُ والميزان ، إنه شـرعُ الله ، المتمـثل في القـرآنِ الكريم وحديثِ رسول الله ﷺ: « فـإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وتُرَغِّبُ الآيةُ المسلمين حكاماً ومحكومين بالردِّ إلى الله ورسـوله ، وتبيِّنُ عاقبتَه الجيدة فيهم ، فتقول: ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

و « ذلك » اسمُ إشارة ، و المشارُ إليه هو المذكورُ في الجملة السابقة ، وهو ردُّ المتنازع فيـه إلى كتابِ الله وسنة رسـوله ، فهذا الردُّ والاحتكامُ فـيه إلى الأصل خيرٌ وبركة !

وأفعلُ التفـضيل في « خير » ليسَ على ظاهره . أي لايـوجدُ في المسألة فاضلٌ وأفضلُ منه . فـالردُّ إلى كتابِ الله وسنة رسوله ليس خيراً من عدم الردِّ إليها ، وليـس أفضلَ من تركِ الردِّ إليهـا ! فإنَّ عـدمَ الردِّ إليها شـرٌّ خالص ، وباطلٌ محض ، ليس فيه ذرةُ خير أو نفع !

إنما يرادُ بيانُ فضل الردِّ في ذاته ، دون التفاتٍ إلى تفضيله على غيره ، إنَّ ردَّ الأمـر المتنازع فيـه إلى الله ورسوله أحسنُ عاقبـةً ورداً ، وأحسنُ مرجعاً ومآلاً، وأحسنُ نهاية وحكماً ، وأحسنُ علاجاً وحلا .

ولا يوجَدُ مسلمٌ صالح حاكماً او محكوماً يرفضُ الاحتكام َ إلى الله ورسوله، ويأبى ردَّ المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، بما أن هذا الاحتكام والردَّ هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ومرجعاً وقضاءً .

لكنَّ المنافق او ضعيفَ الإيمان ، يرفضُ هذا الاحتكام والرد ، ويأبى الخضوعَ لحكم الله ورسوله ، ويسعى إلى حكم الطواغيت ، ويقبلُ بحكم البشر المناقض لحكم الله ورسوله ، ويكون بذلك قد فقدَ إيمانه ، وأغضبَ ربَّه ، وعصى نبيَّه، وأطاعَ شيطانه .

ولهذا تتعجبُ الآية التالية من موقف المنافقين ، الراغبين في الاحتكام إلى الطاغوت ، الرافضين لحكم الله ورسوله: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

شتَّان بينَ رَدٍّ وردّ ، وبين تأويل وتأويل ، شتَّانَ بين ردِّ المؤمنين المتنازَع فيه إلى الله ورسوله ، الذي هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ، وبينَ ردِّ المنافقين المتنازع فيه إلى الطاغوت ، الذي هو شرٌّ وأسوأ تأويلاً !!

معنى التأويل في الآية:

التأويلُ هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه ، علماً أو فعلاً .

وتقدمُ الآية لنا الميزانَ الذي نزنُ به ، والمرجعَ الذي نرجعُ إليه ، والأصلَ الذي نرُدُّ إليه الأمورَ المختلف فيها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسنُ تأويلاً ﴾ .

هناك أمورٌ متنازعٌ فيها بين المسلمين ، ليس فيها نصٌّ صريحٌ يزيلُ التنازع

ويحلُّ الإشكال . فكيف يزال التنازع ؟ وما المرجعُ الذي يَرجعون إليه ؟وما الأصلُ الذي يتحاكمون إليه ؟

ما هو تأويل ذلك الأمر المتنازَع فيه ؟ بمعنى: ما هي حقيقة ذلك الأمر؟ وما هو الراجحُ فيه من الأقوال والآراء المقدمة ؟ أيُّ رأي منها يوافقُ الحقَّ والصواب؟ ومَن الذي يقررُ ذلك ؟ ومَن هو المؤهَّلُ للحكم فيه ؟ ومَنْ هو الصالحُ للردّ إليه ؟ ومَنْ هو الذي يؤوِّلُ الموضوع ، ويقدِّمُ حقيقته الراجحة الصحيحة ؟

إنه رسولُ الله ﷺ في حياته ، وكتابُ الله وسنة رسوله ﷺ بعد قبضه ، وهذا ما صرَّحت به الآية: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ .

﴿ فردّوه إلى الله والرسول ﴾: ردّوا الأمرَ المتنازع فيه إلى اللهِ والرسول، أي ردّوه إلى كتابِ الله وسنةِ الرسول عليه الصلاة والسلام .

أي: أوِّلوا المتنازعَ فيه ، وابْحثوا عن حلٍّ نهائي له ، واذهَبوا إلى مَنْ يُؤوِّله، ويريكم حقيقتَه ومآله ، ومرجعَه ونهايتَه ، رُدّوه إليه ليُؤوّله لكم!

وإذا كان التأويلُ هو ردُّ الشيء إلى غايته ، عرَفْنا حكمة الأمر بالردِّ في الآية: ﴿ فردوه إلى الله والرسول ﴾: قدِّموه إلى الميزانِ الصحيح ، المتمثل في كتاب الله وسنة الرسول ، ليتمَّ تأويله ، وتُعرفَ حقيقتُه .

﴿ ذلك خير ﴾: ردُّ المتنازع فيه إلى الميزانِ والمرجع والأساس والأصل، إلى كتابِ الله وسنة رسوله ، خيرٌ وبركةٌ وصواب .

﴿ وأحسن تأويلاً ﴾: أحسنُ ردّاً ، وعاقبةً ومآلاً ، ونهايةً ومرجعاً وحلاً، وحكماً وبياناً .

سبب نزول الآية:

أوردَ الإمـامُ ابنُ كثـير في تفسـيره بعضَ الرواياتِ في سـببِ نزول هذه الآية، منها:

١ ـ ما أخرجه البخاريُّ عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: نزَلَ قوله تعالى: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ في عبدِ الله بن حذافة السَّهْمي، إذ بعثَهُ رسولُ الله ﷺ في سريّة.

٢ ـ وما أخرجـه البخاري ومسلم وأحـمد عن عليٍّ بن أبي طالـب رضي الله عنه قـال: بعثَ رسـولُ الله ﷺ سـريّة، واستـعـمل عليهم رجـلاً من الأنصار، فلمـا خرجوا، وَجَدَ عليهم في شيء (أي: غـضب منهم بسبب خلافٍ بينهم وبينه، فأرادَ أنْ يعـاقبهم) فقال لهم: أليس قـد أمركم رسولُ الله ﷺ أنْ تطيعوني؟

قالوا: بلى.

قال: فاجمَعوا لي حطباً.

ثم دعا بنار فأضرَمَها فيه.

ثم قال لهم: عزَمْتُ عليكم لتَدْخُلُنَّها!

فـقال لهم شـابٌّ منهم: إنما فـررتُم إلى رسول الله ﷺ من النار، فـلا تعْجَلوا حتى تلقوا رسولَ الله ﷺ، فإنْ أمركم أنْ تدْخُلوها فادخلوها.

فرجعوا إلى رسولِ الله ﷺ، فاخْبـروه، فقال لهم: (لو دخلتموها ما خرجتُم منها أبداً!! إنما الطاعة في المعروف) [1].

تدلُّ هذه الحـادثة على مـعنى الردِّ والتـأويل وحـدودِ الطاعـة في الآية، الآية تأمـرُ بطاعةِ الله ورسـوله ووليِّ الأمر، لكنَّ طاعـة وليِّ الأمر مـقيـدةٌ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٥٦٦/٢ ـ ٥٦٧.

بتنفيذِ الأوامر الشرعية .

فهذا الأنصاريُّ أميرُ السرية قد غضبَ من أصحابه ، وتنازعَ معهم وتنازعوا معه في شيء ، فأخذته صفاته البشرية من الضعفِ واستغلالِ المنصب وحبِّ الانتقام ، وهي أخطاءٌ بشرية تعتري البشرَ ولو كانوا صالحين، فأمرهم بإلقاءِ أنفسهم في النار تنفيذاً لأمره .

فهل ينفّذون الأمر ، ويُلقون أنفسَهم فيها ؟ بعضُهم همَّ بذلك من بابِ الطاعة والالتزام !!

ولكنَّ ذلك الشابَّ الذكيَّ منهم أعادَ الأمرَ إلى الميزان ، وردَّ المسألة إلى الأصل: كيف تلقون أنفسكم فيها ، وأنتم أسلمتم واتبعتُم الرسول ﷺ ليُنجيكم اللهُ منها؟ لا تفعلوا ! وعندما نرجعُ للرسول عليه الصلاة والسلام نعرفُ حُكْمَه في المسألة ، وتنفّذه ، فإنْ أمَرنا بذلك فعَلنا !!

إنَّ هذا التفكيرَ المنهجيَّ العلميَّ من هذا الشابِّ الصحابيِّ هو بحثٌ عن تأويل أمر الأمير الغاضب ، وسعيٌ لمعرفةِ حقيقةِ الأمر ، والوقوفِ على مآله وعاقبته ونهايته .

ولذلك طالبَ بردِّ الموضوع إلى الأصل ، والاحتكام إلى المرجع والحكَم، وهو رسولُ الله ﷺ ، وهذا هو معنى التأويل في الأسلوب القرآني .

لقد أوَّلَ لهم رسولُ الله ﷺ الأمرَ المتنازعَ فيه والمختلفَ عليه مع الأمير الغاضب ، وأصدرَ حُكمَه فيه ، وذلك عندما قال لهم: لو دخلتُموها ما خرجتم منها أبداً .

فلو نفذ جنودُ السرية أمرَ الأمير الغاضب ، ألقوا أنفسهم في النار من بابِ طاعة وليِّ الأمر ، لكن فعلهم أعظم شراً ، وأسوأ تأويلاً وتنفيذاً ورداً وتطبيقاً وعاقبة ، حيثُ يدخلهم الله نارَ جهنم ، ولا يخرجُهم منها !

ولكنَّهم أحسَنوا عندما أحالوا الأمرَ المختلفَ فيه على رسول الله ﷺ ،

فبيَّنَ لهم الصوابَ والحقيقة ، وهذا تأويلٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام للأمر المتنازَع فيه ، وفِعْلهم هذا هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً وعاقبة ومآلاً وغاية.

ثم أرسى رسولُ الله ﷺ القاعدة الدائمة للمسلمين من بعده حتى قيام الساعة ، وقدَّمَ لهم الأساسَ والميزان في صلةِ المحكومين بالحكام والرعيةِ بالراعي .

هذا الأساسُ والميزانُ في قوله تعقيباً على الحادثة: (إنما الطاعة في المعروف).

طاعة وليِّ الأمر المسلم الصالح واجبة ، وتنفيذ أوامر الحاكم المسلم الصالح واجب ، لكنْ على شرط أنْ يأمرَ بالواجبِ والمعروف ، أما إذا أمرَ الحاكمُ بمعصيةٍ ومنكر وحرام ، فعندها تُلغى طاعتُه ، ويحرم تنفيذ أمره، ولا سمعَ له ولا طاعة ، لأنَّ الطاعة في المعروفِ الحلال .

فهذه الجملة المحدَّدَة من رسول الله ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » هي الميزانُ والأصلُ ، والقاعدةُ والأساس ، يَرجعُ إليها المسلمون في حلِّ خلافاتِهم مع حكامهم ومسؤوليهم وولاةِ أمورهم، يَنظرون إلى أوامر مسؤوليهم من خلالِها، ويتعاملون مع حكامهم على أساسها ، فينفِّذون من تلك الأوامر ما اتَّفق معها ، ويَرفضونَ تنفيذ ما تعارضَ معها!!

وإعادة المسلمين لأوامر وتعليماتِ مسؤوليهم وحكامِهم إلى هذه القاعدةِ النبوية، هو ردٌّ إليها ، وحملٌ عليها ، أو: هو تأويلٌ لتلك الأوامر على أساس هذه القاعدة .

وهذا تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا﴾!!

المطلب السابع
مع التأويل في سورة آل عمران

وردَ التأويل مرتَيْن في سورة آل عمران ، والمرتان ذكرتا في آيةٍ واحدة، وهذه الآية في سياق آيات أخرى، تتحدثُ عن المحكم والمتشابهِ في القرآن، وموقفِ فريقَيْن من المتشابه ، فريق الذين في قلوبهم زيغ ، الراغبين في الفتنة ، وفي تأويل المتشابه ، وفريق الراسخين في العلم المعترفين بعجزهم عن تأويل المتشابه، حيث يُسندون العلمَ بتاويل المتشابهِ إلى الله وحده .

قال تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد ﴾[1] .

المعنى الإجمالي للآيات:

ما منْ مفسِّرٍ للقرآن إلا وقد وقفَ أمامَ هذه الآيات وقفةً مطوَّلة ، واستطردَ في الكلام عن ما تشيرُ له الآيات ، وتوسَّع في الكلام عن المحكم والمتشابه في القرآن، وعن تأويل المتشابه وكيفيته وإمكانيته وضوابطه.

واختلفت الأفهامُ كثيراً في هذه الموضوعات ، وتعددت الآراء ، وتباينتْ وجهاتُ النظر ، وكلُّ رأي يدَّعي صاحبُه اعتمادَه فيه على هذه الآيات .

ولا يعنينا استعراضُ هذه الآراءِ المتعارضة ، وحجج أصحابها ، إنما نريدُ

---

(١) سورة آل عمران: ٧ ـ ٩ .

ان ننظرَ في معنى التأويل المذكور فيها ، ونربطه مع معنى التأويل الوارد في السور الأخرى الذي عرضْناه من قبل!

يُقررُ اللهُ حقيقةَ إنزالِ القرآن على محمد ﷺ: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ . وفي هذه الجملةِ إثباتُ أن القرآنَ كلامُ الله ، وأن محمداً رسولُ الله ﷺ ، تلقى القرآن من عند الله عن طريق الوحي .

وتقسم الآيةُ آياتِ القرآن إلى قسمين: ﴿ منه آيات محكمات ـ هن أم الكتاب ـ وأخر متشابهات ﴾ .

« منه »: من: حرف جر ، تدلُّ على معنى التبعيض ، وتفيد التقسيم. والضمير « الهاء » فيها، يعودُ على القرآن. أي من القرآن آياتٌ محكمات، ومنه آياتٌ متشابهات .

﴿ آيات محكمات ﴾: من « الإحكام » وهي اسمُ مفعول .

﴿ هن أم الكتاب ﴾: هذه جملةٌ معترضة ، جيء بها لوصف الآياتِ المحكمات من القرآن بأنهن أمُّ الكتاب، ولتقرير حقيقةٍ في فهم الآيات والمتشابهات .

وأساسُ معنى « الأمّ » هو: الأصلُ والمرجع ، فأمُّ الطفل هي أصله ، ومرجعُه الذي يرجعُ إليه ، وأمُّ الجيش رايته التي يرجعُ الجنود إليها ، وأمُّ الرأس الدماغ ، الذي يسيطر على الجسم ويحركه .

وأمُّ القرآن هي الفاتحة ، التي هي أساسُ وأصلُ القرآن ، وكلُّ معاني القرآن ترجعُ إليها ، وتنبثقُ منها .

ووصفت الآيةُ الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب: ﴿ هن أم الكتاب ﴾ بالمفرد ، ولم تقل: هُنّ أمهات الكتاب بالجمع . لأن الآياتِ المحكمات كلها أمُّ الكتاب ، فيُنظرُ إليهن بمجموعهن على أنهن أمّ، ولا يُنظرُ لكل آيةٍ على حدة .

﴿ وأخر متشابهات ﴾: هذا هو القسم الثاني من آيات القرآن، وهوالآيات

المتشابهات، و « متشابهات » اسمُ فاعل من التشابُه ، وهو التماثل .

وبعدما ذكرت الآية هذين القسمَيْن من آياتِ القران ، ذكرتْ اختلافَ نظرةِ الناس إلى الآيات المتشابهات . فمنهم مَن يتبعها بهدفِ الفتنةِ والرغبةِ في تأويلها، وهؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغ، ومنهم مَن لا يعلم تأويلها، ويَكِلُ علمَ تأويلها إلى الله ، ويُسلِّم بعجزه هو ، وهم الراسخون في العلم، الذين يؤمنون بأنَّ المحكماتِ والمتشابهات آياتُ القرآن من عند الله .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ﴾: هؤلاء متبعو المتشابه من القرآن ، وهم المفتونون ، الذين في قلوبهم زيغٌ وانحراف ، وميلٌ عن الحق ، واتباعٌ للباطل .

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: اسم الموصول « ما » في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. والضمير في « منه » يعودُ إلى القرآن . أي: هؤلاء الزائغون يتبعون المتشابهَ من آياتِ القرآن .

﴿ ابتغاء الفتنة ﴾: تبينُ هذه الجملة هدفَ هؤلاء الزائغين من اتِّباع المتشابه، وهو طلبُ الفتنة .

و « ابتغاء » في الجملة: مصدرٌ منصوب لأنه مفعولٌ لأجله . فهم يتبعون المتشابهَ لأَجل الفتنة .

والفتنة هي التمويهُ والتلبيس والابتعاد عن الحق . فهم في أنفسهم مفتونون ، لأنهم وقعوا في الشبهات ، والتبست عليهم الأمور ، وساروا مع الباطل والهوى والشيطان .

ثم هم يريدون أن يفتنوا الآخرين ليكونوا مثلهم ضالين ، يُريدون أنْ يوقعوهم في الشبهات، وأن يُموِّهوا عليهم الحقائق ، وأنْ يُعموهم عن رؤيةِ الحق ، وأنْ يُلبِّسوا عليهم الأمور .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾: هذا هو هدفُ الزائغين من اتباع المتشابه ، وهو

أنهم يريدون تأويله ، ويحرصون عليه .

والهـاء في « تأويـله » لا تعـودُ على القـرآن كله ، وإنما تعـود على المتشابه منه، هذا المتشابهُ المذكورُ في جملة « فيتبعون ماتشابه منه » وهو اسمُ الموصول وصلته في الجملة .

والمعنى يتَّبعون المتشابهَ من القرآن بهدفِ تأويل ذلكَ المتشابه .

وبعدَ أنْ بينت الآية هدفَ الزائغين ، وهو نشرُ الفتنة من خلال تأويلهم للمتشابه ، بينتْ أن تأويل المتشابه مقصورٌ على الله ، فقالت: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

والجملة حصرتْ تأويل المتشـابه ، وقصرته على الله ، بأداتي الحصْر والقصر: ﴿ ما ﴾ و ﴿ إلا ﴾ .

والهاء في ﴿ تأويله ﴾ تعودُ على المتشابه ، كما عادت عليه الهاءُ الأولى في ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ .

ومعنى الحصر والقصر في الجملة ، أنه لا يعلم أحدٌ من البشر تأويلَ المتشابه، لأنه لا يعلمُ تأويله إلا الله .

وبعدما ذكرت الآيةُ الفريقَ الأول الراغبَ في تأويل المتشابه ، طلبا للفتنة، وذمَّتهم بسبب ذلك ، بينتْ موقف الفريق الآخر ، الذين لا يخوضون في تأويل المتشابه ، والذين يكِلون علمَ تأويله إلى الله ، ومدحَتْهم ، ووصفتْهم بصفةِ الرسوخ في العلم ، فقالت: ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

الراجح في سياق الجملة أنَّ الواوَ في ﴿ والراسخون ﴾ حرفُ استئناف، والجملة ليستْ معطوفة. أي ﴿الراسخون﴾ ليس معطوفاً على لفظِ الجلالة ﴿الله﴾.

وليس وضعُ الجملة هكذا: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ .

الراجحُ أنَّ الوقفَ لازمٌ على لفظ الجلالة. ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله﴾.

وما بعدها جملة استئنافية تقرِّرُ معنى جديداً ، وهو موقفُ الراسخين في العلم من تأويل المتشابه . وهي جملة خبرية . ﴿ الراسخون ﴾ مبتدأ . والجملة الفعلية ﴿ يقولون آمنا به ﴾ في محل رفع خبر . أي: الراسخون في العلم قائلون آمنا به كلٌّ من عند ربنا .

وبينما ذمَّت الآية الزائغين لرغبتهم في تأويل المتشابه، فقد مدحت الراسخين في العلم لعدم خوضهم في تأويل المتشابه، واعترافِهم بالعجز عن تأويله ، وقصرهم تأويله على الله ، وإعلانهم الإيمان بالقرآن كله وأنَّ قسميْه من المحكم والمتشابه هما من عند الله: ﴿ يقولون: آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

ووَصفت الآية الراسخين في العلم وصفاً آخر ، مادحةً لهم ، فقالت: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ . فهم أولو اللب ، وأصحابُ عقولٍ كبيرة، ولذلك عرفوا حَدَّهم في التعامل مع الآيات المتشابهات ، فلم يجاوزوه ، وعرفوا عجزهم عن تأويلِها ، فآمنوا بها أنها من عند الله .

ثم عرضت الآيتان التاليتان دعاءً يدعو به الراسخون في العلم أولو الألباب ، ويَطلبون من الله فيه أنْ يثبتهم على الحق ، وأن لا يزيغَ قلوبهم كما أزاغ قلوبَ متبعي المتشابه: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ﴾ .

وأعلنوا إيمانهم بقدوم يوم القيامة: ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

مناسبة نزول الآيات:

قبلَ أن نتحدثَ عن معنى التأويل المذكور مرتين في هذه الآيات ، واختلافِ العلماء فيه ، وقبل أن نقدمَ بعضَ اللطائف والدلالات من

الآيات، نحبُّ أنْ نتعرفَ على مناسبةِ وسببِ نزول هذه الآيات ، لأن معرفةَ مناسبةِ النزول تعين على فهم صحيح للآية .

روى محمدُ بن إسحاق في السيرة أنَّ مطلعَ سورةِ آل عمرانَ نزلَ في قدوم وفدِ نصارى نجران على رسول الله ﷺ في المدينة ، وجدالِهم معه بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

وقد كان الوفدُ مكوناً من ستين رجلاً ، وكان رؤساؤهم ثلاثة:

العاقبُ واسمه عبدُ المسيح ، وهو أميرُهم .

والسيد ، واسمه الأيهم ، وهو صاحبُ رَحْلِهم ومجتمعهم .

وأبو حارثة بن علقمة ، وهو أسْقُفُهُمْ وحَبْرهم وإمامُهم .

وروى محمدُ بن إسحاق تفاصيل قصتهم مع رسول الله ﷺ ، عن محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم .

قال محمد بن جعفر بن الزبير:

لما قدِمَ وفدُ نصارى نجران على رسول الله ﷺ في المدينة ، دخلوا عليه مسجدَه بعد أنْ صلى العصر ، عليهم ثيابٌ جُبَبٌ وأرديةٌ وبُرود ، وكانوا ذوي هيئةٍ وجمال .

فلما رآهم بعضُ الصحابة قالوا: ما رأينا بعدَهم وفداً مثلهم .

ولما حانت صلاتهم ، قاموا يصلون صلاتهم النصرانية في المسجد النبوي، فقال عليه الصلاة والسلام: دَعوهم يصلون فصلوا نحو المشرق!!

فكلمَ رسولَ الله ﷺ رؤساؤهم الثلاثة العاقب والسيد وأبو حارثة . وقالوا له: إن عيسى هو الله ، وهو ابنُ الله ، والله ثالثُ ثلاثة .

واحتجوّا على أن عيسى هو الله ، بأنه كان يُحيي الموتى ، ويبرئُ الأسقام، ويُخبرُ بالغيوب ، ويَخلقُ من الطين كهيئة الطير ، فينفخُ فيه فيكون طيراً .

واحتجوا على أن عيسى ابنَ الله بأنه لم يكن له أب ، وأنه قد تكلمَ في المهد .

واحتجّوا على أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ، بقوله: فعلنا ، وأمرْنا ، وخلقْنا ، وقضينا ، ولو كان الله واحداً لقال: فعلت ، وقضيت ، وأمرت ، فالثلاثةُ هم: الله ، وعيسى ، ومريم !!!

وقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: إن القرآن قد نزلَ بذلك، وقد قال بذلك، وقد دلتْ آياته على أن عيسى هو الله، وهو ابنُ الله ، وهو ثالثُ ثلاثة .

فردَّ عليهم رسولُ الله ﷺ ، وأبطلَ مزاعمهم ، وأزالَ شبهاتهم .

ثم قال للحبْرين: السيد وأبي الحارثة: أسلِما .

قالا: قد أسلمنا قبلك !

قال لهما: كذبتُما يمنعكما من الاسلام أنكما جعلتُما مع الله ولداً ، وعبدتما الصليب ، وأكلتما الخنزير !

قال محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام:

فأنزلَ اللهُ في قولهم ، واختلافِ أمرهم صدْرَ سورةِ آل عمران ، إلى بضع وثمانين آيةً منها .

﴿ الم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾: افتتحَ اللهُ السورة بتنزيهه عما قالوا ، وبتوحيده سبحانه بالخلق والأمر ، لا شريك له ، وهذا ردٌّ عليهم، بسببِ ما ابتدعوا من الكفر ، وجعلوا معه الأنداد ، وذلك ليُبطلَ شبهاتِهم، ويبينَ ضلالهم .

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾: ليس معه شريكٌ في أمره .

﴿ الحي القيوم ﴾: هو الحيُّ الذي لا يموت ، وقد ماتَ عيسى ، وصُلبَ كما يقول رهبانُ النصارى .

واللهُ هو القيّوم: القائمُ على خلقه ، الذي لا يَغيب ولا يزول ، وقد غابَ عيسى عن الناس، وزالَ عن مكانه الذي كان فيه، وتحول إلى غيره.

﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾: نزّل عليك القرآن بالصدق في المسائل التي اختلفَ النصارى فيها .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾: أنزلَ التوراة على موسى ، والإنجيلَ على عيسى ، كما أنزلَ الكتب على مَنْ كان قبلهما .

﴿ وأنزل الفرقان ﴾: أنزلَ اللهُ القرآن فرقاناً ، فيه الفصْلُ بين الحق والباطل، فيما اختلفَ فيه الأحزاب ، بشأن عيسى وغيره .

﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام﴾: إن اللهَ منتقمٌ ممن كفرَ بآياته، بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها.

﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾: فهو عالم بما يريدُ النصارى ، وما يكيدون ، وما يقولون عن عيسى ، إذ جعلوه إلهاً ورباً ، كفراً منهم بالله .

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾: وكان عيسى ممن صُوِّرَ في الأرحام ، كما صُوِّر كلُّ البشر من بني آدم ، والنصارى لا يُنكرون ذلك ولايَدفعونهَ، فكيف يكونُ عيسى إلهاً، وقد كان مصوَّراً في رحم امه؟

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾: هذا تنزيهٌ لله ، وتوحيدٌ له ، والله عزيزٌ في انتصاره ممن كفر به ، حكيمٌ في حجته ، وعذْرِه إلى عباده .

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾: فيهنَّ حجة الرب وعصمة العباد ، ودفْعُ الخصوم والباطل ، ليس لهنَّ تصريفٌ ولا تحريفٌ عما وُضِعْنَ عليه .

﴿ وأخر متشابهات ﴾:لهنَّ تصريفٌ وتأويل، ابتلى اللهُ فيهنَّ العباد، كما ابتلاهم في الحلالِ والحرام، لا يُصْرفنَ إلى الباطل، ولا يُحرَّفن عن الحق.

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾: الذين في قلوبهم ميلٌ وانحرافٌ عن الهدى.

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: هؤلاء يتّبعون ما تصرَّف منه ، وذلك ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، لتكون لهم حجة ، وعلى ما قالوا شبهة.

﴿ ابتغاء الفتنة ﴾: يتّبعون المتشابهَ طلباً للَّبس .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾: ويتّبعون المتشابه طلباً لتأويله ، على ماركبوا من الضلالة، كاستدلالِهم على التثليث من قوله: خلقنا وقضينا .

﴿ وما يعلم تأويله ﴾: الذي أرادوا به ما أرادوا .

﴿ إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾: فكيفَ يختلفُ القرآن وهو قول واحد من ربٍّ واحد ؟

والراسخون في العلم قد ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل الآياتِ المحكمة ، التي لا تأويلَ لأحد فيها إلا تأويلٌ واحد، وقد اتسقَ بقولهم القرآن، وصدَّق بعضُه بعضاً ، وبذلك نفذتْ به الحجة ، وظهَر به العُذْر ، وزاحَ به الباطل ، ودُمغَ به الكفر .

﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾: وما يتذكَّرُ في مثل ردِّ تأويل المتشابهِ إلى المحكم إلاّ أولو الألباب وأصحابُ العقول الكبيرة [1] .

إنَّ التابعيَّ الجليلَ محمدَ بنَ جعفر بن الزبير بن العوام ـ الذي أوردَ ابنُ اسحاق روايتَه عن قدوم نصارى نجران ـ قد فسَّرَ الآياتِ الأولى من سورة آل عمران ، وفقَ مناسبةِ نزولها في نصارى نجران ، وبيَّنَ لنا كيفَ تولتْ هذه الآياتُ نقضَ مزاعم نصارى نجران ، وإظهارَ الحق بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

ورأيُ محمد بن جعفر في المحكم والمتشابهِ والتأويل وجيهٌ سديد، وفهمُه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢٢٢ ـ ٢٢٦ بتصرف يسير للتوضيح .

لكل واحد من هذه المصطلحات الثلاثة هو الصواب ، وهذا الفهمُ والتفسيرُ الذي قدّمه ابن ُ جعفر هو الذي قالَ به علماءُ أهل السنة من بعده.

لقد كان الامامُ محمدُ بن جرير الطبري مُعْجباً بكلام ابن جعفر الذي أورده ابنُ إسحاق ، وقد تبناه ورجّحه في تفسيره ، كما تبنى هذا الرأيَ مفسِّرون لاحقون كالامام ابن كثير !!

معنيان للتأويل في الآية:

تكلمت الآية عن قسمي آيات القرآن:

الآياتُ المحكمات: وهنّ أصْلُ الآياتِ المتشابهات وأمُّها ومرجعُها ، وهنّ أكثرُ عدداً من المتشابهات .

الآياتُ المتشابهات: وهنّ قلائلُ بالنسبةِ إلى عدد المحكمات ، بدليل قوله ﴿ واخر متشابهات ﴾ وهذا الجمع للتقليل .

وقد بينت الآية موقفَ فريقَيْن من الناس من الآياتِ الأخَر المتشابهات:

الفريق الأول: الذين في قلوبهم زيغ ، حيث يتّبعون الآياتِ المتشابهات بهدفِ الفتنة واللبس ، وبهدفِ تأويلِها وفقَ ما عندهم من الضلال !

الفريق الثاني: الراسخون في العلم ، الذين آمَنوا بالآيات المتشابهات ، وأيْقَنوا بعجزهم عن تأويلها ، وبيانِ عاقبتها وصورتها الفعلية ، وجعلوا هذا وقفاً على الله: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

وقد اختلفَ العلماءُ في تأويل الآياتِ المتشابهات: هل تأويلها خاصٌ بالله؟ وما المرادُ بالتأويل على هذا التخصيص ؟ أم أن الراسخين في العلم يعلمون تأويلها؟ وما الفرقُ بين تأويلهم المحمود وتأويل أهل الزيغ المذموم؟

سنوجزُ إنْ شاءَ الله حجة فريقين من العلماء: حجة مَنْ قالَ إن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه ، وحجة مَنْ قال: إنهم يعلمون تأويله!

المعنى الأول: هو ما تؤول إليه حقائق الآيات الغيبية

إذا كان التأويلُ هو بيانَ المرجع والعاقبةِ والمآل ، وردَّ النص إلى صورته المادية الخارجية الواقعية ، وتحديدَ ما تؤولُ إليه حقائقُ الآيات ، من الكيفياتِ والزمانِ والتفاصيل العملية، فهذا خاصٌ بالله تعالى ، ولا يعلمه الراسخون في العلم ، ولا يُدركون حقيقتَه ومآله وعاقبتَه ، ولا يَقدرون على ردِّ وإرجاع النصوص إلى صورتها الفعلية .

ولذلك يجعلونَ تأويلَ النصوص العمليِّ خاصاً بالله ، ويُسلّمون بعجزهم عن ذلك ، ويُعلنون إيمانهم به ، ويقولون ﴿ آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

أما الذين في قلوبهم زيغٌ فإنهم يتَّبعون هذا المتشابهَ بهدفِ تأويله ، والفتنةِ في تأويله ، ويريدونَ الوقوفَ على الصورة المادية للنصوص ، وتحديدَ النهايةِ الفعلية التي تستقرُ عليها الأخبار ، وبما أنَّ هذا غير ممكن ، لأنَّ هذا التأويلَ العمليَّ خاصٌ بالله ، لذلك يقعون في لبس وضلال !

وعندما نحملُ التأويلَ على هذا المعنى ، فإننا نجدُه يتفقُ مع معنى التأويل المذكورِ في السور الأخرى ، فقد سبقَ أن استعرضنا الآياتِ التي وردَ فيها ﴿التأويل﴾ ، حيث ورد سبعَ عشرة مرة في سبع سور قرآنية: يوسف والكهف والأعراف ويونس والإسراء والنساء وآل عمران .

إنَّ التأويلَ الواردَ في هذه السور السبع سبعَ عشرة مرةً يُرادُ به هذا المعنى، وهو ردُّ الأشياء إلى حقائقها المادية ، وإرجاعُ الأمور إلى صورتها العملية ، وتحديدُ العاقبةِ والنهايةِ الواقعية للأخبار والوعود ، وبيانُ ما تؤولُ إليه فعلاً، وتستقرُ عليه واقعاً ، وتعيينُ كيفيتها وزمانها ومكانها وملامحها.

هذا معنى التأويل في رؤيا يوسف والسجينين والملك في سورة يوسف ، والتأويل في أعمالِ الخضر الثلاثة أمام موسى في سورة الكهف ، والتأويل في وقوع وحدوث مضمون الآيات التي تتحدثُ عن مشاهد القيامة في

سورة الأعراف ، والتأويل في وقوع آيات التهديد للكفار فعلاً في سورة يونس ، والتأويل في تحديد العاقبة والنهاية العملية للكيل والوزن بالقسط في سورة الإسراء ، والتأويل في تحديد الصورة المادية الخيرة للأمة عندما تَرُدُّ المتنازعَ فيه إلى الله والرسول في سورة النساء ، والتأويل في تحديدِ كيفيةِ وصورة الآيات المتشابهات ، التي تتحدث عن الغيبيات، في سورة آل عمران .

إنَّ التأويلَ في القرآن لا يخرجُ عن هذا المعنى في التحديد العمليِّ لما تؤولُ إليه حقائقُ النصوص النظرية . ولهذا قالَ الإمامُ الراغبُ في تعريفِ التأويل: هو رَدُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه ، علماً أو فعلاً .

هذا التحديدُ العمليُّ لا يعلمه أحدٌ من البشر ، لا الراسخون في العلم ولا غيرهم ، لأنه خاصٌّ بالله .

إنَّ تأويل النصوص الغيبية خاصٌّ بالله ، تلك النصوصُ القرآنيةُ التي تتحدثُ عن أحداثٍ مستقبلية ، تقعُ للناس على وجه الأرض ، أو تحدثُ قبيلَ قيام الساعة وأثناءَ قيامها وبعده ، وتصفُ مايجري يومَ القيامة من مشاهد وتفاصيل، سواءٌ على أرض الموقف ، أو في الجنة ، أو في النار.

اللهُ وحده هو الذي يعلمُ تأويلَ هذه الآيات المتشابهات ، أي: هو الذي يعلمُ حقيقة حدوثها ، وزمانه ، ومكانه ، وكيفيته ، والصورة المادية الواقعية التي تكون عليها عند وقوعها وحدوثها،والعاقبة التي تؤولُ إليها هذه النصوص.

هل الراسخون في العلم يعلمون تأويلَ هذه النصوص على هذا المعنى ؟ وهل يَقْدرون على تحديدِ مآلها العملي ، وردها إلى كيفيةِ حدوثها الواقعي؟ وتصوُّرِ حقيقتها الفعلية؟ إنهم لا يقدرون على ذلك !

فهم الآية على هذا المعنى للتأويل:

تتحدثُ الآية عن قسمينِ لآيات القرآن ، وموقفِ فريقين من القسم الثاني ، وتذمُّ الفريق الأول ، وتمدحُ الفريقَ الثاني .

الآياتُ المحكماتُ هنَّ أمُّ الكتاب ، وهي معظمُ آيات القرآن ، والآياتُ المتشابهات هي آيات أخر قليلة .

إنَّ كلمة ﴿ مُحكمات ﴾ في قوله: ﴿ منه آيات محكمات ﴾ اسمُ مفعولٍ بصيغة جمع المؤنث السالم، وفعْلها الماضي الرباعي « أحكم »، وإذا كانت هذه الآياتُ محكمات، فمَن الذي أحكمها ؟ إنه اللهُ ربُّ العالمين !

المحكم مشتق من « الحكم » : والحكْمُ في اللغة هو: المنْع[1] .

وقال الإمام الراغب في معناه « حَكَمَ: أصْله: مَنَعَ منعاً للإصلاح »[2].

أما المحكم ، فقد عرّفه الراغبُ بقوله: « المحكم : ما لا يعرضُ فيه شُبهة، من حيثُ اللفظ ، ولا من حيثُ المعنى . »[3] .

وكم كان محمدُ بن جعفر بن الزبير دقيقاً لطناً عندما عرّفَ الآياتِ المحكمات بقوله: « فيهنَّ حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفعُ الخصوم ، والباطل ، ليس لهنَّ تصريف ولا تحريف عما وُضعْن عليه . »[4] .

الآياتُ المحكمات هي الآياتُ واضحاتُ الدلالة والمعنى ، لا شبهة في ألفاظها أو معانيها ، تمنعُ من تسرُّبِ أوهام خاطئةٍ لها ، لا تحتملُ إلا معنى واضحاً مفهوماً، لا تصريفَ لها، ولا تحريفَ لها عن وضْعها اللغوي ، وبسبب هذه الصفات لها ، فقد تحققتْ بها حجة الله على عباده ،

(١) مقاييس اللغة: ٢/٩١
(٢) المفردات: ٢٤٨.
(٣) المرجع السابق: ٢٥١.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٦.

وعصمت العبادَ من سوءِ الفهمِ للقرآن ، ودفعتْ شبهاتِ الخصوم ، وردَّت التحريفاتِ الباطلة .

ولأجل ذلك فـقـد وصفَ اللهُ هذه الآياتِ المحكمـات بأنهن ﴿ أم الكتاب﴾ .

قال الامامُ أحمدُ بن فارس في أصْل معنى « أم » في اللغة: « أم: أصلٌ واحد ، يتفرعُ منه أربعة أبواب ، هي: الأصل ، والمرجع ، والجماعة ، والدين . وهذه الأربعة متقاربة ، وبعدَ ذلك أصولٌ ثلاثة ، وهي: القامة، والحين ، والقصد »[1] .

ونقلَ ابن فارس قولَ الخليل الجامعَ في معنى الأمة: قال الخليل: كلُّ شيء يُضَمُّ إليه ما سواه مما يليه ، فإن العربَ تسمي ذلك الشيءَ أمّاً . من ذلك أمُّ الرأس: الدماغ [2] .

وقال أبو البقاء في الكليات: « وأمُّ كلِّ شيء أصْله ، قال الخليل: كلُّ شيء ضُمَّ إليه ما يليه يسمى أمّاً .

قال ابن عرفة: ولهذا سُميتْ أمّ القرآن وأم الكتاب .

وقال الأخفش: كلُّ شيء انضمَّ إليه أشياء فهو أمٌّ لها ، ولذلك سُميَ رئيسُ القوم أمّاً لهم » [3].

الآياتُ المحكمات التي أحكمها اللهُ في معناها ، فلا تُصرفُ إلى غيره ولاتُحرفُ عنه هي أمُّ القرآن ، وأصْلُ معانيه ، وهي مرجعُ الآياتِ المتشابهات، بحيثُ يجبُ حملُ الآياتِ المتشابهات عليها ، وإرجاعُها إليها ، لأنها أمُّ تلك الآياتِ المتشابهات وأصلها .

---

(١) مقاييس اللغة: ١/ ٢١ .

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٢.

(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ١٧٦ .

أما الآياتُ المتشابهات: فقد قالَ اللهُ عنها ﴿ وأخر متشابهات ﴾ وهذه الآياتُ المتشابهاتُ قليلة من حيثُ الكمية والعدد إذا ما قيست بالآيات المحكمات ، قليلة لدلالة الجمع ﴿ أخَر ﴾ الذي يدلُّ على التقليل .

و ﴿ متشابهات ﴾ اسمُ فاعل ، جمع مؤنث سالم . أي أنَّ التشابهَ موجودٌ في نفسها وتركيبها ومعانيها ، موجودٌ في داخلها .

﴿ الآيات المحكمات ﴾ أحكمها الله . و ﴿ الآيات المتشابهات ﴾ التشابهُ فيها نفسها ، وفرْقٌ بعيدٌ بين اسم المفعول ﴿ محكمات ﴾ ، واسم الفاعل ﴿متشابهات﴾ .

والفعلُ الماضي من ﴿ متشابهات ﴾ هو: تشابهَ . والتَّشابُه هو التماثلُ والتشاكُل .

قال الامامُ الراغب في التّشابهِ والآياتِ المتشابهات: « والمتشابهُ من القرآن: ما أشكلَ تفسيرُه ، لمشابهته بغيره ، إما من حيثُ اللفظ ، أو من حيثُ المعنى .

فالمتشابهُ في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهةِ اللفظ فقط ، ومتشابهٌ من جهةِ المعنى فقط ، ومتشابه من جهتهما .

والمتشابهُ من جهةِ المعنى: أوصافُ الله تعالى ، وأوصافُ يوم القيامة ، فإنَّ تلك الصفاتِ لا تُتَصَوَّرُ لنا ، لأنه لا يحصلُ في نفوسنا صورةُ مالم نحسَّه ومالم نره من قبل ، أو صورةُ مالم يكن من جنس ما نحسُّه ونراه.

ثم جميعُ المتشابه على ثلاثة أضرب:

ضربٌ لا سبيلَ للوقوف عليه: كوقتِ الساعة ، وخروج دابة الأرض ، وكيفية الدابة ، ونحو ذلك .

وضربٌ للإنسانِ سبيلٌ إلى معرفته ، كالألفاظِ العربية ، والأحكام الغْلقة الخفيّة .

وضربٌ متردِّدٌ بين الأمرين ، يجوزُ أن يختصَّ بمعرفةِ حقيقته بعضُ الراسخين في العلم ، ويخفى على منْ دونهم »[1] .

إذن: الآياتُ المتشابهاتُ هي التي في فهْمِها إشكال ، لما فيها من تشابُهٍ في لفظها أو معناها، أو فيهما معاً . كالآياتِ التي تتحدثُ عن صفاتِ الله أو يوم القيامة .

وحتى نفهمَ هذه الآيات المتشابهات ، فلا بدَّ من حمْلِها على أصلها وهي الآياتُ المحكمات ، ولا بدَّ من إرجاعِها إلى أمِّ الكتاب ، لتُفهم على ضوئها . وهذا ما يوحي به تركيبُ الآية: ﴿ منه آيات محكمات ـ هن أم الكتاب ـ وأخر متشابهات ﴾ .

وكان محمدُ بن جعفر بن الزبير دقيقاً وفطِناً عندما قال عن الآيات المتشابهات: « لهن تصريفٌ وتأويل ، ابتلى اللهُ فيهنَّ العباد ، كما ابتلاهم في الحلالِ والحرام ، لا يُصْرفنَ إلى الباطل ، ولا يُحرفنَ عن الحق »[2] .

ما هو موقفُ الناس من الآيات المتشابهات: التي في فهمِها إشكال ، وتحتملُ وجوهاً من التصريف والفهم ؟

الناسُ فريقان: فريقُ الذين في قلوبهم زيغ ، وفريقُ الراسخين في العلم، ولكلٍّ من الفريقين طريقةٌ في فهم المتشابهات في القرآن .

الفريقُ الأول: الذين في قلوبهم زيغ: قالَ الله عنهم: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

وعندما ننظرُ في هذه الكلماتِ التي تتحدثُ عن موقف هؤلاء الزائغين من المتشابه ، فإننا نرى فيها مايلي: .

---

(١) مختارات منتقاة دالة من كلام الراغب عن المتشابه في المفردات: ٤٤٣ ـ ٤٤٥ .

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٦ .

١- همْ في قلوبهم زيغٌ وانحرافٌ وميلٌ عن الحق ، والانحرافُ عن الحق في القلب هو أساسُ الداء ، لأن استقامة القلب أساسُ استقامةِ العقل وحسن الفهم، وانحرافَ القلب هو سببُ انحرافِ العقل وسوء الفهم .

٢- زيغُ قلوبهم دفعَهم إلى اتباع الآيات المتشابهات:﴿ فيتبعون ما تشابه منه﴾، فهم يبحثون عن الآياتِ المتشابهات ويتتبَّعونها ، ويجمعونها، ويريدون فهمَ معانيها بذاتها ، مجردةً عن غيرها .

هي في ذاتها متشابهة ، وفي فهمها إشكال ، وهم في قلوبهم زيغ ، وفي عقولهم اعوجاج ، وفي أذهانهم شبهات ، فكيفَ يفهمونها وهم على هذه الحالة؟ وكيف يُزيلون ما فيها من إشكال؟

لماذا تتبعونها ؟ لماذا لم يتبّعوا الآياتِ المحكمات الواضحات ؟ وهي كثيرةٌ في القرآن ، وليس فيها إشكال ، ولا تحتملُ التحريف والتصريف ؟ لم يفعلوا ذلك لأنَّ في قلوبهم زيغاً ، وتتبّعوا المتشابهات لأن في قلوبهم زيغاً.

٣ ـ يهدفُ زاغو القلوب من اتباع المتشابهات الفتنة: ﴿ ابتغاء الفتنة﴾. والفتنة هي التلبيسُ وإثارةُ الشبهات ، أي أنهم يريدون فتنة الآخرين، عندما يتتبّعون المتشابهات أمامهم ، وعندما يثيرون الأسئلة عنها ، وعندما ينشرون الشبهاتِ حولها ، يريدون إيقاعَ الآخرين في اللبس والخلط ، وهذه هي الفتنة ، التي يفتنون بها الآخرين .

٤ ـ لزائغي القلوب هدفٌ آخر من اتباع المتشابهات ، وهو المتمثلُ في قوله تعالى: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ ، إنهم يريدون تأويلَ هذه الآيات المتشابهات . تأويلها لماذا ؟ لتحقيق هدفهم الأول ، وهو فتنةُ أنفسهم ، وفتنة الآخرين ، والفتنة عندهم عن طريق تأويل هذه المتشابهات .

كيف يُؤَوِّلون الآياتِ المتشابهات ؟ إنهم يريدون الوقوفَ على حقيقتها الفعلية، ومآلها العملي، يريدون تحديدَ ما ستؤولُ هذه المتشابهاتُ إليه ، وتعيينَ كيفياتها، وزمانها ومكانها وتفاصيل حدوثها .

وهذا غيرُ ممكن لهم ولا لغيرهم . ولهذا هم مذمومون بذلك الهدف ، ومذمومون لمحاولاتِهم تأويلَ المتشابهات ، وتحديدَ ما ستؤول إليه من نهايةٍ عملية، وعاقبةٍ مادية .

٥ ـ ذمَّ اللهُ زائغي القلوب لمحاولاتِهم البائسة في تأويل الآيات المتشابهات ، لأنَّ تأويلها خاصٌّ به سبحانه ، ولهذا وردَ بعدَ ذمِّهم قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

والتأويلُ هنا هو بمعنى التأويل في السورِ الأخرى ، وهو تحديدُ العاقبة والمآل، وبيانُ ما تؤولُ إليه النصوصُ والأخبارُ القرآنية ، وتعيينُ صورتِها الواقعية العملية ، وإرجاعُها إليها ، من حيثُ الزمان والمكان والكيفية .

وهذا التأويلُ العملي ، بهذه الكيفيةِ المادية، لا يعلمه أحدٌ من البشر، لا الراسخون في العلم ولا الذين في قلوبهم زيغ ، فهو خاصٌّ بالله سبحانه.

الفريق الثاني: الراسخون في العلم، قالَ الله عنهم:﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا﴾.

هؤلاء الراسخون في العلم،وقفوا أمامَ متشابهِ القرآن ، الذي يتحدثُ عن أمورٍ غيبية ، فعلموا أنَّ تأويله خاصٌّ بالله ، وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

أي عَلِموا أنَّ تحديدَ عاقبةِ ومآلِ الآيات المتشابهات خاصٌّ بالله ، فالله وحده هو الذي يعلمُ ما تؤولُ إليه تلك الآيات ، ويعلمُ كيفية وزمان ومكانَ وصورة حدوثِها ووقوعِها ، في إطارها العمليِّ الواقعي .

لما علمَ الراسخون في العلم هذا ، أيْقنوا بعجزهم عن تأويل الآيات المتشابهات ، فأعلنوا إيمانهم بالقرآن كله، وقالوا: ﴿ آمنا به ، كل من عند ربنا﴾.

والضميرُ في ﴿ به ﴾ يعودُ على متشابه القرآن . أي آمنا بمتشابهِ القرآن،

وسلمْنا بمدلوله ، مع عجْزنا عن تأويله وتحديد ِ عاقبته العملية .

والتنوينُ في ﴿ كلٌ ﴾ عـوضٌ عن كلمةٍ مقدَّرة ، تقديرُها: القرآن . أي: كلُّ القرآن من عند ربنا ، سواء كـانت آياته محكمـات أم كـانت متشابهات. فالله أنزلَ الآياتِ المحكمات ، والله أنزلَ الآيات المتشابهات .

وقد أثنى اللهُ على هذا الموقفِ للراسخين في العلم بقوله: ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

وصـفـهم بأنهم أولو الألباب ، والألبـابُ هي العـقولُ الواعيـة ، إنه لا يتذكرُ هذا المعنى للآيات المتشابهات إلا أولو الألباب ، ولا يعلمُ عجْزَه عن تأويلها العمليِّ إلا الراسخون في العلم ، أصحابُ العقول الواعية الكبيرة.

وبينما ذمَّت الآية الذين في قلوبهم زيغٌ لرغبتهم في تأويل المتشابه ، فإنها أثنتْ على الراسخين في العلم لموقفِهم العلميِّ منه، ويبدو هذا الثناءُ في ما يلي:

١ ـ وصْفُهم بالرسوخ في العلـم . ومعنى الرسـوخ: التـمكنُ والتـثبتُ والتوثق. فهم ليسوا مجردَ علماء ، ولكنهم راسخون في العلم ، متمكِّنون منه ، واثقون من مسائله ومباحثه .

إنَّ رسـوخَهم في العلم دلهم على صـلاحيـاتهم وقـدراتِهم وطاقـاتهم ومجـالاتهم، فخاضـوا فيـها وبحثـوها، وأحسنوا استـخدامَ عـقولهم ومعـرفة علومهم .

وإنَّ رسـوخَهم في العلم أوقـفـهم على مـاليس في وسـعهم وطاقـتـهم ، وعَرَّفَهم على مالم يزوِّدهم الله وسائلَ البحث فـيه ، من موضوعاتِ الغيب، فوقفوا عندَ حدِّهم لم يتجـاوزوه ، ووفَّروا طاقتهم العقلية فلم يضيِّعوها في تلك المجالات التي لم تجهَّز للخوض فيها .

٢ ـ إعلانُ الراسخين في العلم إيمانهم بقسمي القرآن: محكمِه ومشابهه،

وتسليمَهم بعجزهم عن إمكانية تأويل المتشابه تأويلاً عملياً ، وقصرَ هذا التأويل على الله . وبذلك احسنوا فهمَ آياتِ القرآن وتدبُّرَها ، وأحسنوا التعاملَ مع القرآن ، ولم يضربوا بعضَ آياته ببعض .

٣ ـ وصفُهم بأنهم أولو الألباب ، فصاحبُ العقل الكبير يعلمُ حدودَه ، يعلمُ ما يقدرُ عليه ، فيشتغلُ فيه ، ويعلمُ ما يعجزُ عنه ، فيقفُ عنده ، ولا يضيعُ قدراتِه ووقتَه فيه .

٤ ـ لاحظ الراسخون في العلم افتتانَ زائغي القلوب في متشابهات القرآن، وضياعَهم في محاولاتِ تأويلها ، فطلبوا من الله ان لا يكونوا مثلهم ، وأن لا يُزيغَ قلوبَهم كما أزاغ قلوب أولئك ، وأنْ يثبتَهم على الهداية ، وأنْ ينشرَ عليهم الرحمة ، ودعوا الله قائلين: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ﴾ .

٥ ـ ذكرَ الراسخونَ في العلم نوعاً من أنواع متشابه القرآن الذي لا يعلمــون تأويله ، فـلا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا يأتـي به إلا الله ، على الكيفيةِ التي يريدُها سبحانه . إنه يومُ القيامة . ولهذا أعلنوا إيمانهم به ، وبمجيئِه حتماً ، بدون شكٍّ ولا ريب: ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

لقد تحدثتْ آياتُ القرآن عن أشراطِ الساعة ، ومشاهدِ يوم القيامة ، وأخبرتْ عن أحداثٍ قادمة ستقعُ فيه .

والذين في قلوبهم زيغٌ حاولوا تأويلَ تلك الآيات ، وتحديدَ حقيقةِ ما ستؤول إليه عملياً ، فافتتنوا وضلوا وأضلوا .

أمـا الراسخــون في العلم فـقـد أيقنوا بعــجـزهم عن تأويـل تلك الآيات،وتحديدِ ما ستؤول إليه عـملياً،فأعلنوا إيمانهم بها،وسلموا لله حقيقة تأويلها، وكيفية تحقيقها.

عدم التأويل لا يعني عدم الفهم:

على هذا المعنى للتأويل - وهو تحديدُ حقيقةِ الأخبارِ الغيبية عملياً - يكونُ الذين في قلوبهم زيغٌ مفتونين ضالين لخوضهم فيه ، ويكون الراسخون في العلم مهتدين ممدوحين ، وعلميين موضوعيين ، لعجزهم عن تأويله ، وتسليمِهم بقصُره على الله وإيمانِهم به .

لكن هل عجزُ الراسخين في العلم عن التأويل العملي لهذه الآيات يعني عدمَ فهْمِهم لها ؟ وعدَمَ تفسيرهم لها ؟ وعدمَ بيانهم لمعانيها ؟ وهل في القرآن ما لايُفهم معناه؟ وهل خاطبنا اللهُ بما لا نفهمه؟

بعضُ الناس لم يفرِّقوا بين العجز عن التأويل وبين فهم معاني الآيات ، وظنّوا أن عجزَ العلماء عن تأويل الآياتِ المتشابهات يلزمُ منه عدمُ فهمهم لمعانيها، وعدمُ قدرتهم على تفسيرها .

وقالوا: ليس في القرآن ما لا يُفهم معناه ، ولم يخاطِبْنا اللهُ في القرآن بما لا نعلمه ، ويجبُ علينا أنْ نفهمَ كلَّ الآيات ، محكماتٍ أو متشابهات، ويجبُ أن نؤوِّل كلَّ الآيات ، محكمات أو متشابهات .

ومنشأ الخطأ عندهم عدمُ تفريقِهم بين فهم معاني الآيات المتشابهات ، وبين العجز عن تأويلها .

إنَّ العجزَ عن تأويل الآيات التي تتحدثُ عن أمورٍ غيبية ، وعدمَ القدرةِ على تحديدِ الصورةِ العملية النهائية التي تؤُول لها تلك الآيات ، لا يعني عدمَ فهمِها وعدمَ تفسيرها ، وعدمَ معرفةِ معانيها .

لم يخاطِبْنا اللهُ في القرآن بما لا نفهم معناه ، فكلُّ آيةٍ وكلمةٍ في القرآن مفهومة المعنى ، ويجبُ علينا أنْ نتدبَّرَها ونفسرَها ونبين معناها ، لأنَّ القرآن نزلَ بلسانٍ عربي مبين، وكلماته عربية ، والكلامُ العربي له معنى معلومٌ مفهوم.

إن الراسخين في العلم يفهمون معاني الآيات المتشابهات ، ويعلمون تفسيرَها، ويُحسنون استخراجَ دلالاتها والوقوفَ على لطائفها .

لكن هذا شيء ، وتأويلها شيءٌ آخر ، فعلمُهم بمعانيها لا يلزمُ منه القدرةُ على تأويلها ، وتحديدُ كيفيةِ وصورةِ مآلها !

عندما يقفُ الراسخون في العلم أمام آيةٍ تتحدثُ عن مسألةٍ غيبية ، يفسِّرونها ويبيّنون معانيها ، ويقولون: هذا هو تفسيرُها وبيانُها ، أما تأويلها وتحديدُ كيفيتِها النهائية ، وبيانُ متى وكيف ستقعُ فعلاً ، فهذا خاصٌّ بالله .

ونورد فيما يلي مثالَيْن عن ذلك: مثالاً عن كلام القرآن عن مشاهد القيامة ، ومثالاً عن إخبار القرآن عن صفات الله !

عرضتْ آياتُ القرآن بعضَ مشاهدِ القيامة ، وأخبرتْ عن بعض الأحداث التي ستقعُ عند قيام الساعة . منها قوله تعالى: ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت. وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت . . ﴾[1] .

تخبرُ الآياتُ عن اثني عشرَ حَدَثاً يحدثُ عند قيام الساعة ، وتقدمُ التي عشرة لقطةً من لقطات تلكِ الأحداث ، وهذه الآياتُ لها فهمٌ وتفسير ، كما أن لها تأويلاً وتحديداً .

الراسخون في العلم يفهمونها ويفسِّرونها ، إنهم يعلمون معنى تكوير الشمس، وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال ، وتعطيل العشار ، وحشر الوحوش، وتسجير البحار ، وتزويج النفوس، وسؤالِ الموءودة ، ونشر الصحف، وكشطِ السماء ، وتسعير الجحيم ، وإزلاف الجنة . يعلمون

(١) سورة التكوير: ١ ـ ١٤ .

معاني الكلمات ، ويفهمون ما تتضمنه من حقائقَ ودلالات ، ويؤمنون بحدوثِ ما أخبرتْ عنه من هذه المشاهد واللقطات .

أما تأويلُ هذه الآيات التي تعرضُ هذه اللقطات فإنهم لا يعلمونه ، لأنَّ تأويلها خاصٌّ بالله .

تأويلُ هذه الآيات هو تحديدُ عاقبتِها ومآلِها ، وتعيينُ الصورةِ العملية التي ستقعُ بها ، وبيان متى وكيف ستحدثُ وتتحقق ، من حيثُ الزمان والمكان والكيفية ، هذا لا يعلمه الراسخون في العلم .

إنَّ فهمهم لمعاني هذه الآيات قد تحقق ، لكنه لا يلزمُ منه إمكانية تأويلِها!!.

وبالنسبةِ إلى صفات الله ، فقد أخبرتْ آياتُ القرآن عنها ، وأشارتْ إلى بعض هذه الصفات، وتحدثتْ عن بعض أفعال الله ، تكلمتْ آياتُ القرآن عن يدِ الله ، وعن وجهِ الله ، وعن معيةِ الله ، وعن استواءِ الله على العرش ، وعن علوِّ الله .

هذه الآياتُ لها تفسيرٌ وفهم ، ولها تأويلٌ وتحديد .

والراسخون في العلم يفهمونها ويفسِّرونها ، ويَعرفون معنى اليدِ والوجهِ والاستواءِ والعلو ، ويُسندونها لله كما أخبرَ الله .

لكنهم عاجزون عن تأويلِها وتحديدِها ، أي: عاجزون عن بيانِ حقيقةِ اتصاف الله بها ، وتحديدِ كيفيةِ وجودِها عندَ الله سبحانه ، ولهذا لا يخوضون في تحديدِ كيفيةِ استواءِ الله على عرشه، وكيفيةِ علوِّه عن خلقه ، وكيفيةِ يدِه ووجهه ونفسِه ومعيته سبحانه .

إنَّ فهمَهم لمعاني هذه الآيات ، ومعرفة ما تخبرُ عنه من أفعالٍ وصفات، قد تحقق ، لكنه لا يلزمُ منه إمكانية تأويلِها وتحديدِها وتكييفِها!!

سياق الآية على هذا المعنى للتأويل:

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾: جملة خبرية .

﴿ منه آيات محكمات ﴾: جملة خبرية أخرى ، مفصِّلة للجملةِ الخبريةِ السابقة .

﴿ هن أم الكتاب ﴾: مبتدأ وخبر ، وهي جملة معترضة ، جيءَ بها بهدفِ وصفِ الآياتِ المحكمات من القرآن بأنهنَّ أمُّ القرآن وأصْله ومرجعُه، وذلك لحمْل الآيات المتشابهاتِ عليها ، أي أنَّ الآيات المحكمات أمٌّ وأصْلٌ للآياتِ المتشابهات .

﴿ وأخر متشابهات ﴾: معطوفة على ﴿ منه آيات محكمات ﴾ ، وفيها الخبرُ عن القسم الثاني من آيات القرآن ، ووصْفُها بأنها متشابهات . ووصْفُها بوصف ﴿ اخر ﴾ دليلٌ على أنها قليلة ، لأنَّ كلمة ﴿ أخَر ﴾ جمعُ قلّة .

بعدَ حديثِ الآية عن قسمَيْ آياتِ القرآن: المحكماتِ الكثيرة أمِّ القرآن وأصلِه، والآيات المتشابهات القليلة ، تحدثت عن موقف فريقين من الناس من الآيات المتشابهات .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾:

﴿ أما ﴾: حرفُ شرط بمعنى التفصيل ، حيث وردَ ذكْرُ الفريقين بعدَها: الزائغون والراسخون في العلم .

﴿ الذين في قلوبهم زيغ ﴾: فعْل الشرط .

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: جوابُ الشرط .

﴿ ابتغاءَ الفتنة ﴾: مفعولٌ لأجله .

﴿ وابتغاءَ تأويله ﴾ معطوفٌ على المفعول لأجله ، يدلُّ على معناه ، أي: لزائغي القلوب هدفان من اتباع الآيات المتشابهات: الهدفُ الأول:

إحداثُ الفتنة بالقرآن ، والثاني: الرغبة في تأويل تلك الآيات المتشابهات ، والوقوفِ على كيفيتها العملية ، وتحديدِ عاقبتها المادية .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾: علمُ تـأويل متشابهِ القـرآن خاصٌ بالله ، لا يعلمه أحدٌ غيره . فالجملة ُ معترضة ، لتقرير هذه الحقيقة ، ولذمِّ زائغي القلوب في محاولاتِهم تأويلَ المتشابه ، لأنه لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا يعلمُ حقيقته المادية إلا الله ، ولا يـعلمُ كيفيـة ووقتَ ومكان وقوعِه إلا الله .

لهـذا يكونُ الوقفُ على لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ واجباً . هكـذا: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

﴿ والراسخـون في العلم يقـولون آمنا به كل من عند ربنـا ﴾: جـملة استئنافية جديدة ، تخبرُ عن موقفِ الراسخين في العلم من تأويل المتشابه ، وهم الفريقُ الثاني من الناس .

فالواو: حرفُ استئناف .

و ﴿ الراسخون ﴾ مبتدأ .

﴿ يقولون آمنا به ﴾: جملة فعلية في محلٍّ رفع خبر .

أي: الراسخـون في العلم قـائلون آمنا بـالمتشـابه دون أنْ نـعلمَ تأويله ، وآمنا بان كلَّ القرآن ـ محكمه ومتشابهه ـ من عند ربنا .

﴿وما يذَّكَّر إلا أولو الألبـاب﴾: جمـلة استئنافيـة جديـدة ، للثناءِ على الراسخين في العلم ، في عدم محاولاتهـم تأويلَ المتشابه ، ووصفهم بأنهم أولو الألباب .

الذاهبون إلى هذا المعنى للتأويل:

كثيرٌ من أئمةِ التفسير من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدَهم ذهبَ إلى هذا المعنى للتاويل في آيةِ سورة آل عمران التي أمامَنا ، حيثُ اعتبروها متوافقة مع ورودِ كلمةِ التأويل في القرآن في المواضع الأخرى ـ التي استعرضْناها فيما سبق ـ ،

لا سيما أنَّ أمامَهم حديث صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يذمُّ زائغي القلوب، الراغبين في تاويل المتشابه ، ويحذر المسلمين منهم .

فقد روى البخاريُّ ومسلم وغيرُهما عن ابن أبي مُلَيْكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ . ثم قال: « فإذا رأيتم الذينَ يتَّبعون ما تشابَهَ منه ، فاولئك الذين سمّاهم الله ، فاحذروهم » .

وفي روايةٍ أخرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قول الله: ﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ﴾ فقال: « إذا رأيتم الذين يَتَّبعون ما تشابه منه ، فاولئك الذين سمّى الله ، فاحذروهم» .

وممن ذهبَ إلى هذا الرأي الإمامان: ابنُ جرير الطبري وابنُ كثير الدمشقي .

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾: اللهُ الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، هو الذي أنزل عليك القرآن .

من هذا القرآن آياتٌ محكمات . وهنَّ اللواتي قد أحكمْنَ بالبيان والتفصيل، وأثبتتْ حججُهنّ وأدلتُهن على ما جعلن أدلةً عليه من حلالٍ وحرام ، ووعْد ووعيد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل ، وعظة وعبر ، وما أشبهَ ذلك .

ثم وصفَ اللهُ هؤلاء الآياتِ المحكمات بأنهن أمُّ الكتاب، أي أنهن أصْلُ الكتاب ، الذي فيه عمادُ الدين والفرائض والحدود ، وسائر ما يحتاج إليه الخلق، من أمْر دينهم، وما كُلِّفوا به من الفرائض في عاجلهم وآجلهم .

وإنما سماهنّ أمّ الكتاب ، لأنهنَّ معظمُ الكتاب ، وموضعُ مفزع أهله عند الحاجةِ إليه[1] .

﴿ وأخر متشابهات ﴾: ومن القرآن آياتٌ أخر ، هنَّ متشابهاتٌ في التلاوة، مختلفاتٍ في المعنى[2] .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: فأما الذين في قلوبهم ميلٌ عن الحق وحَيْفٌ عنه ، فيتَّبعون من آياتِ القرآن ما تشابهتْ ألفاظه ، واحتملَ صرفه في وجوه التأويلات ، باحتماله المعاني المختلفة ، وذلك إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره ، واحتجاجاً بذلك على باطله الذي مالَ إليه قلبه، دون الحقّ الذي أبانه الله ، وأوضحه بالمحكماتِ من آياتِ القرآن !

وهذه الآية ـ وإنْ كانتْ نزلتْ في نصارى نجران ـ فإنه معنيٌّ بها كلُّ مَن ابتدعَ بدعةً في دين الله، فمالَ إليها قلبه ، تأويلاً منه لبعض متشابه القرآن، ثم حـاجَّ به وجـادلَ أهلَ الحق،وعـدلَ عن الواضح من أدلةِ الآيات المحكمات، وذلك ليلبسَ على أهل الحق من المؤمنين دينهم ، وطلبـاً منه لعلم تأويل ما تشابَهَ من القرآن .

تشملُ كلَّ مَنْ كان كذلك ، كائناً مَنْ كان، سواءً كان من أهل اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، أوكان سبئياً ، أو حَروريـاً ، أو قدرياً، أو جهمياً .

فهو من الذين قالَ عنهم رسولُ الله ﷺ: (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما

---

(١) جامع البيان للطبري: ٣/ ١٧٠ ، طبعة دار الفكر .

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٧٢ .

تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم »[1] .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾: اتَّبعوا المتشابهَ ابتغاءَ تأويله ، بمعرفةِ انقضاءِ مدةِ أمةِ محمد ﷺ ، ووقتِ قيامِ الساعة .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾: ما يعلمُ وقتَ قيامِ الساعة ، وانقضاءَ مدة أجلِ محمدٍ ﷺ وأمتِه ، وما هو كائن ، إلا الله ، دونَ مَنْ سواه من الذين ابتغوا إدراكَ علمِ ذلك عن طريق الحساب والتنجيم والكهانة.

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾: وأما الراسخون في العلم ، فيقولون: آمنا به ، كلٌّ منْ عندِ ربنا . لايعلمون تأويلَ ذلك ، وفضلُ علمهم في ذلك على غيرهم ، هو علمُهم بأن الله وحده هو العالمُ بتأويل ذلك ، دون مَنْ سواه منْ خلقِه .[2]

وبعد ذكْر الطبريِّ لقولين في موقع جملة ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ ، وهل هي معطوفةٌ على ﴿ إلا الله ﴾ فيعلمون تأويلَ المتشابه، أو استئنافيةٌ فلا يعلمون تأويله ، رجَّحَ القولَ الثاني ، فقال: « والصوابُ عندنا في ذلك: أنهم ـ الراسخون في العلم ـ مرفوعون بجملةِ خبرهم بعدهم ، وهي ﴿يقولون آمنا به ﴾ . لما قدْ بيّنّا أنهم لا يعلمون تأويلَ المتشابه الذي ذكره اللهُ في هذه الآية »[3] .

ثم قال الطبري: وأما تأويلُ قوله: ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾: فإنه يعني: أنَّ الراسخين في العلم يقولون: صدقنا بما تشابَهَ من آياتِ الكتاب ، وأنه حقّ ، وإن لم نعلمْ تأويله[4] .

﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾: وما يتذكَّرُ ويتعظ وينزجر عن أنْ

---

(1) المرجع السابق: ٣/ ١٨٠ - ١٨١ بتصرف وتلخيص .
(2) المرجع السابق: ٣/ ١٨٢ .
(3) المرجع السابق: ٣/ ١٨٤ .
(4) المرجع السابق: ٣/ ١٨٥ .

يقولَ في متشابه آيات كتاب الله ما لا علم له به إلا أولو العقل والنُّهى[1].

ولا يخرجُ كلامُ الإمام ابن كثير عن كلام ابن جرير، فقال في تفسير الآية: « يخبر الله أن في القرآن آيات محكمات، هنَّ أمُّ الكتاب. أي: بيناتٌ واضحاتُ الدلالةِ على كثير من الناس أو بعضِهم، فمَنْ ردَّ ما اشْتَبَهَ إلى الواضح منه، وحكَّم محكمَه على متشابه، فقد اهتدى، ومَنْ عكس انعكس.

ولهذا قال تعالى: ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي: أصلُه الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

﴿ وأخر متشابهات ﴾: أي تحتملُ دلالتُها موافقة المحكم، وقد تحتملُ شيئاً آخر من حيثُ اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد »[2].

ثم قال ابن كثير: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾: أي ضلال، وخروجٌ عن الحقِّ إلى الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: إنما يأخذون منه بالمتشابه، الذي يمكنْ أنْ يحرِّفوه إلى مقاصدِهم الفاسدة، ويُنزلوه عليها، لاحتمالِ لفظه لما يصرفونه، فأما المحكمُ فلا نصيبَ له فيه، لأنه دافعٌ لهم، وحجة عليهم.

ولهذا قال عنهم ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾: أي: الإضلالَ لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجّون على بدعَتِهم بالقرآن، وهو حجةٌ عليهم وليس لهم.

وقوله تعالى: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾: أي: تحريفِه على ما يريدون.

وقال مقاتل والسدي: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾: يبتغونَ أنْ يعلموا ما يكون، وما عواقبُ الأشياء، من القرآن[3].

---

(١) المرجع السابق: ٣/١٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/٣٦٩ - ٣٧٠.

(٣) المرجع السابق: ١/٣٧٠.

المعنى الثاني للتأويل: التفسير والبيان:

عرضْنا فيما سُبقَ المعنى الأولَ للتأويل المذكورِ في آية آل عمران ، وهو بيانُ الحقيقةِ التي تؤولُ إليها النصوص الغيبية ، وبيّنّا أنَّ التأويلَ على هذا المعنى خاصٌ بالله ، ولا يعلمه الراسخون في العلم ، ولا غيرُهم ، وفسَّرْنا الآيةَ على هذا المعنى .

ونقدمُ الآن المعنى الثاني للتأويل المذكور في هذه الآية، وهو التفسيرُ والبيان.

قال ابنُ منظور في لسانِ العرب عن ورودِ التأويل بمعنى التفسير:
يُقال: أوَّلَ الكلام ، وتأوَّله : إذا فسَّره .

والمرادُ بالتأويل: نقلُ ظاهر اللفظ عن وضْعِه الأصلي إلى ما يَحتاجُ إلى دليل، لولاه لما ترك ظاهرُ اللفظ .

وسُئلَ أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال: التأويلُ والتفسيرُ بمعنى واحد .

وقال أبو منصور: يقال: ألتُ الشيءَ أؤوله: إذا جمعته وأصلحتُه . فكأنَّ التأويلَ جمعُ معاني ألفاظ أشكلتْ بلفظٍ واضح لا إشكال فيه[1] .

وقال أبو البقاء الكفوي في الكليات: « والتفسيرُ والتأويلُ واحد: وهو كشفُ المراد عن اللفظِ المشكِل »[2] .

ومع أنَّ التأويلَ في القرآن لم يَرِدْ بمعنى التفسير ، لكن استعمله بعضُ الصحابةِ والتابعين بمعنى التفسير ، وشاعَ استعماله بعد عصر التابعين بهذا المعنى، واشتهرَ بعد ذلك به ، واصطلحَ عليه المفسِّرون ، وقديماً قال العلماء: لا مُشاحة في الاصطلاح .

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١١/٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٢٦١ .

وذهبَ إمامُ المفسرين محمد بن جرير الطبري إلى هذا الرأي، واستخدمَ التأويلَ بمعنى التفسير، ولذلك سمّى تفسيرَه « جامع البيان عن تأويل أي القرآن » .

وكان ابنُ جرير يُكثرُ من استعمالِ التأويل بمعنى التفسير ، ولذلك أدارَ تفسيرَه على هذا المعنى .

فهم الآية على هذا المعنى للتأويل:

الراسخون في العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهات ، بينما لا يعلمُ تأويلها الذين في قلوبهم زيغ .

ويكونُ فهمُ الآيةِ على هذا المعنى هكذا:

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾: الآياتُ المحكماتُ أمٌّ وأصْلٌ للآياتِ المتشابهات ، فمنْ أرادَ فهمَ وتأويلَ وتفسيرَ الآياتِ المتشابهات فلا بدَّ من ردِّها إلى أصْلِها وهو الآياتُ المحكمات .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ زائغو القلوبِ لا يحسنون فهم الآياتِ المتشابهات ولا تأويلها ، ولذلك يُفتَنون فيها ، وتصابُ قلوبُهم بالزيغ والانحرافِ والميل عن الحق ، إنهم ينظرونَ إليها وحدَها ، ويتعاملون معها بمعزلٍ عن أصْلِها، وهو الآياتُ المحكمات ، ولذلك يخطئونَ في تفسيرها وتأويلها .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾: تأويلُ الآيات المتشابهات، ومعناها الصحيح يعلمُه الله ، لأنه منزِّلُ تلك الآيات .

كما يعلمُ تأويلَ هذه الآيات المتشابهات الراسخون في العلم ، فرسوخُهم في العلم ، وتمكُّنُهم منه ، أوجَدَ عندهم ملكةً في تفسير القرآن وتأويله ، ففهموا آياتِه المحكمات الكثيرة، ولما وقفوا أمامَ آياته المتشابهاتِ القليلة،

أحسنوا تأويلها وحمْلها ، وإرجاعَها إلى أمها من الآياتِ المحكمات ، وبذلك أحسنوا استخراجَ دلالاتِها ومعرفة معانيها وحقائقها .

﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾: لما أحسنَ الراسخون في العلم فهمَ وتفسيرَ وتأويلَ الآيات المتشابهات، صرَّحوا قائلين: آمنا بمتشابهِ القرآن الذي عَلِمْنا تأويله ، كما آمنَّا بمحكمه ، فالقرآنُ بمحكمه ومتشابهه ، كلٌّ من عندِ ربنا .

على هذا المعنى للتأويل تكون الواوُ في قوله: ﴿ والراسخون ﴾ حرفَ عطف ، عطفت ﴿ الراسخون في العلم ﴾ على لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ . ويكونُ الأولى وصْلَ المعطوفِ بالمعطوف عليه ، والوقفَ على ﴿ العلم ﴾ ، فتكونُ الجملة هكذا: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ ،

وتكون ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ جملةً حاليةً. أي: الراسخون في العلم عالمون بتأويل المتشابه، قائلين: آمنّا به كلٌّ من عند ربنا.

وممن ذهبَ إلى هذا المعنى للتأويل، واعتبرَ نفسَه ممن يعلمُ تأويلَ المتشابه:

عبدُالله بن عباس رضي الله عنهما ، فقد روى عنه ابنُ جرير الطبري قوله: أنا ممن يعلمُ تأويله .

وقال مجاهد: ﴿ والراسخون في العلم ﴾: يعلمونَ تأويله ، ويقولون آمنا به.

وقال محمدُ بن جعفر بن الزبير بن العوام: والراسخون في العلم قد ردّوا تأويلَ المتشابه على ما عرفوا من تأويل الآيات المحكمة ، التي لا تأويلَ لأحد فيها إلا تأويلٌ واحد ، وقد اتسقَ بقولهم القرآن ، وصدَّقَ بعضُه بعضاً ، وبذلك نفذتْ به الحجة ، وظهرَ به العذر، وزاحَ به الباطل، ودُفعَ به الكفر[1].

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٣/١٨٢ ـ ١٨٣

وإذا قلنا: إنَّ التأويلَ بمعنى التفسير والبيان ، وأنَّ العلماءَ يعلمون تأويلَ متشابه القرآن ، فإن هذا القولَ لا يتعارضُ مع المعنى اللغويِّ للتأويل ، بل يتفقُ معه ، ويتحققُ المعنى اللغويُّ فيه .

فالتأويل ـ كما مرَّ معنا ـ هو ردُّ الشيء إلى غايته ، وحمْله على أصله، وإرجاعُه إلى حقيقته ، وتحديدُ عاقبته ومآله .

وتأويلُ متشابه القرآن ـ وهو الآياتُ التي فيها اشتباهٌ في المعنى ، وإشكالٌ في الدلالة ـ لا يعلمه الناسُ العاديون، ولا الذين في قلوبهم زيغ.

إنَّ الآيةَ ذمتْ محاولة الذين في قلوبهم زيغ تأويلَ متشابهِ القرآن ، لأنهم لا يُحسنون تأويله وردَّه إلى محكم القرآن ، وبذلك يقعون في الفتنة .

بينما مدحت الآيةُ الراسخين في العلم ، لحسْن تأويلِهم لمتشابهِ القرآن .

فكيفَ أوَّله الراسخون في العلم ؟ وكيف تحقَّق في تأويلِهم له المعنى اللغويُّ الاشتقاقيُّ للتأويل؟

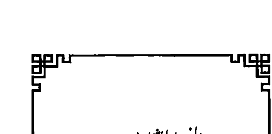
لقد قامَ الراسخون في العلم بردِّ المتشابِهِ إلى المحكم ، وحمْل المتشابهِ على الأصل المحكم ، قاموا بإعادةِ الأخر المتشابهات إلى أصْلِها وهو أمُّ الكتاب المحكمات ، وفهموا الآياتِ المتشابهات على ضوءِ أصْلِها من الآيات المحكمات، وبذلك التأويل والردِّ أزالوا الاشتباهَ فيها ، وحلوا ما فيها من إشكال ، وبذلك أحسنوا فهمَ الآياتِ المتشابهات .

وهذا الفعلُ منهم ردُّ الشيءِ إلى غايته ، وإعادةُ الكلام إلى أصله ، وحمْله على مرجعه وأساسه ، وهذا هو المعنى اللغويُّ الاشتقاقيُّ للتأويل.

وبهذا نعرفُ دقة عبارةِ الامام الراغب الأصفهاني ، وشمولها للمعنيين المذكورَيْن للتأويل ، حيث يقول: « هو رَدُّ الشيْء إلى الغايةِ المرادةِ منه ، علماً كان أو فعلاً »[1] .

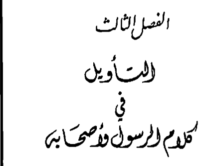
---

(١) المفردات: ٩٩ .



الفصل الثالث

التأويل في كلام الرسول وأصحابه





المبحث الأول

التأويل في الحديث النبوي

وردَ التأويلُ في حديث رسولِ الله ﷺ ، وكان أحياناً يرد بمعنى تعبير الرؤيا وتأويلها ، وأحياناً بمعنى الفهم والتفسير .

ونوردُ فيما يلي أمثلةً من الأحاديث على كل واحد من المعنيين:

المطلب الأول

تأويل الرؤيا وتعبيرها

خصَّصَ علماءُ الحديث في مصنفاتهم كتباً خاصةً لتأويل الرؤيا وتعبيرها. ففي صحيح البخاري كتابُ « تفسير الرؤيا » وفي صحيح مسلم كتابُ «الرؤيا » .

والبابُ الثالث من كتاب « الرؤيا » في صحيح مسلم ، أطلقَ عليه الإمامُ النووي شارح الصحيح اسم: « باب تأويل الرؤيا » .

ونقرأ في هذا الباب هذه الأحاديث التي ورد فيها مصطلحُ التأويل:

١ ـ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسولُ الله ﷺ: ـ رأيتُ ذاتَ ليلة فيما يرى النائم ، كأنا في دار عقبةَ بن رافع ، فأتينا برطَب من رطب ابن طاب .

فأوّلتُ الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأنّ ديننا قد طاب [1].

رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان مع بعض أصحابه في دار رجلٍ اسمه « عقبة بنُ رافع »، فتفاءل بذلك، وأكلَ من تمر ابن طاب فتفاءل بذلك.

وأوّلَ هذه الرؤيا بأنها تشيرُ إلى مبشراتٍ قادمة . « رافع » يشيرُ إلى الرفعة في الدنيا . و « عُقْبة » يشيرُ إلى حُسْن العاقبةِ في الآخرة ، وتمرُ «ابن طاب » يشيرُ إلى طيبة واستقرارِ وانتصارِ الاسلام .

وهذا ما حصل في الدنيا ، وتحققَ تأويلُ الرسول عليه السلام لهذه الرؤيا ، فقد طابَ الاسلامُ وكملَ واستقر ، ونالَ المسلمون الرفعة في الدنيا .

٢ ـ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: قدم مسيلمةُ الكذاب على عهدِ النبي ﷺ المدينة . فجعلَ يقول: إنْ جعلَ لي محمدٌ الأمْرَ من بعده تبعْتُه. فقَدِمَها في بشر كثير من قومه .

فأقبلَ إليه النبيُّ ﷺ ، ومعه ثابتُ بن قيس بن شماس ، وفي يد النبيِّ ﷺ قطعة جريدة ، حتى وقفَ على مسيلمة في أصحابه .

فقال له: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدّى أمْرَ الله فيك، ولئن أدبرتَ ليَعقِرنَّكَ الله ، وإنيّ لأراكَ الذي أريتُ فيك ما أريت . وهذا ثابتٌ يجيبُك عني) .

ثم انصرفَ عنه .

قال ابن عباس: فسألتُ عن قولِ النبي ﷺ (إنك أرى الذي أريتُ فيك ما أريت) ، فأخبَرَني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (بينا أنا نائم ـ رأيتُ في يدي سوارَيْن من ذهب ، فأهَمَّني شأنُهما . فأوحيَ إليَّ في المنام أن انْفُخْهُما ، فنفختُهُما فطارا .

---

(١) صحيح مسلم: ٤٢ كتاب الرؤيا: ٣ باب رؤيا النبي حديث رقم: ٢٢٧٠ .

فأوَّلتُهما كذابين يخرجان من بعدي . فكان أحدُهما العَنْسيّ ، صاحب صنعاء ، والآخرُ مسيلمة ، صاحبُ اليمامة)[1] .

كانت رؤيا رسول الله ﷺ سوارَيْن من ذهبٍ في يديه ، فلما نفخهما طارا.

وكان تأويلها ظهورَ كذابين يَدّعيان النبوة: الأسودِ العَنْسيِّ في اليمن ، ومسيلمةِ الكذاب في اليمامة .

وقد تحققتْ رؤياه فعلاً، وتأويلها: حدوثها في عالم الواقع ، فقد خرجَ الكذابان العنسي ومسيلمة ، وكانا من أخطر مدّعي النبوة على المسلمين ، وبذلَ المسلمون جهوداً كبيرةً للقضاء عليهما ، وتمكّنوا أخيراً من التغلب عليهما وقتْلِهما ، وكان قتلهما هو تأويلَ طيرانِ السوارَيْن لما نفخهما رسولُ الله ﷺ في المنام .

ونقفُ مع هذه الأحاديث التي أوردَها الامامُ مسلم في كتابِ « فضائل الصحابة » ، والتي تتحدثُ عن تأويل الرسول عليه الصلاة والسلام لرؤيا رآها بشأن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه:

١ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: (بينا أنا نائم ، رأيتُ الناس يُعْرَضون وعليهم قُمُص . منها ما يبلغُ الثُّدِيَّ، ومنها ما يبلغُ دون ذلك ، ومَرَّ عمرُ بن الخطاب وعليه قميصٌ يجرُّه .

قالوا: ماذا أوّلْتَ ذلك يا رسول الله ؟

قال: الدين !)[2]

رأى الرسولُ صلى الله عليه وسلم في منامه الناسَ يمرّون أمامه ، وكلُّ منهم يلبس قميصاً . وهذه القمصانُ متفاوتة في المقاس، منها الطويلُ ومنها القصير، أما عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان قميصُه طويلاً يجرُّه .

---

(١) صحيح مسلم ـ نفس الكتاب والباب . حديث: ٢٢٧٣ ـ وحديث: ٢٢٧٤ .

(٢) صحيح مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة: ٢ باب من فضائل عمر: حديث رقم: ٢٣٩٠.

وتأويلُ هذه الرؤيا أنَّ القمصان هي الدين ، ومعلومٌ أنَّ التزامَ المسلمين بأحكام الدين الاسلامي متفاوت ، منهم مَنْ يكون التزامُه وثيقاً ، ومنهم من يكون التزامُه ضعيفاً .

أما التزامُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه بأحكام الدين فهو وثيقٌ متين، ولهذا كان قميصُه في المنام طويلاً .

وقد تحققت رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام عملياً فيما بعد، فصارَ عمر أميراً للمؤمنين . وترَكَ بعد وفاته آثارَه وسنّنه ، وصارَ قدوةً للمسلمين من بعده.

٢ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

(بينا أنا نائم ، إذ رأيتُ قدحا أتيتُ به، فيه لبن . فشربْتُ منه ، حتى إني لأرى الريَّ يجري في أظفاري . ثم أعطيتُ فضلي عمرَ بن الخطاب .

قالوا: فما أوّلْتَ ذلك يارسول الله ؟

قال: العلم)[1] .

اللبن في هذه الرؤيا لرسولِ الله ﷺ هو العلم ، وهذا هو تأويلُ الرسول عليه السلام لهذه الرؤيا .

وقد تحققتْ رؤياه عليه السلام في عالم الواقع ، فشُرْبُهُ اللبن في الرؤيا، وارتواؤُه منه ، تأويله الواقعيُّ تمكنُهُ من العلم ، ورسوخُه فيه ، وهذا متحققٌ في سيرته وشخصيته عليه الصلاة والسلام .

وتأويل إعطائِه فضلَه من اللبن لعمر في عالم الواقع، هو تمَكُّنُ عمرَ من العلم ورسوخُه فيه ، وهذا متحققٌ في شخصيته رضي الله عنه .

ومّما أوّله وعبَّرَه رسولُ الله ﷺ من رؤياه، ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

(١) صحيح مسلم ـ المرجع السابق ـ حديث رقم: ٢٣٩١ .

(رأيتُ امرأةً سوداءَ ثائرة الرأس خرجتْ من المدينة حتى نزلتْ بمهيعة .
فتأوّلْتُها أنّ وباءَ المدينة نُقِلَ إلى مَهْيَعَة ، وهي الجُحفة)[1] .

رؤيا رسولِ الله ﷺ في المنام: رأى امرأةً سوداء ثائرة الرأس ، خرجتْ من المدينة ، وسارتْ في الطريق ، وذهبتْ إلى الجُحْفة ، واستقرَّتْ فيها .
والجُحفةُ لها اسمٌ آخر هو « مَهْيَعَة » ، وهي في الطريق بين المدينة ومكة.

وتأويلُ هذه الرؤيا الواقعيُّ أن الحُمّى والمرضَ والوباءَ قد أخرجه الله من المدينة إلى الجحفة ، فتأويلُ الرؤيا هو تحقيقُها الماديُّ في عالم الواقع .

قال ابنُ حجر في فتح الباري: « تقدَّمَ في آخر فضل المدينة ، في آخر كتابِ الحج من حديثِ عائشة ؓ أن رسولَ الله ﷺ قال: (اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة . وانقُلْ حُمّاها إلى الجحفة قالت عائشة: وقدِمْنا المدينة ، وهي أوبأ أرض الله».

« قال المهلب: هذه الرؤيا من الرؤيا المعبرة ، وهي مما ضُرِب به المثلُ ، ووجْهُ التمثيل أنه شُقَّ من اسم « السوداء » السّوء والدّاء ، فتأوّلُ خروجَها بما جَمَعَ من اسمها .

« وقيل: ثورانُ الرأس يُؤَوّلُ بالحمى ، لأنها تُثيرُ البدنَ بالاقشعرار»[2]

نكتفي بهذه الأحاديثِ الخمسة الصحيحة ، التي أشارت إلى رُؤى رآها رسولُ الله ﷺ في منامه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ كما أشارتْ إلى تأويل وتعبير الرسول عليه الصلاة والسلام لهذه الرؤى الخمسة .

إنَّ تأويله لهذه الرؤى هو ملاحظتُه لبُعْدها الواقعي ، وتسجيله لمدلولها العملي، وبيانه لحقيقتها المادية . وهكذا يكون كلُّ تأويل وتعبير للرؤى .

والملاحَظ أنَّ حقيقة تلكَ الرؤى المادية قد وقعتْ بالفعل ، وانطبقتْ على الواقع ، كما أوّلها وعبَّرها رسولُ الله ﷺ .

(١) صحيح البخاري: ٩١ كتاب التعبير: ٤٢ باب المرأة السوداء. حديث رقم: ٧٠٣٩.
(٢) فتح الباري: ١٢/٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

المطلب الثاني

التأويل بمعنى الفهم والتفسير

وردَ التأويلُ بالمعنى الثاني - الذي سبقَ أنْ قرّرْناه أثناءَ حديثنا عن آيةِ المحكم والمتشابه ، في سورة آل عمران - وهو: التفسيرُ والبيانُ والفهم ، في بعضِ أحاديث رسول الله ﷺ .

وهو في هذه الأحاديثِ موجّهٌ لتأويل القرآن ، أي: فهمه وتفسيره وبيان معناه .

من هذه الأحاديث:

١ - روى الإمامُ أحمد عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه ، عن رسولِ الله ﷺ وقال: هلاكُ أمتي في الكتاب واللبن !

قالوا: يارسول الله: وما الكتاب واللبَن ؟

قال: يتعلمّون القرآن ، فيتأولونه على غير ما أنزل الله . ويحبون اللبن، فيَدعون الجماعات والجُمع ، ويُبْدون ! [1]

إنَّ الرسولَ ﷺ يذمُّ هذا الصنفَ من الناس ، وهم الذين يتعلمون القرآن ، ويدرسونه ، ولكنهم لا يفهمونه فهماً صائباً ، ولا يتأوّلونه تأوُّلاً صحيحاً ، وإنما يفهمونه فهماً خاطئاً ، ويفسِّرونه تفسيراً مغْلوطاً ، ويُؤَوِّلونه تأويلاً مردوداً باطلاً ، على غير ما أنزل الله ، وبذلك يحرِّفون بهذا التأويل الباطل الآياتِ عن معناها الصحيح، إلى معنى آخر مرفوض ، لا تدلُّ عليه ، ولا تشيرُ إليه.

وبينما ذمَّ رسولُ الله ﷺ المتأوِّلين السابقين ، لأنهم تأوَّلوا القرآن على

(١) مسند أحمد بن حنبل: ١٥٥/٤ .

غير ما أنزلَ الله ، فقد صَوَّبَ المتأولين من الصحابة تأويلات خاطئة ، وقدَّمَ لهم الفهمَ والتأويلَ الصحيح ، ولم يذمَّهم لحسْن نيتهم في التأويل غير السديد ، وأعذرهم ، ثم صوَّبَ لهم فهمَهم وتأويلهم .

قال الإمامُ ابن حجر في ضابطِ التأويل المردود الذي يُعْذَرُ صاحبُه ولا يُلَمّ: « قال العلماء: كلُّ متأوِّلٍ معذورٌ بتأويله ليس بآثم ، إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب ، وكان له وجْهٌ في العلم »[1] .

وقد أوردَ الإمامُ البخاري أربعة أحاديث لذلك ، في كتاب « استتابةِ المرتدين المعاندين وقتالهم » ، وأفرد لها باباً خاصاً ، أطلقَ عليه اسم: «باب ما جاء في المتأولين » .

الحديث الأول: عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعْتُ هشامَ ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياةِ رسول الله ﷺ فاستمعْتُ لقراءته ، فإذا هو يقرؤُها على حروفٍ كثيرة ، لم يُقرئنيها رسولُ الله ﷺ كذلك ، فكدْتُ أساورُه في الصلاة ، فانتظرتُه حتى سلم ، ثم لبَّبْتُه بردائه ـ أو بردائي ـ فقلت: منْ أقرأكَ هذه السورة ؟

قال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ .

قلت له: كذَبْت . فوالله إن رسولَ الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتُك تقرؤها .

فانطلقتُ أقودُه إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: يارسولَ الله: إني سمعتُ هذا يقرأ بسورةِ الفرقان على حروفٍ لم تُقرئنيها ، وأنتَ أقرأتني سورةَ الفرقان !

فقال رسولُ الله ﷺ: أرسله يا عمر . إقرأ يا هشام .

---

(١) فتح الباري: ٣٠٤/١٢ .

فقرأ عليه القراءة التي سمعتُه يقرؤها. فقال رسولُ الله ﷺ: هكذا أنزلتْ.

ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: إقرأ يا عمر . فقرأتُ . فقال: هكذا أنزلتْ !

ثم قال: إن هذا القرآن أنزلَ على سبعةِ أحرف ، فاقرأوا ما تيسَّرَ منه»[1] .

قال ابنُ حجر في شرح الحديث: « ومناسبتُه للترجمة من جهةِ أن النبيَّ ﷺ لم يؤاخذ عمرَ بتكذيبِ هشام ، ولا بكونه لبّبه بردائه ، وأرادَ الإيقاعَ به ، بل صدَّقَ هشاماً فيما نقله ، وعذرَ عمر في إنكاره ، ولم يزدْه على بيانِ الحجة في جواز القراءتيْن »[2] .

إنَّ عمرَ رضي الله عنه قالَ ما قال في حقِّ هشام متأوِّلاً ، وقد عذره رسولُ الله ﷺ على خطأ تأويله لحسْن نيته ، ثم صوَّبَ له تأويله ، وقدَّم له الصوابَ في المسألة .

الحديث الثاني: عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾[3] شقَّ ذلك على أصحابِ النبي ﷺ ، وقالوا: أيُّنا لم يظلمْ نفسه ؟

فقال رسولُ الله ﷺ: ليس كما تظنّون . إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿ يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾[4] »[5]

قال ابنُ حجر: « ووجْهُ دخوله في الترجمة من جهة أنه ﷺ لم يؤاخذ

(١) صحيح البخاري: ٨٨ كتاب استتابة المرتدين: ٩ باب ماجاء في المتأولين حديث: ٦٩٣٦.

(٢) فتح الباري: ١٢/٣٠٥ .

(٣) سورة الأنعام: ٨٢ .

(٤) سورة لقمان: ١٣ .

(٥) صحيح البخاري ـ المرجع السابق ـ حديث: ٦٩٣٧ .

الصحابة بحملهم الظلمَ في الآية على عمومه ، حتى يتناولَ كلَّ معصية ، بل عذرهم لأنه ظاهرٌ في التأويل ، ثم بيّنَ لهم المراد بما رفعَ الإشكال»[1] .

لقد أوّلَ بعضُ الصحابة الآية على غير وجهها ، وفهموها فهماً غير صائب، واعتبروا الظلمَ فيها شاملاً لكلِّ معصية ، وهذا تأويلٌ خاطىءٌ منهم ، لكنه تأويلٌ باجتهاد ، فلم يؤاخذهم الرسولُ ﷺ على ذلك ، بل عَذَرَهم ، ثم صحح لهم تأويلهم وصوبَ لهم فهمَهم .

وهكذا الحديثان الآخران في الباب - الثالث والرابع - ففي الحديثِ الثالثِ أخطأ بعضُ الصحابة فهمَ وتأويلَ موقفِ أحدهم ، وهو مالكُ بنُ الدخشن، واعتبروه منافقاً بسببِ ذلك الموقف ، فصوبَ لهم رسولُ ﷺ تأويلهم، واعتبره مسلماً صادقاً ، وطالبهم بإجراء أحكام الاسلام على الظاهر ، ومع ذلك عَذَرَهم في فهمِهم ، ولم يؤاخِذْهم بتأويلهم .

وفي الحديث الرابع بيانُ خطأ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فهمِه وتأويله حيثُ كتبَ كتاباً إلى أهله في مكة ، يخبرُهم بتوجُّه رسول الله ﷺ لفتح مكة ، وذلك ليسَ إذاعة منه لسرِّ رسولِ الله ﷺ، وإنما ليقدمَ خدمةً لأهله في مكة . وقد صوّبَ له رسولُ الله ﷺ فهمَه وتأويله، ولم يؤاخذه به [2] .

إن رسولَ الله ﷺ قد رفضَ تأويلاتٍ غيرَ سديدة لبعض المسلمين ، وبيّن لهم المعنى الصائبَ والموقفَ الصحيح ، ولكنه عذرهَم لأنَّ ظاهرَ النص أو الحادثة قد يوحي بذلك التأويل الذي فهموه .

ومن هذه الأمثلة نرى أنَّ التأويلَ في عهدِ رسول الله ﷺ قد ورد بمعنى الفهم والتفسير والبيان ، سواء كان هذا صواباً أم خطأ .

---

(١) فتح الباري: ١٢/٣٠٥ .

(٢) انظر فتح الباري: ١٢/٣٠٣ - ٣١١ .

المطلب الثالث

كيف كان رسول الله يتأول القرآن ؟

للصحابةِ بعضُ الروايات في تأويل رسول الله ﷺ لبعض آيات القرآن، يوضِّحون فيها كيفية تأويلِه لها .

من هذه الروايات:

١ ـ روى البخاريُّ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: ركبَ رسولُ الله ﷺ على حمار ، على قطيفةٍ فدكيَّة ، وأردفَ أسامة بن زيد وراءه يعودُ سعدَ بن عبادة ، قبلَ وقعة بدر .

فمرَّ بمجلس فيه عبدُ الله بن أبيِّ بن سلول ، وذلك قبلَ أنْ يسلمَ عبد الله بن أبيِّ ، فإذا في المجلسِ أخلاط من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدُ الله بن رواحة .

فلما غشيت المجلسَ عَجاجة الدابة ، خمَّر عبدُ الله بن أبيِّ أنفه بردائه ، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا .

فسلَّم عليهم رسولُ الله ﷺ ، ثم وقفَ فنزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن .

فقال عبدُ الله بن أبيِّ: أيها المرء، إنه لا أحسنَ مما تقول ، إنْ كانَ حقاً فلا تؤذينا به في مجلسنا، إرجعْ إلى رَحْلك، فمَنْ جاءكَ فاقصُصْ عليه .

فقال عبدُالله بن رواحة: بلى يا رسولَ الله ، فاغشنا به في مجلسنا فإنا نحبُّ ذلك !

فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود ، حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبيُّ ﷺ يخفِّضُهم حتى سكنوا !

ثم ركبَ النبيُّ ﷺ دابتَه ، فسار ، حتى دخلَ على سعدِ بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: (ياسعد: ألم تسمع ما قال أبو حَبّاب - يريد عبدَ الله ابن أُبيّ - قال: كذا وكذا).

قال سعد: يارسولَ الله: اعفُ عنه واصفحْ عنه . فوالذي أنزلَ عليك الكتاب، لقد جاءَ اللهُ بالحقّ الذي أنزلَ عليك ، ولقد اصطلحَ أهلُ هذه البُحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة ، فلما أبى اللهُ ذلك بالحق الذي أعطاك ، شَرِقَ بذلك ، فذلك فعلَ به ما رأيت!

فعفا عنه رسولُ الله ﷺ .

وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يَعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصطبرون على الأذى . قال الله عزوجل: ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ [1] . وقال الله: ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ [2] .

وكان النبيُّ ﷺ يتأوّلُ العفوَ ما أمره الله به ، حتى أذن اللهُ فيهم .

فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدراً ، وقتلَ اللهُ به صناديدَ كفار قريش، قال ابنُ أبَي بن سلول ومَنْ معه من المشركين وعبدةِ الأوثان: هذا أمْرٌ قد توَجَّه، فبايَعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، وأسْلَموا . » [3] .

الشاهدُ في الحديث ذكْرُ - راويه - أسامة بن زيد - رضي الله عنه آيةً من كتاب الله ، أمرَ اللهُ فيها الرسولَ ﷺ والمؤمنين بالعفو والصفح عن أهل الكتاب والمشركين ، حتى يأتيَ اللهُ بأمره ، ويأمرهم بقتال الكافرين .

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة: ١٠٩

(٣) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١٥ باب: ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً: حديث رقم: ٤٥٦٦ .

وقولُ أسامة بن زيد رضي الله عنه بعد ذكر الآية: وكان النبيُّ ﷺ يتأوّلُ العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم .

فكيف كان تأويل رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

لقد كان تأويله فيهم هو التطبيقَ العمليَّ للآية التي أمرته بالعفو والصفح، والتنفيذ الفعليَّ لمضمونها ، حيث كان يعفو ويصفح فعلاً ، حتى أنزلَ اللهُ آيات بعد ذلك تأذنُ له بقتالهم .

إن تأويله الفعليَّ للآية ليس مجردَ فهمها وتفسيرها نظرياً ، ولكنه تحقيقُها في عالم الواقع ، وبيانُ مآلها العملي والواقعي .

٢ ـ روى الامامُ البخاريُّ في تفسير سورة النصر عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أنْ يقولَ في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك . اللهمّ اغفر لي ، يتأوّلُ القرآن .

وفي روايةٍ أخرى عنها قالت: « ما صلى النبي ﷺ صلاة ، بعد أنْ نزلتْ عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقولُ فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلي »[1].

إنَّ ما ترويه عائشة عن رسول الله ﷺ ، كان تأويلاً منه للقرآن . وتأويله للقرآن كان تأويلاً عملياً ، وتنفيذاً وتطبيقاً للأمر الذي أمره الله به.

أنزل اللهُ عليه سورة النصر ، وأمَرَه فيها بتسبيح الله وحمده واستغفاره: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ﴾ .

فكيف نفذ الرسولُ عليه الصلاة والسلام هذه الأوامرَ الربانية: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ ؟

لقد جعلها في صلاته ، ونفذها عَملياً ، فكان كثيراً ما يقولُ في ركوعه

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١١٠ سورة النصر: حديثان: ٤٩٦٧، ٤٩٦٨.

وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك ، وهذا تنفيذ لقوله تعالى: ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ . ويقول: اللهم اغفرلي ، وهذا تنفيذ لقوله تعالى: ﴿واستغفره ﴾ .

وعلقتْ عائشة رضي الله عنها على هذا التطبيق العملي للأوامر الربانية النظرية ، بأنه في هذا الفعل: يتاول القرآن .

وقال الإمامُ ابنُ حجر في شرحه للحديث: « ومعنى قوله: يتأول القرآن: يَجعلُ ما أُمرَ به من التسبيح والتحميدِ والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال»[1] .

تأويلُ الرسولِ ﷺ للآية: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ ليس مجردَ فهم وتفسير وبيان لها ، ولكنه تطبيقٌ وتنفيذ .

وهذا هو معنى التأويل الوارد في القرآن ـ كما سبقَ أنْ بيّنّا ـ فإذا كان تأويلُ الأمر هو فعله وتطبيقه عملياً ، فإن الرسولَ ﷺ هو أولُ مؤول للأوامر الربانية في القرآن، لأنه فعَلَها عملياً ، وأوجدَ حقيقتها المادية التي آلتْ إليها النصوص التكليفية .

٣ ـ أخرج الإمام أبو داود في سننه صفة حجةِ رسولِ الله ﷺ ، كما رواها عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . ونقتطفُ من كلام جابر ماله صلة بموضوع تأويل الرسول عليه الصلاة والسلام للقرآن .

قال جابر رضي الله عنهما: إن رسولَ الله ﷺ مكثَ تسعَ سنين لم يحج، ثم أذِن في الناس في العاشرة: أن رسولَ الله ﷺ حاج ، فقدِمَ المدينة بشرٌ كثير، كلهم يلتمسُ أنْ يأتمَّ برسولِ الله ﷺ، ويعملَ بمثل عمله.

حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدتْ أسماءُ بنتُ عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلتْ إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع ؟

(١) فتح الباري: ٧٣٤/٨ .

قال: اغتسلي ، واستثفري بثوبٍ وأحرمي .

فصلى رسولُ الله ﷺ في المسجد ثم ركبَ القصواء ، حتى إذا استوتْ به ناقتُه على البيداء .

فنظرتُ إلى مد بصري ، مِن بين يديه ، مِن راكبٍ وماش ، وعن يمينه مثلُ ذلك ، وعن يساره مثلُ ذلكُ ، ومِنْ خلفه مثلُ ذلك .

ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه يَنزلُ القرآن ، وهو يعلمُ تأويله، فما عملَ به من شيء عمِلنا به . . . . . »[1] .

إن جابرَ بنَ عبد الله رضي الله عنهما يحملُ تأويلَ القرآن على معناه العملي، وتطبيق أوامر وأحكام القرآن بصورةٍ فعليةٍ مادية .

فالله أمر المسلمين بالحج ، وتحدثتْ آياتُ القرآن عن مناسك الحج وأركانه ، لكن كيف يحجُّ المسلمون عملياً ؟ وكيف ينفِّذون اوامرَ الله بالحج فعلاً ؟ وبعبارة أخرى: كيف يُؤولُ المسلمون آياتِ الحج تأويلاً واقعياً ؟ يؤدُّون به مناسك الحج فعلاً !

يخبرُنا جابر رضي الله عنه أنهم اقتدوا بالرسول ﷺ وهو يؤدّي مناسكَ الحج، فهو موجودٌ بين أظهرهم ، وهو حيٌّ معهم ، وتنزلُ عليه آياتُ القرآن التي تبيِّن أركانَ ومناسكَ الحج ، وهو يعلمُ تأويلَ هذه الآيات ، وهم يقتدون به في تأويلِه العملي للآيات .

إنَّ تأويلَ الرسول ﷺ لآياتِ القرآن الآمرةِ بالحج هو أداؤه لمناسكِ الحج فعلاً، وتحقيقُ الصورةِ المادية الواقعية لها، وهذا هو معنى التأويل الوارد في القرآن .

تأويلُ الأمر أداؤه وتنفيذه ، ولهذا كان الرسولُ ﷺ في حجةِ الوداع هو أولَ مُؤوِّلٍ لآياتِ الحج في القرآن .

---

(١) سنن أبي داود: ١١ كتاب مناسك الحج: ٥٦ باب صفة حجة النبي . حديث رقم: ١٩٠٥ .

المبحث الثاني

كيف كان الصحابة يتأولون القرآن ؟

عرفنا من النماذج السابقة التي عرضناها كيف كان تأويلُ الرسول ﷺ للقرآن، وأنَّ تأويله لأوامره هو تنفيذُها فعلاً ، وتحقيقُها في عالم الواقع .

وإذا أردنا أنْ نقفَ على هذا اللون من تأويل الصحابة للقرآن ، فإنه لا يَخرجُ عن تأويل رسول الله ﷺ ، أي أنهم كانوا ينفِّذون أوامرَ النصوص عملياً، أو يُلاحظونَ صورتها المادية ، ومآلها العملي المستقبلي .

من الأمثلة التي توضحُ ذلك:

١ - أخرج الإمامُ أحمد عن سعيد بن جبير أنَّ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصليّ حيثما توجهتْ به راحلتُه . ويقول: قد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يفعلُ ذلك . ويتأوّلُ عليه قوله تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[1][2] .

إنَّ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما يرى جواز صلاةِ التطوع على الراحلة حيثما توجَّهت به الراحلة ، ولا يشترط فيها استقبالُ القبلة ، فلو صلى التطوعَ إلى غير القبلة وهو على راحلته صحتْ صلاتُه .

ويعتمدُ ابنُ عمر على ظاهر الآية ، فالآية تبينُ أنَّ المشرقَ والمغربَ لله، وأنَّ المصليَّ نافلةً أينما ولّى وجْهَه فهو يوليه لله ، وصلاتُه مقبولة لله .

---

(١) سورة البقرة: ١١٥ .

(٢) مسند احمد بن حنبل: ٤١/٢ .

كما يعتمدُ ابن عمر على فعْل رسولِ الله ﷺ ، ويقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يفعله . أي: رأى الرسولَ ﷺ يصلّي النافلة على الراحلة إلى غير القبلة .

والشاهدُ في هذا المثال في جملة: ويتأول عليه قوله تعالى:

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

أي: كان ابنُ عمر يفهمُ من الآية هذا الفهم ، ويعتبرُها دليلاً على جوازِ عدم استقبال القبلة في صلاة النافلة ، وبعد ذلك كان يصلي كما فهم.

فتأويلُ ابن عمر للآية هو فهمُها أولاً ، ثم تطبيقُها فعلاً ، وتحقيقُها عملياً ، وأداؤه صلاة النافلة وفقَ ما أذنتْ به .

٢ ـ روى الإمامُ البخاريُّ عن ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: الصلاةُ أوّلُ ما فُرضتْ ركعتين ، فأقرتْ صلاةُ السفر ، وأتمّتْ صلاة الحضر .

قال الزهري: فقلتُ لعروة: ما بالُ عائشة تُتِمّ ؟

قال عروة: تأوّلتْ ما تأوّلَ عثمان! [1]

تروي عائشة رضي الله عنها أنَّ الصلاة كانت ركعتين في السفر والحضر، عندما فرضها اللهُ على المسلمين ، وبعد ذلك جعلَ اللهُ صلاة الحضر أربعَ ركعات ، وأبقى صلاة السفر ركعتين .

وفي كلامها إشارة إلى إنَّ الأفضلَ للمسافر هو أنْ يقصرَ الصلاة الرباعية فيصليها ركعتين .

ولكنَّ عائشة كانت تسافرُ فتتمُّ الصلاةَ ولا تقصرها ، وهذا الفعلُ منها

---

(١) صحيح البخاري: ١٨ كتاب تقصير الصلاة: ٥ باب يقصر إذا خرج من موضعه . حديث رقم: ١٠٩٠ .

لا يحقُّ مع روايتها ، فلماذا لا تقصرُ الصلاة ؟

وقد لفتَ هذا نظرَ راوي الحديث ابن شهاب الزهريّ ، فسألَ شيخه عروةَ بن الزبير عنه: ما بالُ عائشة تتمُّ الصلاةَ عندما تسافر ؟

فأجابه عروة قائلاً: تأوّلَتْ كما تأوّلَ عثمان !

يشيرُ عروةُ إلى ما فعله عثمانُ بن عفان رضي الله عنه ، عندما كان أميراً للمؤمنين ، حيثُ ذهبَ إلى الحج ، وفي مكة كان يتمُّ الصلاة ولا يقصرها .

لقد سمّى عروةُ إتمامَ عثمانَ للصلاة رغم سفره تأويلاً ، لقوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا . . ﴾[1] .

كما اعتبرَ إتمامَ عائشة للصلاة تأويلاً لهذه الآية كما تأوّلها عثمان .

إن الآيةَ تأذنُ للمسلمين في قصر الصلاة الرباعية عندما يَضربون في الأرض، ويَخرجون للسفر .

وجملة ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ ليستْ قيداً للقصر ، بمعنى أنَّ القصرَ ليس مقروناً بخوفِ فتنةِ الكفار ، فإذا أمنَ المسلمون وزالَ الخوفُ والفتنة زال القصر .

إنّ هذه الجملة خرجتْ مخرجَ غالبِ أحوالِ الصحابة ، حيث كانوا في حرب مع الكفار ، وكانت أسفارُهم فيها خوفُ الفتنة .

وبعدما زال خطرُ الكفار ، وانتهت الفتنة ، وأمنَ المسلمون ، استمرتْ رخصة قصر الصلاة .

قال الإمامُ ابن كثير في تفسير الآية: « وأما قوله: ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكونُ هذا خرجَ مخرجَ الغالب، حالَ نزولِ هذه

---

(١) سورة النساء: ١٠١ .

الآية، فإنَّ في مبدأ الاسلام بعدَ الهجرة كان غالبُ أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزوٍ عام ، أوفي سريةٍ خاصة ، وسائرُ الأحياء حربٌ للإسلام وأهله.

والمنطوقُ إذا خرج مخرجَ الغالب ، أو على حادثة ، فلا مفهومَ له»[1].

ولهذا استوضحَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه من رسول الله ﷺ قصرَ الصلاة للمسافر مع الأمن .

أخرج الإمامُ مسلمٌ عن يعلى بن أمية قال: سألتُ عمرَ بن الخطاب: قوله تعالى: ﴿ وليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ . فكيفَ نقصرُ وقدْ أمنَ الناس؟

فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه . فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك . فقال لي: (صدقةٌ تصدقَ اللهُ بها عليكم ، فاقبلوا صدقته) .

وجوابُ الرسول ﷺ على تساؤلِ عمر دليلٌ على أنَّ القصرَ ليس مقروناً بالخوف ، فيجوزُ أنْ يكون مع الأمن ، وهذا القصرُ للمسافر رخصة من الله لعباده ، وصدقة تصدقَ بها عليهم .

ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يقصرُ الصلاة لما حجَّ حجة الوداع ، وقد زالَ خطرُ المشركين ، ودخلَ الناسُ في الإسلام .

وأخرج البخاريُّ وغيرُه عن حارثة بن وهب الخزاعيِّ رضي الله عنه قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ آمَنَ ما كان بمنى ركعتين .

وفي رواية أخرى له قالَ: صليتُ مع النبي ﷺ الظهر والعصرَ بمنى ، أكثر ما كان الناس ، وآمنه ، ركعتين .

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٥٩٨ ـ ٥٩٩ .

«صليتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين ، وأبي بكر وعمر وعثمان ، صدراً من إمارته ، ثم أتمها »[1] .

ورغم هذه الروايات التي تدلُّ على قصر الرسول ﷺ والصحابة الصلاة مع الأمن، إلا أنَّ عثمان وعائشة رضي الله عنهما أتما الصلاة ، وكان إتمامهما للصلاة تأويلاً كما قال عروةُ بن الزبير .

قال الإمامُ ابن حجر في شرح الحديث وبيانِ تأويلهما: « وقال ابن بطال: الوجْهُ الصحيحُ في ذلك أنَّ عثمان وعائشة كانا يريان أن النبيَّ ﷺ إنما قصرَ لأنه أخذ بالأيسر من ذلك على أمته ، فأخذا لأنفسهما بالشدة . وهذا رجَّحه جماعة ، من آخرهم القرطبي » .

ثم قال ابنُ حجر: « وأما عائشة فقد جاءَ عنها سببُ الإتمام صريحاً . وهو فيما أخرجه البيهقيُّ من طريق هشام بن عروة عن أبيه: أنها كانت تصلي في السفر أربعاً . فقلتُ لها ـ القائلُ ابنُ أختها عروةُ بن الزبير ـ لو صليتِ ركعتين.

فقالت: يا ابنَ أختي: إنه لا يشقُّ عليَّ .

وهو دالٌّ على أنها تأوَّلتْ أن القصرَ رخصة ، وأنَّ الإتمامَ لمن لا يشق عليه أفضل »[2].

إنَّ إتمامَ عثمان وعائشة رضي الله عنهما للصلاة مع السفر ، هو تأويلٌ منهما للآية التي ترخِّصُ بالقصر .

وتأويلهما هو فهمٌ للآية أولاً ، حيث فهما منها أنها تريدُ أن تيسرَ على المسلمين عند المشقة في السفر ، وأنَّ قصْرَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام أثناء سفره هو تيسيرٌ منه للأمة ، لأنه مشرِّع ، وأفعاله تشريع . أما هما

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في تفسير ابن كثير: ١/٥٩٨ ـ ٦٠١.
(٢) فتح الباري: ٢/٥٧١ .

لإن المشقة منتفية في حقهما ، والسفرُ لا يشقُّ عليهما ، ولذلك لم يقصرا الصلاة .

وتأويلهما للآية بعد ذلك أنهما أدّيا الصلاة فعلاً تامةً غيرَ مقصورة ، وهذا هو المظهرُ الماديُّ العمليُّ للتأويل ، حيث حققا الصورة المادية لمعنى الآية ، ونفّذا فعلاً ما دلتْ عليه الآية حسبَ فهمهما لها .

٣ ـ أخرج البخاريُّ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله: أينَ تنزلُ ؟في دارك بمكة ؟ فقال: وهل تركَ عقيلٌ من رباع أو دور؟ وكان عقيلٌ ورثَ أبا طالب ، هو وطالب ، ولم يرثه جعفرٌ ولا عليٌّ رضي الله عنهما شيئاً ، لأنهما كانا مسلمَيْن ، وكان عقيلٌ وطالب كافريْن، فكانَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يرثُ المؤمنُ الكافر .

قال ابن شهاب: وكانوا يتأوّلون قولَ الله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾[1][2] .

يخبرُ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه كان مع الرسول ﷺ لما توجّه إلى فتح مكة ، فسألَ أسامةُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام: أين سينزلُ في مكة ؟أينزلُ في داره فيها ؟ أم ينزلُ في دارٍ أخرى؟

فأخبره رسولُ الله ﷺ أن عقيلَ بن أبي طالب لم يتركْ له في مكة داراً، وذلك لأنه باعَ جميعَ دور هاشم بن عبد مناف ، وابنهِ عبدِ المطلب، التي آلتْ إلى أبي طالب وعبدِ الله والدِ رسول الله ﷺ .

لقد أسلمَ جعفرٌ وعلي ابنا أبي طالب رضي الله عنهما ، وبذلك فقدا

---

(١) سورة الأنفال: ٧٢ .

(٢) صحيح البخاري: ٢٥ كتاب الحج: ٤٤ باب توريث دور مكة وبيعها: حديث رقم: ١٥٨٨ .

حقُّهما في ميراث أبي طالب ، وطالب شقيقُ عقيل لـفَقْدِ في معركة بدر ، فلم يَبْقَ في مكة إلاّ عقيلُ بن أبي طالب ، وبذلك وضَعَ يده على دورِ أبي طالب وعبدِ الله والدِ الرسول عليه السلام ، ثم باعَ تلك الدور .

ولم يرثْ جعفرٌ ولا علي والدَهما أبا طالب لأنهما مؤمنان ، ولا يرثُ المؤمنُ الكافر ، كما قالَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ، وإنَّ اختلافَ الدين من موانع الإرث كما هو معلوم .

قال ابنُ شهاب الزهري راوي الحديث عن أسامة: إن الصحابة كانوا يتأوّلون الآية التي أوردَها بولايةِ الميراث[1] .

أي: المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار ، أولئكَ بعضُهم أولياءُ بعض، يتولى بعضُهم بعضاً في الميراث وغيره .

والشاهدُ في هذا المثال أنَّ ابنَ شهاب اعتبرَ عدمَ التوارث بين المؤمنين والكفار، وحصولَ التوارثِ بين المؤمنين فقط ، هو تأويلٌ من الصحابة لآيةِ سورة الأنفال: ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

وتأويلهم للآية أخذَ جانبَ التأويل العملي ، أي أنهم طبقوا حقيقة الآية عملياً ، ونفَّذوا توجيهها لهم فعلاً ، وأوجدوا مضمونها فيما بينهم ، وهذا هو التأويلُ الذي نتحدثُ عنه .

٤ ـ أخرج الامامُ البخاريُّ عن سعيد بن المسيب عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: « خرجَ النبيُّ ﷺ إلى حائطٍ من حوائط المدينة لحاجته ، وخرجْتُ في إثره . فلما دخلَ الحائط جلستُ على بابه ، وقلت: لأكوننَّ اليومَ بوّابَ النبي ﷺ ، ولم يأمرني .

فذهبَ النبيُّ ﷺ ، وقضى حاجته ، وجلسَ على قُفِّ البئر ، فكشفَ عن ساقيه ، ودلاّهما في البئر .

---

(١) فتح الباري: ٣/٤٥٢ .

فجاءَ أبو بكر يستأذنُ عليه ليدخل . فقلت: كما أنت حتى أستأذنَ لك . فوقف ، فجئتُ إلى النبي ﷺ ، فقلت: يانبيَّ الله: أبو بكر يستأذنُ عليك. قال: إئذن له ، وبشّره بالجنة ، فدخَل ، فجاءَ عن يمينِ النبي ﷺ، فكشفَ عن ساقيه ، ودلاهما في البئر .

فجاءَ عمر ، فقلت: كما أنتَ حتى أستأذن لك . فقال النبيُّ ﷺ: ائذنْ له، وبشّره بالجنة ، فجاءَ عن يسارِ النبي ﷺ ، فكشفَ عن ساقيه، فدلاهما في البئر . فامتلأ القُفّ ، فلم يكنْ فيه مجلس .

ثم جاءَ عثمان ، فقلت: كما أنتَ حتى أستأذنَ لك . فقال النبيُّ ﷺ: ائذنْ له وبشّره بالجنة ، معها بَلاءٌ يصيبُه . فدخل ، فلم يجدْ معهما مجلساً، فتحوّل، حتى جاء مقابلهم على شفةِ البئر ، فكشفَ عن ساقيه ، ثم دلاهما في البئر .

فجعلت أتمنى أخاً لي ، وأدعو اللهَ أن يأتي .

قال ابنُ المسيب: فتأوّلتُ ذلك قبورَهم ، اجتمعَتْ هاهنا ، وانفردَ عثمان»[1] .

إنَّ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يخبرُ عن اجتماع الرسول ﷺ مع أبي بكر وعمر على جانبٍ في حافةِ البئر ، وعن انفرادِ عثمان وجلوسه مقابلهم على الجانبِ الآخر من الحافة لعدمِ وجودِ مكانٍ له بجانبهم .

وهذا التقديرُ الربانيُّ لمواقعهم في هذه الجلسة يشيرُ إلى ما سيكونون عليه في المستقبل ، عند وفاتِهم جميعاً .

وقد فهمَ سعيدُ بن المسيب هذه الإشارة ، وعبَّرَ عنها قائلاً: فأوّلتُ ذلك قبورَهم ، اجتمعتْ هاهنا ، وانفردَ عثمان .

---

(1) صحيح البخاري: ٩٢ كتاب الفتن:١٧ باب الفتنة التي تموج كموج البحر حديث رقم: ٧٠٩٧ .

لقد كان قبرا أبي بكر وعمر بجانبِ قبر رسولِ الله ﷺ ، في المسجد النبوي، بينما كان قبر عثمان بعيداً في البقيع .

وكونُ قبورِ الثلاثة رضي الله عنهم على هذه الكيفية ، هو تأويلُ تقدير الله لمواقعهم على حافة البئر مع رسولِ الله عليه الصلاة والسلام .

وبعبارةٍ أخرى: تقديرُ الله لمواقعهم الثلاثة على حافةِ البئر وعدٌ بشيء سيتحقق فيما بعد ، وكان تأويلُ هذا الوعد تحقيقه وحصوله ووقوعه فعلاً. وهكذا كان، حيث دُفنَ الصاحبان بجانبِ رسولِ الله ﷺ، بينما دُفن عثمانُ في البقيع.

٥ ـ أخرج الامامُ الترمذيُّ عن أسْلمَ أبي عمران التُّجيبي قال: كُنّا بمدينةِ الروم ، فأخرَجوا إلينا صفّاً عظيماً من الروم ، فخرجَ إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عُقْبَةُ بن عامر ، وعلى الجماعة فُضالة ابن عُبَيْد ، فحملَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم ، حتى دخلَ فيهم، فصاحَ الناسُ وقالوا: سبحان الله: يُلقي بيديه إلى التهلكة .

فقامَ أبو أيوب فقال: يا أيها الناس: إنكم تتأوّلون هذه الآية . هذا التأويل ، وإنما أنزلتْ هذه الآية فينا معشرَ الأنصار ، لما أعزَّ اللهُ الإسلام، وكثُر ناصروه، قال بعضُنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إنَّ أموالنا قد ضاعت ، وإنَّ الله قد أعزَّ الاسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمْنا في أموالنا، فأصلحْنا ما ضاعَ منها . فأنزلَ اللهُ على نبيه ﷺ يردُّ علينا ما قلنا: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾. فكانتِ التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحَها ، وتركَنا الغزو . . .

فما زالَ أبو أيوب شاخِصاً في سبيل الله ، حتى دُفن بأرض الروم[1].

إنَّ الصحابيَّ الجليلَ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه وقفَ ليصحح

(١) سنن الترمذي: ٤٨ كتاب تفسير القرآن ٣ باب من تفسير سورة البقرة . حديث: ٢٩٧٢.

للمسلمين المجاهدين سوءَ فهمهم للآية ، ويصوِّبَ لهم تأويلهم المردودَ لها.

الآية هي قول الله: ﴿ وانفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين ﴾[1] .

كان الفهمُ والتأويلُ الخاطىءُ للآية أنَّ بعضَ المجاهدين اعتبرَ التهلكة ، هي اقتحامَ الأهوال والأخطار ، و مواجهة الأعداء ، واختراقَ صفوفهم ، وأنَّ مَنْ فعلَ ذلك فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة ، والله قد نهانا عن إلقاءِ أنفسنا في التهلكة .

ولهذا لما رأوا المجاهَد الشجاعَ يخترقُ صفوفَ الروم ، ويدخلُ فيهم ، ويقتلُ رجالهم ، انزلوا الآية على فعله ، فاعتبروا فعله مخالفاً لها ، فقالوا: سبحان الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة .

إنَّ سبب خطأ فهمهم وتأويلهم للآية أنهم لم يعرفوا سببَ نزولها ، ولذلك وقف أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يبينُ لهم سببَ نزولها ، وقال لهم: إنكم تتأوَّلون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلتْ هذه الآية فينا معشرَ الأنصار.

التهلكة هي في عدم الإنفاق في سبيل الله ، وفي القعودِ عن نصرةِ دين الله، وتركِ مواجهةِ أعداء الله ، والتخلي عن الجهادِ في سبيل الله ، والانصرافِ إلى الأعمالِ الشخصية على حسابِ قضايا الأمة .

أرادَ الأنصارُ الانصرافَ إلى أموالِهم وأراضيهم وبساتينهم ، التي أهملوها ووجَّهوا طاقاتِهم لنصرة الإسلام ، فبعدما نصرَ اللهُ دينه ، وكثَّرَ جنودَه وناصروه، لماذا لا يعودون إلى أموالهم؟

فأنزلَ اللهُ آيةً في القرآن تردُّ عليهم ، وتدعوهم إلى عدم التخلي عن الإنفاقِ والجهاد ، وعدم العودة إلى الأموال ، وتعتبرُ هذا تهلكةً خطيرة .

(١) سورة البقرة: ١٩٥ .

أي أنَّ التهلكة هي في القعود عن الجهاد والمواجهة ، وليستْ في المواجهةِ والتحدي .

لقد رفضَ أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه تأويلاً مردوداً للآية، تأويلاً يقودُ إلى القعودِ وعدم اقتحام الأهوالِ واختراقِ الصفوف .

وقدمَ تأويلاً صحيحاً للآية ، تأويلاً يدفعُ أصحابَه إلى الانفاقِ والجهاد والتحدي والشجاعة والإقدام .

التأويلُ هنا هو فهمٌ للآية ينتجُ عنه فعلٌ وتصرف ، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يريدُ تأويلاً وفهماً صائباً ، ينتجُ عنه فعلٌ إيجابي وتصرفٌ سليم .

أبو أيوب يريدُ اعتبارَ الآية داعيةً إلى الجهاد والإقدام والشجاعة ، ويريدُ من المجاهد تأويلَ الآية هذا التأويل ، أي: يريدُ منه تحقيقَ مفهوم هذه الآية في عالم الواقع إقداماً وتضحية .

إنَّ التأويلَ في هذا الحديث لا يخرجُ عن التأويل في الأحاديث السابقة، الذي هو فهمٌ للنص أو الحادث بتطبيقِه وتنفيذه وأدائِه في عالم الواقع .

دعاء الرسول لابن عباس بتعلم التأويل:

نقفُ وقفةً مناسبةً مع الصحابيِّ الجليل عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي كان من أعلم الصحابة بالقرآنِ وفقهه وفهمِه وتأويلِه ، والذي حازَ لقبَ «ترجمان القرآن» .

لقد دعا له رسولُ الله ﷺ بالفقهِ في الدين وعلم التأويل ، وقد وردَ هذا الدعاءُ في رواياتٍ عديدة ، بينها تفاوتٌ في العبارات .

١ ـ روى البخاريُّ في كتاب الوضوء عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: دخلَ النبيُّ ﷺ الخلاء ، فوضعْتُ له وَضوءاً ، فقال: مَنْ وضعَ

هذا؟ فأخبر . فقال: اللهمَّ فقهه في الدين [1] .

٢ـ وروى البخاري في . كتاب العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمّني رسولُ الله ﷺ إلى صدره وقال: (اللهم علمه الكتاب)[2] .

٣ ـ وروى البخاري في كتاب العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ضمّني رسولُ الله ﷺ إلى صدره، وقال: (اللهّم علّمْه الحكمة)[3] .

٤ ـ وروى مسلم في كتابِ فضائل الصحابة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أتى النبيُّ ﷺ الخلاء ، فوضعْتُ له وَضوءاً . فلما خرجَ قال:

مَن وضع هذا ؟ قالتْ ـ والقائلة ميمونة رضي الله عنها ـ: ابنُ عباس. قال: (اللهمّ فقههُ)[4] .

٥ ـ وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ وَضَعَ يده على كتفي ـ أو منكبي ـ ثم قال: (اللهّمّ فقههُ في الدين، وعلمْه التأويل)[5] .

٦ ـ وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسولَ الله ﷺ كان في بيتِ ميمونة ، فوضَعْتُ له وَضوءاً من الليل . فقالتْ ميمونة: يارسولَ الله: وضَع لك هذا عبدالله بن عباس .

---

(١) صحيح البخاري: ٤ كتاب الوضوء: ١٠ باب وضع الماء عن الخلاء. حديث رقم: ١٤٣ .

(٢) صحيح البخاري: ٣ كتاب العلم: ١٧ باب قول النبي اللهم علمه الكتاب . حديث: ٧٥ .

(٣) صحيح البخاري: ٦٢ كتاب فضائل الصحابة: ٢٤ باب ذكر ابن عباس . حديث رقم: ٣٧٥٦ .

(٤) صحيح مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة: ٣٠ باب فضائل ابن عباس . حديث رقم: ٢٤٧٧ .

(٥) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وفريقه: ٢٢٥/٤ . حديث رقم: ٢٣٩٧ .

فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهم فقههُ في الدين، وعَلِّمْه التأويل)[1].

لقد تعمدْتُ إيرادَ هذه الرواياتِ الستِّ لحديثِ ابن عباس ، ودعاءِ الرسول ﷺ له لأبينَ خطأ شائعاً عندَ بعض مَنْ يكتبون عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعلمِه بالتأويل .

إن الكثيرين يظنون أنَّ دعاءَ الرسول ﷺ بقوله: « اللهم فقهْه في الدين، وعلِّمه التأويل » رواه البخاري ومسلمْ . وهذا باطل ، فأطرافُ الحديث عند البخاري ومسلم ليس فيها: « وعلمه التأويل » . وإنما هذه الجملة عند أحمد وغيره .

ولهذا قالَ الإمام ابن حجر: « " وعَلِّمْه التأويل " هذه اللفظة اشتهرتْ على الألسنة ، حتى نسبَها بعضهم للصحيحين ! ولم يُصِبْ ! »[2]

قصة الحديثِ أن عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما أرادَ أن يتعرفَ على هدي رسولِ الله ﷺ في صلاة الليل ، فذهبَ إلى بيتِ ميمونة أمِّ المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ، لهذه الغاية ، وكان غلاماً مميزاً ، وفي الليل ، استيقظ رسولُ الله ﷺ ، ودخلَ الخلاء ، فأرادَ أنْ يخدمَه ، فوضعَ له إبريقَ الماء على باب الخلاء ، فلما خرجَ رسولُ الله ﷺ من الخلاء ورأى الماء ، أعجبَ بذلك التصرف ، الدالِّ على فطنةِ ونباهةِ صاحبه ، فسألَ ميمونة رضي الله عنها: مَنْ فعلَ هذا ؟ فقالت الغلامُ عبدُ الله بن عباس .

فضمَّ رسولُ الله ﷺ ابنَ عباس إلى صدره بحنانٍ ومودة ، ووضعَ يده على كتفه ، ودعا اللهَ له قائلاً: اللهمّ فقههُ في الدين ، وعلِّمْه التأويل .

أي أنّ الرسولَ ﷺ سألَ اللهَ أن يمنحه الفقهَ في الدين ، وفهمَ أحكامه، وأنْ يُفقِهَهُ في القرآن ، ويعلِّمَه تأويله ، ويوفقَه لحسن فهم معانيه .

---

(١) مسند أحمد ـ المرجع السابق: ١٥٩/٥ ـ ١٦٠ . حديث رقم: ٣٠٣٢ .

(٢) فتح الباري ١٠٠/٧.

ومعلومٌ أنَّ دعاءَ الرسول ﷺ مُجاب ، ولذلك مَنَّ اللهُ على ابن عباس بالفقهِ في الدين ، وعلم التأويل ، فصارَ بحقٍّ ترجمان القرآن .

ألفاظ رواياتِ البخاري ومسلم هي: « اللهمّ فقّهه » ، و « اللهم علّمْه الكتاب » ، و « اللهم فقّهه في الدين » و « اللهم علّمه الحكمة » .

أما الجملةُ المحفوظة: « اللهم فقّهه في الدين ، وعلّمه التأويل » فهي صحيحة ، وإن لم تكنْ في الصحيحين .

قال الشيخُ شعيب الأرناؤوط في تخريج أحاديث مسند أحمد ، عند تخريجه لهذا الحديث في مسند أحمد: « إسنادُه قوي ، على شرط مسلم، رجاله ثقات، رجالُ الشيخين، غيرَ عبدِ الله بن عثمانَ بن خثيم ، فمن رجال مسلم.

وأخرجَه يعقوبُ بن سليمان في « المعرفة والتاريخ ». وأخرجه الطبراني»[1].

وقال في موضع آخر، في تخريج هذا الحديث بإسنادٍ آخر، عن طريق آخر: « إسنادُه قوي ، على شرط مسلم ، وأخرجه ابنُ سعد ، وابن أبي شيبة ، ويعقوب بن سفيان ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم...»[2].

وقال الشيخُ شعيب الأرناؤوط في تخريج (اللهمّ فقهه في الدين وعلمه التأويل) في تحقيقه لكتاب « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز: أخرجَه بهذا اللفظ: أحمدُ ، والطبرانيُّ في الكبير والصغير ، والبخاري ومسلم دون «وعلمه التأويل» ، والترمذي ، وابن ماجه بزيادة « وتأويل الكتاب » ، والبغوي ، والبزار بلفظ « اللهم علمه تأويل القرآن»)[3].

---

(١) مسند أحمد: ٤/٢٢٥ ـ ٢٢٦ حاشية رقم (٣) .

(٢) المرجع السابق: ٥/١٦٠ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : بتحقيق الأرناؤوط والتركي: ١/٢٥٤ ـ ٢٢٥ . حاشية .

والخلاصةُ الحديثيةُ أنَّ دعاءَ الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: (اللهم فقّه في الدين ، وعلّمه التأويل) وردَ في حديثٍ صحيحٍ ، إسناده قوي ، على شرط مسلم .

وعندما ننظرُ في هذا الدعاء ، فإننا نرى الرسولَ ﷺ قد جمعَ بين الفقهِ في الدين وتعلُّمِ التأويل ، وعطفَ علمَ تأويل القرآن على الفقه في الدين.

إنَّ قوله: وعلمه التأويل » أو « علّمه تأويلَ القرآن » يدلُّ على أنَّ التأويلَ علمٌ مستقل قائمٌ بذاته ، وأنَّ التأويلَ يخصُّه الانسانُ بالتعلم والتحصيل والاكتساب ، إضافةً إلى ما وهبه اللهُ من ملكةٍ وموهبةٍ وفطنة .

والتأويلُ المذكورُ هنا هو المعنى الثاني الذي تحدَّثنا عنه أثناءَ وقفتنا مع آيةِ المحكم والمتشابه في سورةِ آل عمران ، وهو الفهمُ والفقهُ والتفسيرُ والبيان.

لقد علمَ اللهُ ابنَ عباس رضي الله عنهما تأويلَ القرآن ، ففهمَ معاني القرآن، وأوَّلَ آياتِه .

وندعو إلى ملاحظةِ تحقق معنى التأويل في فقهِ اللغة ـ الذي سبقَ أنْ قرَّرْناه ـ على علم ابن عباس بتأويل القرآن .

فإذا كان أساسُ اشتقاقِ ومعنى التأويل هو الردُّ والحملُ والإرجاعُ والإحالة ، وبيانُ المرجع والمآلِ والعاقبة والنهاية ، فإنَّ تأويلَ ابن عباس للقرآن بالمعنى العلمي ، الذي أتقنه وفقهه ، يبدو فيه المعنى الأصليُّ ظاهراً.

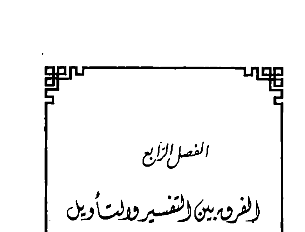
فعندما كان ابنُ عباس يُؤَوِّلُ آيةً من القرآن ، فإنما كان يحملها على المعلوماتِ التفسيرية الصحيحة من أحاديث وأسباب نزول ولغة العرب ، ويُعيدُها إليها ، وينظرُ في الآية التي يُؤَوِّلُها على ضوء هذه المعلومات التي بين يديه ، فيكونُ تأويله لهذه الآية صائباً ، وفهمُه لها صحيحاً ، واستنباطُه منها دقيقاً ، وهو بهذا التأويل يقدمُ حقيقة معنى الآية ، ويقررُ مآلها وعاقبتها العلمية التي تريدُ تقريرَها .

وبهذا نرى الجمعَ بين المعنى العلمي للتأويل والمعنى العملي الواقعي له ، ونرى تحققَ معناه الأصلي اللغوي في هذيْن النوعيْن من استعمالاته: الاستعمالِ العلمي الذي استعمله فيه ابنُ عباس ، والاستعمالِ العملي الذي وردَ في نصوص أخرى ، سبقَ أنْ أوردناها .

وعلى ضوءِ هذا نفهمُ كلامَ ابن عباس رضي الله عنهما ، الذي أوردَه له الامامُ الطبري في مقدمة تفسيره: قال ابنُ عباس: التفسيرُ على أربعة أوجه: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها ، وتفسيرٌ لا يُعذرُ أحدٌ بجهالته ، وتفسيرٌ يعلمه العلماء ، وتفسيرٌ لايعلمه إلا الله »[1] .

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر: ٧٥/١ .



الفصل الرابع

الفرق بين التفسير والتأويل



الفرق بين التفسير والتأويل

نُذكِّرُ بما سبقَ أن عرضْناه ، من معنى التفسير والتأويل .

فالتفسير هو: الكشفُ والبيان والظهور .

والتأويل هو: الردُّ والإرجاعُ وبيان العاقبة والمآل .

ونذكِّرُ بما سبق أن قررْناه من أنَّ التأويل له معنيان:

التأويل العملي: وهو المذكورُ في القرآن وغالبِ الأحاديث النبوية ، وهو ردُّ النصوص والأشياءِ إلى غايتها المرادة منها . وتحقيقُها فعلاً في عالم الواقع ، وتحديدُ عاقبتها ونهايتها ، وبيانُ ماتؤولُ إليه .

والتأويل العلمي: وهو حسنُ فهم النصوص التي فيها غموضٌ أو إبهام، أو شبهةٌ أو إشكال، وذلك بردِّها إلى نصوص أخرى واضحةٍ محددة ، وحمْلِها عليها ، وفهمِها على ضوئها ، وإزالةِ غموض أو إشكال تلك النصوص . وإنفاذ النظر المتدبر في تلك النصوص، واستخراجُ ما فيها من لطائف ودلالات.

وكلامُنا هنا ليس عن التأويل العملي ، وإنما عن التأويل العلمي ، فهو الذي يوضَعُ مقابلَ التفسير ، عندما يُستعملُ المصطلحان في فهم القرآن .

تفسيرُ آيات القرآن هو: فهمُهما وبيانُ معانيها وإظهارُ دلالاتها .

وتأويلُ آيات القرآن هو: إزالة ما فيها من غموض أو إشكال . وفهمُهما فهماً صائباً ، وتأويلها تأويلاً صحيحاً ، واستنباط لطائفها ودلالاتها ، واستخراجُ حقائقها وإشاراتها .

أشهر الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلفَ العلماءُ في بيان الفروقِ بين التفسير والتأويل ، وتعددتْ أقوالهم في ذلك وتضاربت .

وسنذكُر أهمَّ هذه الأقوال ، ثم نتبعُها بما نراه راجحاً إن شاء الله .

أوردَ الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في مقدمةِ «التفسير والمفسرون».

سبعةَ أقوالٍ في الفرق بينهما[1] .

١ ـ التفسير والتأويل: مصطلحان مترادفان بمعنى واحد ، فلا فرق بينهما، ومعناهما بيانُ القرآن وشرحُ آياته وفهمُها .

وهذا قولُ أبي عبيدة معمر بن المثنى ومَنْ معه .

وهذا قولٌ مرجوح لأن التفسيرَ والتأويل مصطلحان قرآنيان ، فلا بد من ملاحظةِ الفروق بينهما ، فلا ترادفَ في كلمات القرآن، ولن نجدَ فيه كلمتين بمعنى واحد ، قد يكون بينهما تقاربٌ شديد في المعنى ، بحيث تخفى الفروقُ بينهما على كثير من الناس ، لكنَّ المتدبرين يقفون على فروقٍ دقيقةٍ خفية بينها.

٢ ـ التفسير: بيانُ معاني القرآن من باب الجزم والقطع ، وذلك لوجودِ دليلٍ لدى المفسر، يعتمدُ عليه في الجزم والقطع .

والتأويل: بيانُ معاني القرآن من بابِ الاحتمال وغلبة الظن والترجيح ، لعدم وجودِ دليل لدى المؤَوِّل يعتمدُ عليه في الجزم والقطع .

وهذا قولُ أبي منصور الماتريدي .

٣ ـ التفسير: بيانُ معاني الألفاظ القرآنية الظاهرة ، التي وُضعتْ لها في اللغة . كتفسير الصراط بالطريق ، والصيِّب بالمطر .

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي: ١/١٩ ـ ٢٢ .

والتأويل: بيانُ باطن الألفاظ القرآنية ، والإخبارُ عن حقيقةِ المراد بها .

والمثالُ على هذا الفرق قوله تعالى: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [1] فهذه الآية لها تفسيرٌ وتأويل .

تفسيرُها: أن المرصادَ من الرصد والمراقبة. أي:إن اللهَ مطلعٌ على كل ما يعمل الظالمون، يراها ويعلمُها ويرصدُها، ويسجلها عليهم ليحاسبهم عليها.

وتأويلها: تحذرُ الآية من التهاون بأمر الله ، والغفلةِ عن الأهبة والاستعدادِ للعرض عليه يوم القيامة .

وهذا قولُ أبي طالب التغلبي .

٤ ـ التفسير هو: فهمُ الآياتِ على ظاهرها ، بدون صرفٍ لها عنه .

والتأويل هو: صرفُ الآيات عن ظاهرها إلى معنى آخر ، تحتمله الآيات، ولا يخالفُ الكتابَ والسنة ، وذلك عن طريقِ الاستنباط .

وهو قول البغوي والكواشي .

٥ ـ التفسير: هو الاقتصارُ على الاتباع والسماع والرواية ، والاكتفاءُ بما وردَ من مأثورٍ في معاني الآيات .

والتأويل: استنباط المعاني والدلالات من الآيات ، عن طريق الدرايةِ والتدبر وإعمالِ الفكر والنظر .

وهذا قول أبي نصر القشيري ، وهو الذي رجَّحه الدكتورُ الذهبي[2] .

٦ ـ التفسير هو: بيانُ المعاني القريبة التي تؤخذ من الآيات ، من كلماتِها وجملها وتراكيبها، عن طريق الوضع واللغة .

والتأويلُ هو: بيانُ المعاني البعيدة التي تُلحظ من الآيات ، وتوحي بها

(١) سورة الفجر: ١٤ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون: ١/٢٢ .

كلماتها وجملها وتراكيبها عن طريق الإشارة واللطيفة والإيحاء .

ومالَ إلى هذا القول الآلوسي في تفسيره « روح المعاني » .

أما إيرادُ الذهبي لرأي الراغب الأصفهاني في التفسير والتأويل فسناخذه من مقدمة تفسيره « جامع التفاسير » بعد قليلٍ إن شاء الله .

ومما عرضَه الإمامُ السيوطي في « الاتقان في علوم القرآن » من الفروق بين التفسير والتأويل ـ إضافةً إلى ما ذكرْناه سابقاً :

٧ ـ التفسير: أكثرُ استعماله في الألفاظ والمفردات .

والتأويل: أكثرُ استعماله في المعاني والجمل .

٨ ـ التفسير: بيانُ ألفاظ القرآن التي لا تحتملُ إلا معنى واحداً .

والتأويلُ: توجيهُ ألفاظ القرآن التي تحتملُ عدة معانٍ ، إلى معنى واحد، اعتماداً على الأدلةِ في ذلك[1] .

وهذه الأقوالُ متقاربة كما سنبينُ بعد قليل إن شاء الله .

الفرق بينهما عند الراغب وأبي البقاء وفرحات:

يَطيبُ لي أنْ أسجلَ آراءَ ثلاثةِ علماء: قديم ومتأخر ومعاصر ، في بيان الفرقِ بين التفسير والتأويل ، ثم أُوردُ بعد ذلك رأيي في المسألة .

الأول: هو الإمامُ الراغب الأصفهاني ، حيث يقولُ في مقدمة تفسيره «جامع التفاسير » .

التفسيرُ أعمُّ من التأويل .

وأكثرُ ما يُستعملُ التفسير في الألفاظ. والتأويلُ في المعاني. كتأويل الرؤيا.

(١) انظر « الاتقان » للسيوطي بتحقيق الدكتور مصطفى البغا: ٢/١١٨٩ ـ ١١٩١

والتأويل: يُستعملُ أكثره في الكتب الإلهية. والتفسيرُ يستعملُ فيها وفي غيرها .

والتفسير: أكثرُه يستعملُ في مفردات الألفاظ. والتأويل: يستعمل أكثره في الجُمل.

فالتفسير:

أ ـ إما أنْ يُستعملَ في غريبِ الألفاظ نحو: « البَحيرة » و « السائبة » و «الوصيلة» .

ب ـ أو في وجيز يُبيَّن ويُشرح ، كقوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[1] .

جـ ـ وإمّا في كلام مضمَّن بقصة ، لا يمكن تصوُّره إلا بمعرفتها نحو قوله: ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾[2] .

وقوله : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾[3].

وأما التأويل:

أ: فإنه يُستعملُ مرة عاماً ، ومرة خاصاً ، مثل « الكفر » و «الإيمان».

فالكفرُ يُستعملُ تارةً في الجحود المطلق، ويُستعملُ تارة في جحود الباري خاصة . والإيمان يُستعملُ تارةً في التصديق المطلق، ويُستعملُ في تصديق دين الحق خاصة.

ب: ويُستعملُ في لفظٍ مشتركٍ بين مَعانٍ مختلفة . مثل لفظ « وَجَدَ » فإنه يُستعمل في الجِدَة والجَديد ، ويستعمل في الوَجْد ، ويستعمل في الوجود .

---

(١) سورة البقرة: ٤٣ .

(٢) سورة التوبة: ٣٧ .

(٣) سورة البقرة: ١٨٩ .

والتأويل نوعان: مُستكره ومُنْقاد .

فالمستكره هو: ما يُستبشَعُ إذا سُبِرَ بالحجة، ويُستقبحُ بالتدليسات المزخرفة.

وهو على أضربٍ أربعة:

الأول: أنْ يكون لفظ عام ، فيخصِّصُ في بعض ما يدخل تحته ، نحو قوله تعالى: ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾[1] .

حملَ بعضُهم « صالح المؤمنين » على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقط .

الثاني: أنْ يلفَّقَ بين اثنين . نحو قول مَنْ زعمَ أنَّ الحيوانات كلها مكلفة، محتجاً بقوله تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [2]. وقد قال تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [3]

فاستدلَّ بعضُهم بقوله: ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ على أن الحيواناتِ مكلفة كما أننا مكلَّفون .

الثالث: ما استُعينَ فيه بخبرٍ مزوَّر ، أو كالمزوَّر . كقوله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾[4]

قال بعضهم: عنى بالساق: الرجلَ الجارحة ، مستدلاً بحديثٍ موضوع ،

الرابع: ما يُستعانُ به باستعاراتٍ واشتقاقاتٍ بعيدة .

كما قال بعضُ الناس: البقر: هو إنسانٌ يقرُّ عن أسرارِ العلوم .

والهدهد: هو إنسانٌ موصوفٌ بجودةِ البحث والتنقير .

---

(١) سورة التحريم: ٤ .

(٢) سورة فاطر: ٣٤ .

(٣) سورة الأنعام: ٣٨ .

(٤) سورة القلم: ٤٢ .

فالضربُ الأول: أكثرُ ما يَروجُ على المتفقـهة ، الذين لم يَقْوَوْا في معرفةِ الخاص والعام .

والضرب الثاني: أكثرُ ما يَروجُ على المتكلم ، الذي لم يَقْوَ في معرفةِ شرائط النظم .

والضرب الثالث: أكثرُ ما يَروجُ على صاحبِ الحديث ، الذي لم يتهذبْ في شرائطِ قبولِ الأخبار .

والضرب الربع: أكثر ما يروجُ على الأديب ، الذي لم يتهذبْ بشرائط الاستعارات والاشتقاقات .

والمنقادُ من التأويل: هو مالا يعرضُ فيه البشاعةُ المتقدمة .

وقد يقعُ الخلافُ فيه بين الراسخين في العلم ، لإحدى جهات ثلاثة:

الأولى: الاشتـراكُ في اللفظ ، نحـو قـوله تعـالى: ﴿ لا تدركـه الأبصار﴾[1] فهل ﴿ الأبصار ﴾ من بَصر العين ، أو بصر القلب؟

الثانية: أمـرٌ راجعٌ إلى النظـم . نحـو قـوله تـعالى: ﴿ وأولـئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾[2] .

فهل هذا الاستثناءُ ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ مقصورٌ على المعطوف ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ ؟أو مردودٌ إليه وإلى المعطوفِ عليه معاً:

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ .

الثالثة: لغـموض المعنى ، ووجازة اللـفظ ، نحو قـوله تعـالى: ﴿ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾[3] .

والوجوهُ التي يُعتبرُ بها تحقيقُ أمثالِها ، وتقودُ إلى ترجيح المناسب من

(١) سورة الأنعام: ١٠٣ .

(٢) سورة النور: ٤ ـ ٥ .

(٣) سورة البقرة: ٢٢٧ .

الأقوال المختلفة في التأويل، أنْ يُنظرَ في المختلفِ فيه:

١ ـ فإنْ كان المختلفُ فيه أمراً، أو نهياً عقلياً، فُزِعَ في كشفه إلى الأدلة العقلية، وقد حثَّ اللهُ على ذلك في قوله: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك، ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا الألباب ﴾[1].

٢ ـ وإنْ كانَ المختلفُ فيه أمراً شرعياً، فُزِعَ في كشفه إلى آيةٍ محكمة، أو سُنّةٍ مبيَّنة.

٣ ـ وإنْ كانَ من الأخبارِ الاعتقادية، فُزِعَ فيه إلى الحججِ العقلية.

٤ ـ وإنْ كان من الأخبارِ الاعتبارية، فُزِعَ فيه إلى الأخبارِ الصحيحة، المشروحةِ في القصص[2].

الثاني: هو الإمامُ أبو البقاء الكفوي.

قال في كتابه القيم « الكليات » عن التفسير والتأويل:

« التفسيرُ والتأويل: قيل هما واحد، وهو كشفُ المراد عن المشكل.

وقيل: التأويل: بيانُ أحد محتملاتِ اللفظ.

والتفسير: بيانُ مرادِ المتكلم.

وقيل: التأويل: ما يتعلقُ بالدراية.

والتفسير: ما يتعلقُ بالرواية.

وعند الراغب الأصفهاني: التفسيرُ أعمُّ من التأويل. وأكثرُ استعمال التفسير في الألفاظِ ومفرداتها، وأكثرُ استعمالِ التأويل في المعاني والجمل. وأكثرُ استعمالِ التأويل في الكتب الإلهية، والتفسيرُ يستعملُ فيها وفي غيرها.

وقال أبو منصور الماتريدي: التفسير: القطعُ على أنَّ المرادَ من اللفظ

---

(١) سورة ص: ٢٩ .

(٢) مقدمة « جامع التفسير » للإمام الراغب الأصفهاني بتحقيق أستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ٤٧ ـ ٥١ بتصرف يسير للتوضيح .

هذا، والشهادة على الله انه عَنى باللفظ هذا ، فإنْ قامَ دليلٌ مقطوعٌ به فصحيح ، وإلا فتفسيرٌ بالرأي ، وهو المنهيُّ عنه . والتأويلُ ترجيحُ أحدِ المحتملات بدون القطع والشهادةِ على الله .

وكلامُ الصوفية في القرآن ليسَ بتفسير .

وفي « عقائد النسفي »: النصوصُ على ظاهرها ، والعدولُ عنها إلى معانٍ يَدّعيها أهْلُ الباطن إلحاد .

وفي معنى الظهر والبطن وجوه: أشبهها بالصواب ماقاله أبو عبيد ، وهو أنّ القصصَ التي قصَّها اللهُ عن الأمم الماضية وماعاقبهم به ، ظاهرها الإخبارُ بهلاك الأولين ، وباطنُها وعظ الآخرين ، وتحذيرٌ لهم ، لا يفعلوا فعلهم ، كي لا يحلَّ به مثلُ ماحلَّ بالأولين .

وفي تفسير أبي حيان: كتابُ الله جاءَ بلسانٍ عربي مبين ، لا رمزَ فيه ولا لغزَ ولا باطن ، ولا إيماءَ بشيء مما ينتحله الفلاسفة وأهلُ الطبائع .

وأما ما يَذهبُ إليه بعضُ المحققين من أنَّ النصوصَ على ظواهرها ، ومع ذلك فيها إشاراتٌ خفية إلى دقائقَ تنكشفُ على أربابِ السلوك ، يمكنُ التطبيقُ بينها وبين الظواهر المرادة، فهذا من كمالِ الإيمان، ومحض العرفان.

وتفسيرُ القرآن: هو المنقولُ عن الصحابة . وتأويله: ما يُستخرجُ منه بحسب القواعدِ العربية .

فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿ يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي﴾[1] : أريدَ به إخراجُ الطير من البيضة كان تفسيراً ، ولو قلنا: أريدَ به إخراجُ المؤمنَ من الكافر ، والعالم من الجاهل ، كان تأويلاً »[2].

الثالث: هو استاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات .

فبعدَ أنْ سجلَ أهمَّ الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل ، قال:

---

(١) سورة الأنعام: ٩٥ .

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

«والذي نميلُ إليه: أن التفسيرَ فيه معنى الكشفِ والبيان والتفصيل .

وأنَّ التأويلَ فيه معنى الرجوع والردِّ والصرفِ والسياسة .

وبناءً على ذلك نرى أنه لا تعارضَ بين الأقوال ، وأن كلاً من هذه الأقوال يُعبِّرُ عن نوع من الأنواع ، التي تنطوي تحتَ التفسير أو التأويل .

فالذي قال: إنَّ التفسيرَ هو القطعُ على أنَّ المرادَ من اللفظ هذا ، إنما نظرَ إلى نوع من التفسير ، وهو الذي يعتمدُ على دليل قطعي ، من قرآنٍ أو سنةٍ أو إجماع ، وهذه ولا شك إحدى الحالات التي تواجهُ المفسر .

ومثله الذي قال: التفسيرُ هو بيانُ مرادِ المتكلم ، أو هو ما يتعلقُ بالرواية ، أو هو بيانُ موضوعِ اللفظ .

يلاحَظ بأنَّ التفسيرَ في كلِّ هذه الأقوال فيه معنى الكشف والبيان .

والذي يقول: إن التأويل: هو ترجيحُ أحدِ محتملات اللفظ ، بدونِ القطع والشهادة على الله ، أو هو ما يتعلقُ بالدراية ، أو هو صرفُ الآيةِ إلى معنى تحتمله ، أو هو المعنى غيرُ المتبادر . . .

ويلاحظ أنَّ كلَّ ما ذُكِـرَ من أنواع وأمثلة ، تدخلُ تحت التأويل ، وتحتاجُ إلى تدبر الكلام ، وتقليبه على الوجوه المحتملة ، وقد تصرفُه عن ظاهره لدليل، وقد تقبلُ ظاهرَ الكلام المتبادر مع القول بمعنى آخر غير متبادر . إذ لا تعارضَ بينهما .

وبناءً على هذا: يرجعُ الاختلافُ بين العلماء في هذا إلى اختلافِ التنوُّع، لا اختلاف التضادّ .

حيثُ عبَّرَ كلُّ واحدٍ منهم عن نوع من أنواع التفسير ، أونوع من أنواع التأويل »[1] .

---

(١) التعريف بالقرآن الكريم ـ على الآلة الكاتبة ـ لأستاذنا الدكتور احمد فرحات: ١١١ .

الراجح في الفرق بين التفسير والتأويل:

لانسى أنّ أساسَ معنى التفسير هو الكشفُ والبيانُ والظهور والوضوح . وأنّ أساسَ معنى التأويل هو الردُّ والرجوعُ والعود والحمل ، وتحديدُ العاقبةِ والمآلِ والغاية والنهاية .

ولا ننسى كلامَ الإمامَ الراغب الأصفهاني عن التأويل: « هو رَدُّ الشيءِ إلى الغايةِ المرادة منه علماً أو عملاً » .

إننا مع أستاذنا الدكتور أحمد فرحات في أنه يمكنُ الجمعُ بين معظم الأقوال السابقة في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ، وأنّ الاختلاف في معظمها اختلافُ تنوع ، لا اختلافَ تضادّ .

وننتقلُ بعد هذه الملاحظةِ إلى خطوةٍ أخرى في الفرق بين التفسير والتأويل .

إننا نرى أنّ فهمَ القرآن وفقهَ معانيه واستخراجَ دلالاته، لا بدّ أنْ يكون على مرحلتَيْن متدرجتَيْن:

المرحلة الأولى: تفسيرُ القرآن .

المرحلة الثانية: تأويلُ القرآن .

كلُّ ناظر في القرآن ، متدبر في آياته، لا بدّ أنْ يطّلعَ على تفسير القرآن أولاً ، ويعلمَ تفسيره من المصادر التفسيرية .

ثم يقومُ بعد ذلك بتأويل القرآن ، وملاحظةِ لطائفه ، وتسجيل حقائقه، واستخراج دلالاته .

إننا نرى أنّ تفسيرَ القرآن لا بدّ أنْ يسبقَ تأويله ، حتى يكون التأويلُ صواباً صحيحاً . إنّ أيّ تأويل للقرآن بدون تفسير له ، هو تأويلٌ بالرأي غير المعتمد على العلم ، وهو مذمومٌ ومنهي عنه .

بناءً على هذا التفريق المرحليِّ بين التفسير والتأويل ، يمكننا أنْ نجمعَ بين

أقوالٍ عديدة ، سبقَ أنْ أوردْناها في التفسير والتأويل .

المرحلة الأولى تفسيرُ القرآن: نرى المفسرُ فيها يفسرُ ألفاظ وكلماتِ القرآن، ويعتمدُ في تفسيره على الروايةِ والمأثور ، ويوردُ في تفسير الآية ما في معناها من آياتٍ أخرى ، ومن أحاديثَ نبوية صحيحة ، ومن أقوالِ صحابة وتابعين ، ومن أسبابِ نزول ، وتفسير غريب ، وناسخ ومنسوخ، وتوجيهِ قراءات ، وشواهد أشعار . وهو في عمله هذا يفسِّر ظاهرَ الآية، ويوردُ المعنى القريبَ المتبادَرَ منها ، ونظراً لما عنده من نصوص يوردُ تفسيرَ الآية من بابِ الجزم والقطع .

هذا كلُّه تشمله المرحلةُ الأولى ، التي هي البدايةُ لفهم القرآن ، والتي أسميناها « تفسير القرآن » .

ونلاحظ توفُّرَ المعنى اللغويّ الاشتقاقي للتفسير في هذه المرحلة ، فالمفسِّر في عمله يبينُ معنى الآية ويشرحُه ويُظهره ، ويفسره ويكشفُ عنه .

واعتمادُ المفسِّر في هذه المرحلة على المعلوماتِ التفسيريةِ العلمية الصحيحة، وعلى آراءَ مَنْ سبقوه من علماء التفسير ، وجهدُه فيها في المعرفةِ والاطلاع ، بهدفِ تكوين حصيلةٍ علمية ، تؤهله للانتقال للمرحلة الثانية ، وتُعينه على حسنِ تأويل القرآن .

المرحلة الثانية تأويلُ القرآن: ينتقلُ إليها المفسرُ ليكونَ مُؤَوِّلاً للقرآن ، وينظرُ في القرآن على ضوء معلوماته التفسيرية التي حصَّلها في المرحلة الأولى .

إنّ المؤوِّلَ في هذه المرحلة: يمعنُ النظرَ في الجمل والتراكيب والآيات ، ويعتمدُ في نظره على تدبره وإعمالِ عقله ، وتقليبِ وجوه الرأي والنظر ، وتنفذ نظراته إلى باطن الآية ، ويلتفتُ إلى لطائفها وإشاراتها وإيحاءاتها ، ويستخرجُ حقائقها ودلالاتها ، ويلحظ المعنى البعيدَ غيرَ المتبادَر للذهن ، وغيرَ الظاهر من الآية ، ويسجلُ التوجيهَ والرمزَ والومضة التي تشرقُ بها

الآية ، ويقفُ على غرضِها ومقصودِها ، ويُزيلُ ما عليها من لبس أو اشتباه ، ويحلُّ ماثيره من غموض أو إشكال .

عملُ المُؤوِّل في المرحلةِ الثانية عملٌ ذاتي ، وليس اعتماداً على مَنْ سبقه كما فعَل في المرحلة الأولى ، ونتاجُه في هذه المرحلة نتاجٌ شخصي ، وتأويلاته التي يقدمُها هي ثمرةُ تدبُّره للقرآن ، ونظره فيه ، وشخصيتُه في هذه المرحلة بارزةٌ واضحة ، وجهْده الذاتي فيه ملحوظ ، ورأيُه مسجَّلٌ معتبر .

وكما لاحظنا توفُّرَ معنى التفسير اللغوي الاشتقاقي في المرحلةِ الأولى ، فإننا نرى توفُّرَ معنى التأويل اللغوي الاشتقاقي في هذه المرحلة .

إنَّ التأويلَ هو الردُّ والرجوع ، والمُؤوِّلُ هنا يحقِّقُ معناه ، فعندما يقدمُ تأويلاتِه لابدَّ أنْ يردَّها إلى معلوماتِه التفسيرية ، ويرجعَ بها إليها ، فإن تعارضتْ تأويلاتُه مع النصوص التفسيرية ألغاها وتخلى عنها ، لأنَّها تأويلاتٌ باطلةٌ خاطئة .

إن المُؤوِّلَ يصححُ لنفسه بعد ما يؤوِّل ، ويصوِّبُ تأويله على هدي تفسيره ، وينظرُ في تأويله على ضوءِ تفسيره ، ويعيدُ تأويله إلى تفسيره ، ويردُّه إليه ، ويرجعُ به عليه .

أي: يحاكمُ المُؤوِّلُ المرحلة الثانية « التأويل » إلى المرحلةِ الأولى «التفسير»، ويردُّ التأويلَ إلى التفسير ، ويفهمُ التأويل على ضوء التفسير .

وجوب تحقق التفسير والتأويل معاً:

يجبُ على كلِّ ناظر في القرآن متدبر له ، أنْ يحققَ المرحلتين في تعامله مع القرآن ، ومحاولةِ فهمه .

إذا أعملَ رأيه في الآيات ، وحاولَ استخراجَ معانيها ، وتأويلَ حقائقها دون دراسةٍ تفسيرية في التفاسير المأمونة الموثوقة ، فإنه سيخطىءُ في نظره

ورأيِهِ وتدبره وتأويله ، وهذا هو التأويلُ بالرأي غير المستند إلى العلم ، وهو مذمومٌ وباطل .

إنه في هذه الحالةِ لم يسلك الطريقَ الصحيحَ لحسن فهم القرآن ، بل تخطى المرحلة الأولى وتجاوزَها ولم يتوقفْ عندها ، وقفزَ قفزةً خاطئة إلى المرحلةِ الثانية ، اعتداداً بعقله غير الناضج تفسيرياً ، وإعمالاً لرأيه غير المصوغ صياغةً تفسيرية علمية .

وما أكثرَ هؤلاء الذين يهجمون على تأويل القرآن بهذه الصفة ، في هذا الزمان ، الذين يقفزون للمرحلةِ الثانية قفزاً واسعاً في الفراغ ! فيفهمون آيات القرآن فهماً خاطئاً ، قائماً على المزاجية والهوى ، ويُقَوِّلون هذه الآيات مالم تقله، ويستشهدون بها على مالا تشهد عليه ، ويَستخرجون منها ما لا تدلُّ عليه ، ويؤوِّلونها تأويلاً باطلاً مردوداً مستكرَهاً !

كذلك لا نرى أن يقفَ الناظرُ في القرآن عند المرحلة الأولى ، وأنْ يبقى ضمنَ دائرة تفسير القرآن ـ على المعنى الذي قررْناه ـ وأنْ يكتفيَ بترديدِ ما وقفَ عليه في تفسير الآيات من أقوالٍ مأثورة ، وأحاديثَ صحيحة ، ورواياتٍ في النزول والنسخ والغريب ، وأنْ يكررَها وأنْ ينقلها من تفاسير السابقين إلى تفسيره .

لا نريدُ للمفسر أن يكون مجردَ ناقل لكلام السابقين ، وراويةٍ لآرائهم. وإنْ كان هناك بعضُ المفسرين كانوا هكذا ، وكتبوا تفاسيرهم هكذا ، واكتفوا فيها بتكرارِ الأقوالِ السابقة التي أوردَها السابقون .

أينَ جهدُ المفسر الذاتي ؟ وأين شخصيتُه المستقلة ؟ وأين اختياراتُه وترجيحاته؟ وأين تأويلاتُه واستنتاجاتُه ؟ أين تدبرُه هو ، ونظرُه هو في القرآن ؟

إنّ انتقالَ الناظر في القرآن من مرحلةِ المفسر إلى مرحلةِ المؤوِّل ضروري، وإن استخراجَ الدلالاتِ واللطائف والحقائق من القرآن مطلوب ، وإن بناءَ

التأويل على التفسير واجب .

وإننا نعلمُ أن بعضَ الناظرين في القرآن لايستطيعُ الانتقالَ إلى المرحلة الثانية ، فيبقى « يُراوح » مكانه في المرحلة الأولى . إنه غيرُ مؤهَّل ليكون مؤوِّلاً ، ولا يملكُ من عمق النظر وإعمالِ الفكر ما يعينُه ليكون مؤوّلاً .

إن التأويلَ « فتوحاتٌ » من الله ، و « فيوضاتٌ » منه ، ومواهبُ يهبها سبحانه لمن يشاء ، ونِعَمٌ يُنعمُ بها على مَنْ يشاء .

ويتفاوتُ المؤوِّلون في تأويلاتهم ، في عمقِها وجدِّتِها وأصالتِها وفاعليتها وتأثيرها . وكأنَّ المؤوّلين صيادون يريدون اصطيادَ اللطائف ، واقتناصَ الإشاراتِ والومضات والإيحاءات!

هناك صيادٌ يصطاد الصيدَ القريب ، وهناك صياد ينجحُ في اصطياد السريع الخفي البعيد ، وهناك مَنْ يصطادُ صيداً صغيراً ، وهناك مَن يقتنصُ الصيدَ الثمينَ الغني الوفير .

وهكذا المؤوِّلون في تأويلاتهم للقرآن ، والمهمُّ هو أنْ يردّوا هذه التأويلات إلى التفاسير السابقة ، وأنْ يرجعوا بها إليها ، وأنْ يصحّحوها على أساسها .

وهذا يقودُنا إلى التذكير بحقيقة : إذا كان التفسيرُ والتأويل مرحلتين متعاقبتين، وإذا كان بعضُ المفسِّرين بقي مع المرحلة الأولى ، فإن كلَّ مؤوِّل مفسِّر ، وليس كل مفسِّر مؤوِّلاً .

فلا بد للمؤوِّل من أن يكون مفسِّراً أولاً ليصحَّ تأويله ، ولكن المفسِّر قد لا يتمكنُ من الارتقاءِ إلى مستوى التأويل !! .

الدليل على هذه المرحلية:

قلنا إنهما مرحلتان في فهم القرآن: تفسيرُه أوّلا ، ثم تأويله بعد ذلك، وأنه لا يجوزُ التأويلُ قبلَ التمكن من التفسير ، وأن كلَّ مؤول مفسر ، وليس كل مفسر مؤولاً .

والدليلُ على هذه المرحلية ، هو تفاوتُ الصحابة في فهم معاني القرآن، فمنهم مَن كان يكتفي بالوقوفِ مع ظاهر الآيات ، ويقدمُ معناها القريبَ المتبادر، ومنهم مَن كان يعمقُ التدبرَ فيها ، ويدركُ إشاراتها وإيحاءاتها ، ويقدمُ المعنى البعيدَ اللطيفَ الرشيقَ غيرَ المتبادر .

في مقدمة هؤلاء عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي دعا له الرسولُ ﷺ قائلاً: « اللهمَّ فقِّههُ في الدين ، وعلِّمه التأويل » .

وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما من أعلم الصحابةِ بتفسير القرآن وتأويله ، ولهذا حازَ لقب « ترجمان القرآن » .

ما كل الصحابةِ كانوا مؤوّلين للقرآن ، وإنْ كانوا مفسّرين له ، أما ابنُ عباس فقد كان مفسِّراً مؤوِّلاً ، رضي الله عنه .

روى الإمامُ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « كان عمرُ يُدخلني مع أشياخ بدر ، فكأنَّ بعضَهم وَجدَ في نفسه ، فقال: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ، ولنا أبناءٌ مثله ؟

فقال عمر: إنه مَنْ علمتم .

فدعاه ذاتِ يوم ، فأدخَله معهم .

فما رُئيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلاليُريهم .

قال: ما تقولون في قولِ الله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟

فقال بعضهم: أمِرْنا نحمدُ الله ونستغفرُه ، إذا نصرنا وفتح علينا .

وسكتَ بعضهم ، فلم يقل شيئاً .

فقال لي: أكذلك تقولُ يا ابنَ عباس ؟

فقلت: لا .

قال: فما تقول ؟

قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، فقال له: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، وذلك علامةُ أجلك ، ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا ﴾ .

قال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول »[1] .

لقد أجرى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه امتحاناً لابن عباس وبعض الصحابة ، في فهمهم لسورةِ النصر ، فالصحابة كانوا مفسِّرين لها ، لكنَّ ابنَ عباس كان مؤوِّلاً لها .

أخبرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما أن عمرَ كان يقدِّمُه ، ويُدخله مع أشياخ بدر ، مع أنه شاب ، وهؤلاء شيوخ ، وتقديمُ عمر له لما لاحظه من فطنتِه وذكائه وبُعْدِ نظره ورجاحةِ عقله .

ولما لاحظ العباسُ اهتمامَ عمر بابنه عبدِ الله رضي الله عنهم ، أوصاه قائلاً: يا بُنيّ: إن عمر يُدنيك ، فلا تُفشِيَنَّ له سراً ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً ، ولا يَسمعْ منك كذباً ، ولا تبتدئه بشيء حتى يسألكَ عنه .

ولما رأى بعضُ أشياخ بدر إشراكَ عمر لابن عباس معهم ، وَجدوا ذلك في نفوسهم ، فقال عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه لعمر: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟

فأجابه عمر قائلاً: إنه مَنْ قد علمتُم .

---

(1) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ٤باب قوله ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ . حديث رقم: ٤٩٧٠ .

وهذه إشارة من عمر إلى فطنةِ ابن عباس وذكائه وعلمه ومعرفته .

وفي روايةٍ ثانيـة أنَّ بعضَ المهاجرين قـالوا لعمـر: ألا تدعـو أبناءنا كما تدعو ابنَ عباس ؟

فقال لهم عمر: ذاكُم فتى الكُهول، وإن له لساناً سئُولاً ، وقلباً عقولاً.

وأرادَ عمـر أنْ يبينَ لهؤلاء الـصحابة علـمَ ابن عباس وفـطنته ، فـدعاهم ودعاه يوماً .

وفهـمَ ابنُ عباس قـصدَ عـمر من الدعـوة ، ولهذا قـال: فما رُئيتُ أنه دعاني يومئذ إلا ليُريهم .

وفي روايةٍ أخرى: أن عـمرَ قال لهم: سـأريكم اليومَ منه ، ما تعـرفون به فضْله !

ولما اجتمعوا عندَ عمر ، طلبَ منهم تفسيـرَ سورة النصـر: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً ﴾ .

لقـد نظروا في آيـاتِ الـسورة نـظرةً ظاهرية ، ولاحَظوا المعنى القـريبَ المتبـادرَ منها: عندما يأتي اللهُ بنصـره ، ويفتحُ البلدان أمامَ الاسـلام ، فعلى الرسولِ عليه الصلاة والسلام أنْ يسبحَ الله ، وأن يحمدَه ، وأن يستغفرَه ، والله توابٌ يتوب على عباده .

هل كلامُهم هذا خطأ أم صواب ؟

لقد كان صواباً ، فهذا هو معنى السورة ، وهذا ما تأمرُ به .

لكن هؤلاء الصحابة كـانوا مفسِّرين للسـورة ، فسَّروا كلماتها تفسيـراً ظاهرياً قريباً ، وكان تفسيرُهم لها صحيحاً ، لكنه مجردُ تفسير .

أما ابنُ عباس فقد كان يعرفُ من السورة ما قالوه ، ويعرفُ أنَّ هذا هو ظاهرها ، ولكنـه تجاوزَ هـذا الظاهر ، وانتـقل من تفـسيـرها القـريبِ إلى

خطوة أخرى أرفعَ وأسمى وأبعد ، وقدَّمَ تأويلاً للسورة تأويلاً مستنبَطاً من موضوعها وهدفها وسياقها .

إن اللهَ أعلمَ رسوله ﷺ بقرب دنُوِّ أجله ، إن النصر والفتحَ علامة على قرب الأجَل ، فعليه الإكثارُ من حمدِ الله وتسبيحه واستغفاره ، استعداداً للارتحال عن هذه الدنيا ومغادرتها .

وقال ابنُ عباس في رواية أخرى: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ نُعيتْ إلى رسولِ الله ﷺ نفسُه ، فاجتهدَ بأشدِّ ما كان قط ، اجتهاداً في أمر الآخرة .

ولقد كان ابنُ عباس موفَّقاً في هذا التأويل للسورة ، وفي الالتفاتِ لهذا المعنى الخفيِّ البعيدِ الذي توحي به ، وقد أشادَ عمرُ بفهمه ، ووافقه عليه، وقال له: ما أعلمُ منها إلا ما تقول .

ثم توجَّه عمرُ للصحابة الجالسين فقال لهم: كيف تلومونني على حُبِّ ما ترون؟

قال الامامُ ابن حجر بعد شرحه للحديث: « فيه جوازُ تحديثِ المرءِ عن نفسه بمثل هذا ، لإظهارِ نعمة الله عليه ، وإعلام مَنْ لا يعرفُ قدره لينزلَ منزلتَه ، وغير ذلك من المقاصد الصالحة ، لا للمفاخرة والمباهاة ، وفيه جوازُ تأويل القرآن بما يُفْهمُ من الإشارات ، وإنما يتمكنُ من ذلك مَنْ رسختْ قدمُه في العلم »[1] .

تشيرُ سورةُ النصر إلى ارتباطِ حياةِ الرسول ﷺ على الأرض بهذا الدين، فهو رسولُ الله ، ومهمتُه هي تبليغُ الاسلام ونصرتُه وجهادُ أعدائه، فإذا ما نصرَ اللهُ دينه ، ومنحَ المسلمين الفتح ، فقد تحققتْ مهمةُ الرسول ﷺ بنجاح كبير ، وبذلك تنتهي حياته على الأرض ، المرتبطة بمهمته الدعويةِ الجهادية .

---

(١) انظر شرح ابن حجر للحديث في فتح الباري: ٨/٧٣٥ ـ ٧٣٦ .

وللذلك توحي هذه السورةُ للرسول ﷺ بقربِ انتهاءِ أجله ، وعليه بعدَ النصر والفتح الإكثارُ من التسبيح والتحميد والاستغفار، استعداداً للانتقالِ إلى الدارِ الآخرة .

هذا ما فهمه ابنُ عباس رضي الله عنهما من السورة ، وهذا ما وافقه عليه عمرُ بن الخطاب ، وبذلك كان ابنُ عباس مؤوِّلاً لها وليس مجرد مفسر ، وكان تأويله مرحلةً ثانية بعد التفسير الظاهري للسورة .

ألم يفهم الرسولُ ﷺ من السورة هذه الإشارة ؟

روى الامامُ البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما صلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أنْ نزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقولُ فيها: سبحانك ربَّنا وبحمدك ، اللهم اغفرلي »[1] .

ثم كم عاشَ رسولُ الله ﷺ بعد نزول هذه السورة ؟

لقد نزلتْ عليه سورة النصر لما حجَّ حجة الوداع . قال ابن عمر رضي الله عنهما: « نزلتْ هذه السورة في أوسطِ أيام التشريق في حجة الوداع، فعرفَ رسولُ الله ﷺ أنه الوداع »[2] ..

وكانت وفاته ﷺ بعد ثلاثة أشهر من نزولِ هذه السورة . حيث كانت وفاتُه يومَ الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة !

ولابن عباس رضي الله عنهما موقفٌ آخر مع عمربحضورِ بعض الصحابة، قدَّمَ فيه تأويلاً لآية من القرآن ، وليس مجردَ تفسيرٍ لها .

روى الإمامُ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن عُبيدْ بن عُمَيْر

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١١٠ باب: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾. حديث رقم: ٤٩٦٧ .

(٢) فتح الباري: ٧٣٦/٨ .

قال: قالَ عـمرُ رضي الله عنه يوماً لأصحابِ النبي ﷺ: « فيم ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾[1] .

فقالوا: اللهُ أعلم !

فغضبَ عمرُ وقال: قولوا نعلم ، أو لا نعلم !!

فقال ابنُ عباس: في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين !

قال عمر: يا ابنَ أخي: قلْ ولا تحقِرْ نفسَك !

قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل .

قال عمر: أيُّ عمل ؟

قال ابن عباس: لعمل .

قال عمر: لرجل غني ، يعملُ بطاعةِ الله عزوجل ، ثم بَعثَ الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرقَ عمله »[2] .

وفي روايةٍ ثانية أوردَها ابنُ حجر في فتح الباري: « أنَّ ابنَ عباس قال لعمر: ضُربتْ مثلاً لعمل .

فقال له عمر: أيُّ عمل ؟

قال ابنُ عباس: شيءٌ أُلقيَ في رُوعي . عنى بها العمل: ابنُ آدم أفقرُ ما يكون إلى جنته إذا كبرَ سنُّه وكثرَ عياله ، وابنُ آدم أفقرُ ما يكون إلى عمله يومَ يُبعث !

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٦ .

(٢) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ٤٧ باب: أيود أحدكم . حديث رقم: ٤٥٣٨ .

فقال له عمر: صدقتَ يا ابن أخي »[1] .

أما الإمامُ ابنُ جرير الطبري فقد أوردَ روايةً أخرى لهذا الحديث .

فقد روى الطبريُّ بإسنادِه عن عطاء قال: « سالَ عمرُ الناسَ عن هذه الآية ، فما وجَدَ أحداً يشفيه .

حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أميرَ المؤمنين: إني أجدُ في نفسي منها شيئاً .

فتلفتَ عمرُ إليه ، وقال له: تحوَّلْ ههنا . لِمَ تحقرُ نفسَك ؟

قالَ ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ عزوجل . فقال: أيودُّ أحدُكم أن يعملَ عمرَه بعمل أهل الخير وأهل السعادة ، حتى إذا كان أحوجَ ما يكون إلى أن يختمه اللهُ بخير ، حين فنيَ عمرُه ، واقتربَ أجله ختمَ ذلك بعمل مِنْ عمل أهل الشقاء ، فأفسدَه كلَّه ، فأحرقه وهو أحوجُ ما يكونُ إليه »[2] .

إن ابنَ عباس هنا كان مؤَوِّلاً لهذه الآية ، ملتفتاً لمغزاها وهدفها .

ولهذا عقَّبَ الإمامُ ابن حجر على الحديث قائلاً: « وفي الحديثِ قوة فهم ابن عباس ، وقربُ منزلته من عمر ، وتقديمُه له من صِغره ، وتحريضُ العالم تلميذِه على القول بحضرةِ مَنْ هو أسَنُّ منه ، إذا عَرَفَ فيه الأهلية ، لما فيه من تنشيطِه وبسطِ نفسه وترغيبه في العلم » .

مع فهم الطبري للتأويل:

الإمامُ أبو جعفر محمدُ بنُ جرير بن يزيدِ الطبري ، المتوفى سنة ثلاثمائة وعشر للهجرة ، هو إمامُ المفسرين والمؤَوِّلين جميعاً .

---

(١) فتح الباري: ٢٠٢/٨

(٢) تفسير الطبري ـ طبعة دار الفكر: ٧٥/٣ .

وتفسيرُه هو المرجعُ لكلِّ ناظر في القرآن ، أو مفسِّر له ، أو مؤول لآياته .

وللإمام الطبريِّ فهمٌ واضح للتفسير والتأويل ، حيثُ يعتبرُهما مصطلحَيْن بمعنى واحد ، فكأنَّهما مترادفان ، يدلان على شرح آياتِ القرآن ، وبيانِ معانيها ، والكشفِ عن موضوعاتها وحقائقها .

إن الإمامَ الطبريَّ يستعملُ التأويلَ بمعنى التفسير ، ولهذا سمّى تفسيرَه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن » .

وكان عندما يفسرُ الآية يقول: « القول في تأويل الآية » . وعندما يذكرُ أقوالَ العلماء في تفسير الآية يقول: « اختلفَ أهلُ التأويل في تأويل الآية » .

فالتأويلُ في كلامه بمعنى التفسير .

ولهذا قال في خطبة تفسيره: « ونحن ـ في شرح تأويله ، وبيانِ مافيه من معانيه ـ مُنْشِئون إنْ شاءَ الله كتاباً مستوعِباً ، لكلِّ ما بالناس الحاجة إليه مِن عِلمِه ، جامعاً ، ومن سائر الكتبِ غيره في ذلك كافياً . »[1]

وقد عقدَ الإمامُ الطبريُّ مبحثاً في مقدمة تفسيره ، جعلَ عنوانه: «القولُ في الوجوهِ التي مِنْ قِبَلِها يوصَلُ إلى معرفةِ تأويل القرآن » ، وأراد من هذا المبحث بيان الوجوهِ التي يستطيعُ العلماءُ تأويلَ القرآن بها ، وبيان أقسام القرآن من حيثُ التأويل .

إنَّ الطبري يرى أنَّ القرآن من حيثُ التأويل ثلاثة أقسام ، بدأها بقوله: ونحنُ قائِلون في البيان عن وجوهِ مطالب تأويلِه[2] .

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن .للطبري بتحقيق محمود شاكر: ١/٦ ـ ٧ .
(٢) المرجع السابق: ١/٧٣ .

القسمُ الأول: لا يمكنُ لعالم تأويله إلا بالاطلاع على تأويل الرسول ﷺ له.

وقد أوردَ ثلاثَ آيات، تدلُّ على أنَّ اللهَ أوكلَ لرسوله ﷺ مهمة بيانِ القرآن وتأويله، ثم قال: « إنَّ مما أنزلَ اللهُ على نبيه ﷺ، مالا يوصلُ إلى علم تأويله إلا ببيانِ الرسولِ ﷺ ».

وذلكَ تأويلُ جميع ما فيه: مِن وجوهِ أمره ونهيه، ووظائفِ حقوقه وحدودِه، ومبالغ فرائضه. وما أشبه ذلك من أحكام آياته، التي لا يدركُ علمُها إلا بالبيان الذي قدَّمه الرسولُ ﷺ لأمته.

وهذا الوجهُ لا يجوزُ لأحد القولُ فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ وتأويله، وذلكَ بالاطلاع على بيانِ الرسول عليه الصلاة والسلام.

القسمُ الثاني: تأويله خاصٌّ بالله الواحدِ القهار، ولا يعلمه أحدٌ من الناس.

وهو ما في القرآنِ من الخبر عن آجالٍ حادثة، وأوقاتٍ آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزولِ عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك.

فإنَّ تلك أوقاتٌ لا يعلمُ أحدٌ حدودَها، ولا يعرفُ أحدٌ من تأويلِها إلا الخبرَ بأشراطها. لأنَّ اللهَ استأثرَ بالعلم بها، ولم يُطلعْ عليها أحداً من خلقه.

قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة، أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٧.

وكان نبيُّنا محمدٌ ﷺ إذا ذكرَ شيئاً من ذلك القسم ، لم يدلّ عليه إلا بأشراطه ، دون تحديده بوقته ، فلما ذكرَ عليه الصلاة والسلام الدجال ، لم يحدِّدْ وقتَ خروجه ، لعدم علمه بذلك الوقت ، واكتفى بتحذير أصحابه قائلاً: « إنْ يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجُه دونكم ، وإنْ يخرجْ ولستُ فيكم ، فامرؤٌ حَجيجُ نفسه ، واللهُ خليفتي على كل مسلم » .

فهذا يدلُّ على أنَّ الرسولَ ﷺ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ أشياء تحدثُ في المستقبل ، بمقادير السنين والأيام ، لأن هذا خاصٌّ بالله .

القسم الثالث: يعلمُ تأويله كلُّ ذي علم باللسان العربي الذي أنزلَ اللهُ به القرآن .

وذلك مثلُ: إقامةِ إعرابِ القرآن ، ومعرفةِ المسمياتِ المذكورة في القرآن بأسمائها اللازمة لها، والموصوفاتِ بصفاتِها الخاصة بها ، فإنَّ ذلك لا يجهله أحدٌ منهم .

فلو أنَّ سامعاً من العرب سمعَ قول الله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[1] . لم يجهلْ أنَّ معنى الإفساد هو كلُّ ما فيه مضرة، مما ينبغي تركه ، ومعنى الصلاح هو كلُّ ما فيه منفعة ، مما ينبغي فعله ، وإنْ جهلَ المعاني التي جعلها اللهُ إفساداً ، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً.

فالذي يعلمُه ذو اللسان العربي من تأويل القرآن هو ما وصَفْتُ ، من معرفةِ أعيانِ المسميات بأسمائها اللازمة ، والموصوفاتِ بصفاتها الخاصة .

ولا يعلمُ الواجبَ من أحكام الآيات وصفاتها وهيآتها التي خصَّ اللهُ نبيَّه بعلمها ، فلا يُدرَكُ علمُها إلا ببيانه عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة البقرة: ١١ ـ ١٢ .

كما لا يعلمُ تأويل ما استأثرَ اللهُ بعلمه دون خلقه .

ولهذا قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: التفسيرُ على أربعة أوجه: وجهٍ تعرفه العربُ من كلامها . وتفسير لا يُعذرُ أحدٌ بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

والوجهُ الرابعُ الذي ذكره ابنُ عباس ، مِن أنَّ أحداً لا يُعذَرُ بجهالته ، هذا لا حاجة للبيان عن وجوهِ تأويله ، لأنه لا يجوزُ لأحدٍ الجهلُ بتأويله[1] .

وخلاصةُ كلام ابن جرير الطبري أنه يقسمُ القرآن من حيثُ إمكانية تأويله وتفسيره أقساماً ثلاثة:

القسم الأول: لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ومَثّل له بتحديدِ أوقاتِ ومقادير وسنوات وكيفياتِ أحداثٍ قادمة ستقعُ عند قيامُ الساعة ، وهذا هو التأويلُ العملي ، الذي يلحظ مآلَ وعاقبة ونهاية تلك النصوص ، ويركزُ على حقيقتها المادية ، وكيفيتها الفعلية .

القسم الثاني: هو الذي أوّله وفسَّره رسولُ الله ﷺ ، وهي آيات الأحكام، وما فيها من أوامرَ أو نواهٍ ، أو حدودٍ وأركانٍ وشروط ، وذلك كأوقاتِ الصلاة وركعاتها وأركانها وسننها .

ويوجبُ على علماءِ التأويل الاطلاعَ على ما بيّنه رسولُ الله ﷺ والأخذ به، وعدمَ مخالفته .

القسم الثالث: وهو ما تُرك تأويله وتفسيرُه لعلماء التأويل ، حيثُ يقفون أمامه متدبرين ناظرين مفسِّرين مؤوِّلين ، كإعرابِ القرآن وشرح بيانِه وبلاغته ، وشرْحِ معانيه .

ولئن مُنعَ العلماءُ من الخوض في تأويل القسم الأول الخاصِّ بالله ،

---

(١) جامع البيان للطبري: ١/ ٧٣ ـ ٧٦ بتصرف واختصار .

ولئن الزموا بالأخذِ بتأويل الرسول ﷺ للقسم الثاني وعدم مخالفته ، فإنَّ المجالَ أمامهم واسعٌ مفتوحٌ في القسم الثالث ، فبإمكانهم أنْ يقفوا أمامَه ، وأنْ يخوضوا فيه ، إذا توفرتْ فيهم الشروط والمؤهّلات العلمية لذلك .

ثم إنَّ القسمَ الثالث المخصصَ لعلماء التأويل كثيرٌ في القرآن ، بل إن غالبَ ومعظمَ آياتِ القرآن من القسم الثالث ، بينما آياتُ القسمين الأول والثاني قليلةٌ بالقياس إلى آياتِ القسم الثالث .

وأيضاً فإنَّ العلماءَ يعلمونَ معاني آياتِ القسم الأول والثاني ، ويمكنهُم بيانُها وشرحُها وتفسيرُها ، لكنهم لا يقدرون على تأويلها ، بمعنى تحديدِ حقيقتها وكيفيتها ووقتها وصورتها ، أو مخالفةِ ما قاله الرسول ﷺ فيها .

وبهذا التفصيل من الإمام ابن جرير الطبري في فهمِه للتأويل، نختمُ كلامَنا عن الفروقِ بين التفسير والتأويل .

التأويل بمعنى الصرف والتحويل:

عرَضْنا فيما مضى معنيين للتأويل:

الأول: بيانُ ما يَؤُول وينتهي إليه الشيء ، وتحديدُ حقيقةِ الخبر وصورتِه الفعلية ، وأداءُ الأمر وتحقيقه . وهذا هو معناه في القرآن ، وغالبُ أحاديثِ رسول الله ﷺ ، وغالبُ فهم الصحابة .

الثاني: الفهمُ والتوضيحُ والبيان ، وهو قريبٌ من معنى التفسير ، وهذا هو معناه في بعض أحاديثِ رسول الله ﷺ ، وبعض كلام الصحابة ، وعند معظم المفسرين ، وفي مقدمتهم الإمامُ ابنُ جرير الطبري .

ونتكلمُ هنا عن معنى ثالثٍ للتأويل ، هذا المعنى طارىءٌ متأخّر ، لم يستعمله الرسولُ ﷺ ولا الصحابة والتابعون ، وإنما استعمله المتأخّرون .

التأويلُ عند المتأخرين من الأصوليين والفقهاء هو: الصرفُ والتحويل .

ترى هذا التعريفَ للتأويل في كتبِ أصول الفقه ، وعلم الكلام .

قال الإمامُ ابنُ تيمية في رسالة « الإكليل في المتشابه والتأويل » عن هذا المعنى للتأويل: « إنَّ التأويلَ في عُرف المتأخرين من المتفقهةِ والمتصوفة والمتكلمة والمحدِّثة هو: صرفُ اللفظِ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح، لدليل يقترن به » .

هذا هو التأويلُ الذي يتكلّمون عليه في أصولِ الفقه ومسائلِ الخِلاف . فإذا قالَ أحدُهم: هذا الحديثُ أو هذا النص مُؤوَّل ، أو محمولٌ على كذا، قال الآخر: هذا نوعٌ تأويل ، والتأويلُ يحتاجُ إلى دليل .

والمؤوِّلُ عليه وظيفتان:

الأولى: بيان احتمالِ اللفظ للمعنى الذي ادَّعاه .

والثانية: بيان الدليل الموجبِ للصرفِ إليه عن المعنى الظاهر .

« وهذا هو التأويلُ الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات ، فقد يصنِّفُ بعضُهم في إبطال التأويل وذمِّه ، ويقولُ بعضُهم: آياتُ الصفات لا تؤوَّل. ويقول الآخر: بل يجبُ تأويلها . ويقول الثالث: بل التأويلُ جائز ، يُفعلُ عند المصلحة ، ويُتركُ عند المصلحة ، أو التأويلُ يصلحُ للعلماءِ دون غيرهم»[1] .

فهذا هو الذي يعنونه من معاني التأويل الثلاثة ، وهو الذي فيه التنازع والاختلاف ، أما المعنيان الأوَّلان السابقان للتأويل فلا تنازعَ ولا خلافَ فيهما.

وقال الإمامُ أبو جعفر الطحاوي في عقيدته يردُّ تأويلاتِ فِرَقِ المتكلمين لصفاتِ الله ، وذلك أثناءَ حديثه عن نفي المعتزلة لرؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة: « ولا يصحُّ الإيمانُ بالرؤيةِ لأهل دار السلام لمن اعتبرَها منهم

(١) الإكليل: ٢٤ ـ ٢٥ .

بوَهْم، أو تأوّلها بفهْم . إذ كانَ تأويلُ الرؤية ـ وتأويلُ كلِّ معنى يُضافُ إلى الربوبية ـ تَرْكَ التأويل ، ولزومَ التسليم ، وعليه دينُ المسلمين . »[1].

ومعنى كلامه: أنَّ رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لا تقبلُ الوهم أو سوءَ الفهم، فمنْ توهَّمَ فيها تشبيهاً لله بخلقِه ، فإمّا أنْ يؤوِّلها ويصرفها وينفيها ويُعطِّلها ، وإما أنْ يجسِّمَ اللهَ بخلقه ، وكِلا الأمريْن باطل .

ومعنى قوله: « وتأويلُ كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم »: .فهْمُ آيات الصفات الصحيح لا يتحققُ إلا بعدم التأويل والصَرف والتحويل ، وعدم محاولةِ إدراكِ كيفيةِ هذه الصفات، وعدم تصوُّر حقيقة ذات الله المتصفةِ بهذه الصفات .

التأويلُ في المرة الأولى: « تأويلُ كلِّ معنى » يُرادُ به التأويلُ بالمعنى الثاني الذي قررْناه ، وهو الفهمُ والتفسير والبيان .

والتأويلُ في المرة الثانية: « تَرْكُ التأويل » يُرادُ به التأويلُ بالمعنى الأول، وهو بيانُ حقيقةِ الشيء وصورتِه الفعلية ، واللهُ مُنزَّهٌ عن التجسيم ومشابهةِ المخلوقين، ولهذا لا يمكنُ تصوُّرُ كيفيةِ ذاتِ الله ، وكيفيةِ اتصافه بصفاته.

كما يُرادُ به المعنى الثالث للتأويل ، وهو الصرفُ والتحويل ، لأننا لو أوَّلْنا صفاتِ الله ، وصرَفْناها إلى معانٍ أخرى ، فسوفَ نعطِّلها وننفيها .

ولما شرحَ الإمامُ عليُّ بنُ علي بن أبي العِزّ الحنفي كلامَ الطحاوي السابق قال عن المعاني الثلاثة للتأويل:

« فالتأويلُ في كتابِ الله وسنة رسوله ﷺ هو: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

فتأويلُ الخبر: هو عينُ المخبَّر به .

وتأويلُ الأمر: نفسُ الفعل المأمورِ به .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٢٤٩/١ .

وأمّا ما كان خبراً ، كالإخبار عن اللهِ واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعْلَمُ تأويله ، الذي هو حقيقتُه .

وهذا هو التأويلُ الذي لايعلمُه إلا الله .

لكن لا يلزمُ من نفي العلم بالتأويل نفيُ العلم بالمعنى ، الذي قصدَ المخاطِبُ إفهامَ المخاطب إياه . فما في القرآن آيةٌ إلا وقد أمَرَ اللهُ بتدبُّرها، وما أنزلَ آيةً إلا وهو يحبُّ أنْ يُعلمَ ما عَنى بها ، وإنْ كان تأويلها لا يعلمه إلا الله .

هذا هو معنى التأويل في الكتابِ والسنةِ وكلام السلف .

والتأويلُ في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه ، يُريدونَ به تفسيرَ الكلام ، وبيانَ معناه ، سواءٌ وافقَ ظاهره أو خالفه .

وهذا اصطلاحٌ معروف . وهذا التأويل كالتفسير ، يُحْمَدُ حقُّه ، ويُرَدُّ باطله .

والتأويلُ في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو: صرفُ اللفظِ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمالِ المرجوح ، لدلالة توجبُ ذلك .

وهذا هو التأويلُ الذي يتنازعُ الناسُ فيه في كثير من الأمور الطلبيةِ والخبرية .

فالتأويلُ الصحيحُ منه: الذي يوافقُ مادلَّتْ عليه نصوص الكتاب والسنة ، وماخالفَ ذلك فهو التأويلُ الفاسد »[1] .

التأويلُ بمعناه الثالث ـ وهو الصرفُ والتحويل نوعان: منه تأويلٌ صحيحٌ مقبول ، وهو ما يتمُّ فيه صرفُ اللفظ عن معناه الظاهر غير المراد ، إلى معنى آخر مُراد ، بشرطِ أن يحتملَ اللفظ ذلك المعنى الآخر ، وبشرطِ قيام ضرورةٍ تدعو إلى التحوُّلِ للمعنى الثاني ، وبشرطِ توفر دليل من نصوص

(١) مقتطفات من شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز الحنفي: ١/٢٥٢ ـ ٢٥٦ .

الكتاب والسنة تدلُّ على ذلك .

أما التأويلُ المذمومُ الفاسد ، فهو الذي يتمُّ صرفُ اللفظ عن المعنى الأول، وتحويله إلى المعنى الثاني ، الذي لا يحتمله اللفظ ، ولا ضرورة إليه ، ولا دليلَ عليه .

والتأويلُ الفاسدُ مرفوض ، وكثيراً ما صدرَ عن بعض المتأخرين ، وبخاصةٍ أصحاب الفرقِ وعلماءِ الكلام .

وأكثرُ ما يكونُ التأويلُ والصرفُ المرفوض في فهم علماءِ الكلام لصفاتِ الله، وبخاصةٍ تلك الصفاتُ التي في فهمها إشكال ، ويُظن منها مشابهةُ الله بخلقِه .

وحولَ هذا المعنى يقولُ قائِلهم في « جوهرة التوحيد »:

وكلُّ نصٍّ أوْهَمَ التَّشْبيها أوِّلْهُ ، أوْ فَوِّضْ ، وَرُمْ تنْزيها

ولا نوافقُ الناظمَ على هذا النظم ، ويجبُ أنْ نفهَم نصوصَ القرآن التي تتحدثُ عن صفات الله ، كما فهمها الصحابةُ والتابعون ، حيث أثبتوها لله كما أخبرَ الله ، وكما يليقُ بجلال الله، بدون تشبيهٍ ولا تجسيم ولا تأويل ولا تعطيل ولا تكيف .

ومن هذا نعلمُ تطوُّرَ استعمالِ مصطلح « التأويل » في التاريخ الاسلامي، وكيف ابتعدَ في استعمالِ العلماءِ له عن معناهُ في القرآن والسنة، إلى معنى اصطلحَ عليه فيما بَعد .

وَرَدَ التأويلُ في القرآن والسنة بمعنى الفعل والأداء ، والردِّ والرجوع ، وتحديدِ العاقبة والمآل .

ثم تطورَ فيما بعد ، فصارَ يستعملُ في معنى الفهم والتفسير والبيان والكشف ، وهذا ما استعمله فيه ابنُ جرير الطبري وغيره .

ثم تطور فيما بعد ، وابتعد كثيراً عن معناه في الاستعمالِ القرآني

والحديثي، ليُستعملَ بمعنى الصرف والتحويل ، وهو ما يتبادَرُ إلى الذهن عند إطلاقه .

ونلحظ توفر المعنى الاشتقاقي اللغوي للتأويل في معانيه الثلاثة ، وفي هذا نوردُ ما قاله أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات:

« ومن كلِّ ماسبق يتبينُ لنا أنَّ الكلام:

- إذا وُقِفَ به عند المعنى الظاهر ، كانت الغاية منه هذا المعنى الظاهر. ويكونُ المرادُ بالتأويل هو التفسير .

- وإذا كانَ المرادُ به تحققه في عالم الواقع إنْ كان خبراً ، أو تحقيقه إنْ كان طلباً ، كانت هذه هي الغايّة المرادة منه ، وهذا غيرُ التفسير .

- وإذا تجاوَزْنا المعنى الظاهرَ إلى المعنى غير الظاهر ، كانت الغاية المرادة من الكلام المعنى غير الظاهر ، لدلالةِ القرينةِ على ذلك . وكان هذا تأويلاً - وليس تفسيراً، باصطلاح المتأخرين . ويمكنُ أنْ يدخلَ في التفسير حسبَ اصطلاح السلف »[1] .

ونحن نُؤثِرُ استعمالَ التأويل بمعناه الأول ، الذي يقصرُه على الله ، كما نفضِّلُ استعماله بالمعنى الثاني ، الذي ينصبُّ على فهم لطائفِ وخفايا القرآن.

ولا نرى استعماله بالمعنى الثالث ، الذي هو الصرفُ والتحويل ، لأنَّ المقبولَ الصحيحَ منه يدخلُ ضمن التأويل بالمعنى الثاني . والله أعلم .

---

(١) التعريف بالقرآن الكريم لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١٠٨

الخاتمة

بهذا ينتهي كلامُنا عن « التفسير والتأويل في القرآن » ، وبهذا تتوقفُ جولتُنا مع مصطلح « التأويل » .

لقد كانت الرحلة مع « التأويل » شيقةً ممتعة ، كما كانت نافعةً مفيدة ، ولله الحمد .

لقد عشْنا مع التأويل في اللغة والاصطلاح ، وتجوّلْنا مع أمهاتِ كتبِ اللغة والمعاجم ، باحثين عن معنى التأويل فيها .

ثم سعدْنا وتمتّعْنا بمتابعةِ « التأويل » في سورِ القرآن الكريم ، وتأنّيْنا في جولتِنا وسيرنا مع سور القرآن التي أوردَتْ هذا المصطلح . وحرصْنا على الوقوفِ مع الآيات متدبرين ناظرين .

عشْنا مع التأويل في سورة يوسف ، وفي سورة الأعراف ، وفي سورة يونس ، وفي سورة الكهف ، وفي سورة الإسراء ، وفي سورة النساء ، وأخيراً في سورة آل عمران .

وقد لاحَظْنا أنَّ التأويلَ في كلِّ سورةٍ من هذه السورِ السبع وردَ في سياق خاص . وأنَّ التأويلَ في هذه السورِ كلِّها وردَ بمعنىً واحد ، وهو: بيانُ العاقبة، وتحديدُ المآل، وإيجادُ المطلوب ، وفعلُ الأمر ، وتحقيقُ الخبر.

وكانت وقفتُنا طويلةً أمام التأويل في سورةِ آل عمران ، لاختلاف العلماءِ في فهمه ، ولتعلُّقِه بالمحكم والمتشابه ، وهل يمكنُ تأويلُ المتشابه أو لا يمكن ، وما هي ضوابط التأويل الممكن .

ثم انتقلنا الى التأويل في حديثِ رسول الله ﷺ وكلام أصحابه ، وبيّنّا أنَّ الحديثَ عن التأويل كان يُرادُ به معنيان من معاني التأويل: التأويلُ الواردُ في القرآن بمعنى الردّ والأداء والحقيقة والمآل، والتأويلُ بمعنى الفهم والتفسير والبيان.

وأوردْنا أحـاديثَ عن الرسـول صلى الله عليه وسـلم ، وروايات عن أصحابه الكرام ، يتحققُ فيها هذا المعنى .

وتحدثنا أخيراً عن « الفرق بين التفسـير والتـأويل » ، وسـجلنا أهم الفروق الـتي أوردها العلماءُ بينهـما . ثم توقـفنا لتقـديم ما نراه راجـحاً في التفريق بينهما ، وشرَحْنا وجـهة نظرنا في أن الناظرَ في القرآن والمتدبّر فيه، لا بدَّ أن يمرّ بمرحلتَيْن متعاقبتَيْن:

المرحلة الأولى: هي تفسـيرُ القرآن، من خـلالِ الاطلاع على ما وردَ في تفسـير الآية من آياتٍ، وأحاديثَ صحيـحة، وكلام صحـابة وتابعين وعلماء سابقين ، وروايات حـول أسباب النزول والـنسخ والقراءات والغريب وغـير ذلك.

والمرحلة الثـانية: هي تأويلُ القـرآن ، بالالتفـات الى لطائفه وإشـاراته ، واستخراج حقائقه ودلالاته .

وبعدَ ذلك عرَضْنا فهمَ إمـام المفسرين أبي جعفر محـمد بن جرير الطبري لتأويل القرآن ، وتقسيمَه آياتِ القرآن الى ثلاثة أقسام من حيثُ تأويلها .

وأشَرْنا الى ورودِ معنى ثالثٍ للتأويل، في استعمـالِ المتأخرين من الفقهاء والأصوليين وعلماء الكلام، وهو استعـمالهم له بمعنى الصرفِ والتحـويل، وبيّنّا تحقق معنى التأويل اللغوي والاشتقاقي في هذا المعنى الجديد.

وسجّلنا تحـفُّظنا على استعـمالِ التأويل بمعناه الثـالثِ الطارىء على المعنيين السـابقين ، وأنَّ التـأويلَ والصـرفَ المقبـول الصـحيحَ يدخلُ ضـمنَ تفسـير النص، أيْ يدخلُ في المعنى الثاني ، وآثرنا استخدامَ التـأويل بمعنيَيْه: المعنى الوارد في القـرآن والسنة ، والمعنى الثـاني الذي استعملهُ فـيه بعضُ العلمـاءِ من سلف الأمة .

وبهذا ينتهي ما قدَّرَهُ الله لنا من كلام حول « التأويل في القرآن». والحمدُ لله الذي بنعـمته تتمُّ الصـالحات ، ونرجـو أن يتقـبلَ اللهُ منا هذا العـمل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس

المـــراجع

١ ـ صحيح الإمام البخاري .

٢ ـ صحيح الإمام مسلم ، بعناية محمد فؤاد عبدالباقي .

٣ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس . تحقيق عبدالسلام هارون .

٤ ـ مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داوودي. طبعة دار القلم ـ دمشق .

٥ ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي . تحقيق الدكتور محمد التونجي . طبعة عالم الكتب ـ بيروت .

٦ ـ الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية . لأبي البقاء أيوب ابن موسى الكفوي . تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري . مؤسسة الرسالة.

٧ ـ لسان العرب لابن منظور الأفريقي . طبعة دار صادر .

٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . لمحمد فؤاد عبدالباقي .

٩ ـ فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر العسقلاني .

١٠ ـ سنن أبي داود . بعناية محمد محي الدين عبدالحميد .

١١ ـ سنن الترمذي . طبعة أحمد شاكر .

١٢ ـ مسند أحمد بن حنبل ، بتحقيق شعيب الأرناءووط وفريقه . طبعة مؤسسة الرسالة .

١٣ ـ تفسير الإمام الطبري . طبعة دار الفكر .

١٤ ـ تفسير الإمام ابن كثير . طبعة دار الخير .

١٥ ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي . تحقيق د . مصطفى البغا .

١٦ ـ التفسير والمفسرون . للدكتور محمد حسين الذهبي .

١٧ ـ تفسير التحرير والتنوير. لمحمد الطاهر بن عاشور .

١٨ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية . طبعة السلفية في مصر.

١٩ ـ التعريف بالقرآن الكريم للدكتور أحمد حسن فرحات . بحث على الآلة الكاتبة غير منشور .

٢٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام . بعناية إبراهيم الأبياري ومن معه .
٢١ ـ شرح العقيدة الطحاوية . لابن ابي العز الحنفي . تحقيق شعيب الأرناءووط . مؤسسة الرسالة .
٢٢ ـ مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني . تحقيق الدكتور احمد فرحات. طبعة الكويت .